الجزء الأول المجلد الرابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العربي

بدمشق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ كانون الثاني سنة ١٩٥٩ م
٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ

مجلة

المجمع العلمي العربي

دمشق

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تصدر أربعة أجزاء في السنة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قيمة الاشتراك السنوي { في جميع البلاد العربية ١٠٠٠ قرش سوري
وفي سائر الاقطار ١٢٠٠ قرش سوري }

تدفع مقدماً

قصيــدة

منصور النمري في الرشيد

منصور بن الزِّبْرقان[1] بن سَلَمة النمري[2] ، ينتسب إلى قبيلة النَّمِر بن قاسط من ربيعة بن نزار ، من العرب العدنانية . وهو من رأس العين في الجزيرة ، وتلميذ كلثوم بن عمرو العتّابي وراويته ، عنه أخذ ومن بحره استقى ، معدود من فحول شعراء الدولة العباسية في القرن الثاني . قرّظه العتّابي عند الفضل بن يحيى البرمكي فاستقدمه من الجزيرة إلى بغداد واستصحبه، ثم وصله بهرون الرشيد ، فمدحه بالمدائح الجياد ونال كثيراً من عطاياه ، وكان يمتّ إلى الرشيد بالخؤولة من جهة نُتَيْلة النمرية أم العباس بن عبد المطلب . وتوفي بالرقة[3] في خلافة الرشيد (١٧٠ — ١٩٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان علي بن الجهم يقول : « أنا أشعر من امرئ القيس ، والنمري أشعر مني[4] » . وأحسن شعره قصيدته العينية التي مدح بها الرشيد ، فهي من أحسن القصائد في الشعر العربي في جميع عصوره . قال ابن المعتز في طبقات الشعراء : « هذه القصيدة عجيبة ، وتشبيبها في الشيب لم يقل مثله أحد » . وقال أيضاً : « قد أقام القيامة في تشبيب هذه القصيدة بالشباب » . والنقاد الذين قرظوا هذه القصيدة واستشهدوا بعدد من أبياتها وجعلوها أمثلة في الإحسان كثيرون .

---

(١) وقيل منصور بن سلمة بن الزبرقان . الأغاني ١٣/١٤٠

(٢) النسبة إلى النمر بن قاسط نَمَري .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٤

(٤) طبقات الشعراء ص ٤٣٨

وهذه القصيدة ـ على حسنها ـ لا يعرف منها حتى الآن إلا أبيات موزعة في كتب الأدب والتراجم . ولا توجد كاملةً إلا في مخطوطة «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» لأمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود بن رسلان الشيزري [1] .

وعدد أبيات هذه القصيدة تسعة وستون بيتاً لا يعرف منها إلا نحو من عشرين بيتاً متفرقة هنا وهناك غير مسلسلة ولا مرتبة ، فلما ظفرنا بها كاملةً بذلنا الجهد في تحقيقها ونشرها ، وتصحيح ما حرّف من ألفاظها .

أما مصادر ترجمة منصور النمري التي أخذنا منها هذه النبذة المختصرة في التعريف به فهي :

طبقات الشعراء لابن المعتز ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ص ٢٤٢ — ٢٤٨ و ص ٤٣٨

الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبعة دار الكتب المصرية ج ١٣ ص ١٤٠ — ١٥٧

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ ص ٦٥ — ٦٩

ونرجو أن نعود الى ترجمة هذا الشاعر وأخباره وما بقي من شعره ونستعين بها على كتابة دراسة وافية له في وقت قريب إن شاء الله .

خليل مردم بك

(١) انظر مقالنا في التعريف بهذه المخطوطة في مجلة المجمع العلمي العربي م٣٣ ص ٣٠

قال منصور النمري يمدح هرون الرشيد :

ما تَنْقَضي حَسْرَةٌ مِنّي وَلاَ جَزَعُ … إذا ذَكَرْتُ شَبَاباً[1] لَيْسَ يُرْتَجَعُ[2]

بَانَ[3] الشَّبَابُ وَفَاتَتْني بِشِرَّتِهِ[4] … صُرُوفُ دَهْرٍ وأيّامٌ[5] لَهَا خُدَعُ

ما كُنْتُ أُوفِي شَبَابِي كُنْهَ عِزَّتِهِ[6] … حَتّى انْقَضَى فَإذا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

تَعَجَّبَتْ أَنْ رَأَتْ أَسْرَابَ دَمْعَتِهِ … فِي حَلْبَةِ الْخَدِّ أَجْرَاهَا حَشاً وَجِعُ

إنْ كُنْتِ لِمْ تَطْعَمِي ثُكْلَ الشَّبَابِ وَلَمْ … تَشْجَيْ بِغُصَّتِهِ فَالْعُذْرُ لاَ يَقَعُ

لَوْ قَدْ لَبِسْتِ قِنَاعَ الشَّيْبِ كَانَ لَنَا … عُذْرٌ لَدَيْكِ وَرَاحَ اللَّوْمُ والْوَلَعُ[7]

أَبْكِي شَبَاباً سُلِبْنَاهُ وَكَانَ وَلاَ … تُوفِي بِقِيمَتِهِ الدُّنْيَا وَمَا تَسَعُ

ما كُنْتَ أَوَّلَ مَسْلُوبٍ شَبِيبَتَهُ … مَكْسُوِّ شَيْبٍ فَلاَ يَذْهَبْ بِكَ الْجَزَعُ

---

(١) في الأصل : سباباً .

(٢) في الأصل : ترتجع .

(٣) أودى الشباب . . . . طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٥

(٤) شِرَّةُ الشباب : نشاطه ، وفي الأغاني : بلذته .

(٥) . . . وأيامٌ لنا خدَعُ . ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١٥٣/٢ .

(٦) غِرَّتِهِ ، طبقات الشعراء والأغاني والإعجاز والإيجاز للثعالبي ص ١٦٦ وديوان المعاني .

(٧) وَلِع فلان بفلان يَوْلَعُ وَلَعاً : إذا لجَّ في أمره وحرص على إبدائه :

تِلكَ الأُسَى (١) مِن لِداتي (٢) في رُؤُوسِهِمِ — عَمائِمُ الشَّيبِ مُنجابٌ (٣) لَها الصَّلَعُ
لا تَعذُليني فَإنّي غَيرُ كاذِبَتي — عَنكِ الكَذُوبُ (٤) ولا في وُدِّكُم طَمَعُ
قَد كُنتُ فِيكُنَّ ذا جاهٍ وذا مِقَةٍ (٥) — أيّامَ غُصنُ شَبابي لَيِّنٌ تَرِعُ (٦)
إنّي لَمُعتَرِفٌ ما فِيَّ مِن أرَبٍ — لِلغانِياتِ فَما لِلنَّفسِ تَنخَدِعُ
ما واجَهَ الشَّيبَ مِن عَينٍ وإن وَمِقَت (٧) — إلّا لَها نَبوَةٌ عَنهُ ومُرتَدَعُ (٨)
قَد كُنتَ تَقضي عَلى فَوتِ الشَّبابِ أسًى — لَولا تَعَزّيكَ أنّ العَيشَ مُنقَطِعُ
لا بَل بَقاءُ أميرِ المُؤمِنينَ لَنا — فِيهِ الغِنَى وحَياةُ الدِّينِ والوَرَعُ
إذا أخلَفَ الغَيثُ لَم تُخلِف مَخايِلُهُ (٩) — أو ضاقَ أمرٌ ذَكَرناهُ فَيَتَّسِعُ
إنّ الخَلِيفَةَ هرُونَ الّذي امتَلأت — مِنهُ القُلُوبُ رَجاءً تَحتَهُ فَزَعُ

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) الأُسَى والإِسَى : جمع أُسوة وهي القدوة وما يتعزى به الحزين .
(٢) اللِّدات : جمع لِدَة وهو التِّرب الذي وُلِدَ معك وتربّى .
(٣) انجاب : انشق وانكشف .
(٤) الكَذُوبُ : النفس لأنها تحدث الإنسان بالأمور التي لا يبلغها وسعه . وفي الأصل: اللدوب وهو من سهو الناسخ .
(٥) المِقَة : المحبة .
(٦) التَّرِع : الغَضّ . يقال عشبٌ ترع إذا كان غضًّا (التاج) .
(٧) وَمِقَتْ : أحبت .
(٨) في الأصل : ومرتجع ، والتصحيح من أمالي القالي ١١٢/١ وحماسة ابن الشجري ص ٢٣٩ .
(٩) المَخايِلُ من السحب : المنذرة بالمطر . أنامله : العمدة ٢/١١٠ .

مَفْرُوضَةٌ فِي رِقَابِ ٱلنَّاسِ طَاعَتُهُ … عَاصِيهِ مِنْ رِبْقَةِ ٱلإِسْلَامِ مُنْقَطِعُ (١)

أيُّ ٱمْرِيءٍ (٢) بَاتَ مِنْ هَرُونَ فِي سَخَطٍ … فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ

أُثْنِي عَلَى ٱللّٰهِ إِحْسَاناً وَأَشْكُرُهُ … أَنْ لَيْسَ لِي عَنْ وَلِيِّ ٱلأَمْرِ مُنْقَطَعُ (٣)

أَصْفَيْتُ وُدِّي لِهَرُونَ وَشِيعَتِهِ … لَمَّا تَفَرَّقَتِ ٱلأَحْزَابُ وَٱلشِّيَعُ

لَمَّا أَخَذْتُ بِكَفِّي حَبْلَ (٤) طَاعَتِهِ … أَيْقَنْتُ أَنِّي مِنَ ٱلأَحْدَاثِ مُمْتَنِعُ

هُوَ ٱلإِمَامُ ٱلَّذِي طَابَ ٱلْجِهَادُ بِهِ … وَٱلْحَجُّ لِلنَّاسِ وَٱلأَعْيَادُ وَٱلْجُمَعُ

حِصْنٌ بَنَتْهُ يَمِينُ ٱللّٰهِ يَسْكُنُهُ ٱلْـ … إِسْلَامُ صَعْبُ ٱلْمَرَاقِي لَيْسَ يُطَّلَعُ

يَقْرِي ٱلْعَدُوَّ ٱلْمَنَايَا وَٱلْعُفَاةَ نَدًى … مِنْ كُلِّ ذَاتِ ٱلنَّدَى (٥) أَخْوَاضُهُ تَرَعُ

صَبٌّ إِلَى ٱللّٰهِ زَوَّارٌ لِكَعْبَتِهِ … فِي كُلِّ عَامٍ وَإِنْ زُوَّارُهَا شَسَعُوا

لَا يَحْفِلُ ٱلْبُعْدَ مِنْ دَارٍ وَلَا وَطَنٍ … إِذَا سَرَى بِوُفُودِ ٱللّٰهِ وَٱتَّبَعُوا

عَزَّاقَةُ (٦) ٱلنَّفْسِ لَا يَلْوِي عَلَى دَعَةٍ … وَقَدْ يَرَى خَفْضَ مَنْ يَلْهُو وَيَتَّدِعُ (٧)

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

---

(١) كذا ولعل الصواب مُنْخَلِعُ .

(٢) من لم يكن بأمين الله معتصماً … فليس . . . . العمدة ٢ / ١١٠ .

(٣) كذا ولعل الصواب مُنْتَجَعُ .

(٤) في الأصل : جُلُّ طاعته .

(٥) القِرَى . ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١ / ٥٩ .

(٦) في الأصل : عرّافه .

(٧) يَتَّدِعُ : يسكن الى الدعة والخفض والراحة . وفي الأصل : يبتدع . وهو تحريف .

بَرٌّ بِمَكَّةَ لَمْ يُجْنَحْ إِلَى بَلَدٍ   إلاَّ تَخَرَّقَ (١) فِيهِ ٱلرِّيُّ وَٱلشِّبَعُ

تُزْهَى بِهِ عَرَفَاتٌ (٢) حِينَ يَنْزِلُهَا   وَٱلْمَشْعَرَانِ (٢) وَتَأْسَى حِينَ يَنْدَفِعُ

تِلْكَ ٱلْمَنَازِلُ إِنْ غِبْتَ زِيَارَتَهُ   حَنَتْ كَمَا يَسْتَحِنُّ ٱلْوَالِهُ ٱلنَّزِعُ

يَقْظَانُ لاَ يَتَعَايَا بِٱلْخُطُوبِ إِذَا   نَابَتْ وَلاَ يَعْتَرِيهِ ٱلضِّيقُ وَٱلزَّمَعُ (٣)

مُسْتَحْكِمُ ٱلرَّأْيِ مُسْتَغْنٍ بِوَحْدَتِهِ   عَنِ ٱلرِّجَالِ بِرَيْبِ ٱلدَّهْرِ مُضْطَلِعُ

لاَ يَمْلِكُ ٱلْبُخْلُ مِنْ هَرُونَ أَنْمُلَهُ (٤)   وَٱلْجُودُ يَمْلِكُهُ وَٱلْمَالُ يُنْتَزَعُ

إِذَا بَلَغْنَا جِمَالَ (٥) ٱلدِّينِ لَمْ تَرَنَا   لِلْحَادِثَاتِ بِحَمْدِ ٱللهِ نَخْتَشِعُ

أَدَّى إِلَيْكَ مَطَايَانَا وَأَرْحُلَنَا (٦)   تَقَاذُفُ ٱلسَّيْرِ إِنَّ ٱلْخَيْرَ مُتَّبَعُ

مِنْ كُلِّ سَمْحِ ٱلْخُطَى أَوْ كُلِّ يَعْمَلَةٍ (٧)   خُرْطُومُهَا بِٱللُّغَامِ ٱلْجَعْدِ مُلْتَفِعُ

---

(١) تَخَرَّقَ : توسع .

(٢) عرفات : موقف الحاج على اثني عشر ميلاً من مكة . وأراد بالمشعرين : المشعر الحرام وهو مزدلفة وجَمْع وهو من مناسك الحج .

(٣) الزَّمع : الدهش .

(٤) كذا ولعلها أَنْمُلَة لأن جمع أنملة أنامل وأنملات لا أنمُل .

(٥) اذا بلغنا جمال الأرض . . . . ديوان المعاني ١/٥٩ .

(٦) في الأصل : وأرجلنا وهو تحريف .

(٧) اليعملة : الناقة النجيبة .

ARCHIVE

وَكَبٌ مِنَ النَّمِرِ (١) عاذُوا بِأَبْنِ عَمَّتِهِمْ (٢) … مِنْ هاشِمٍ حِينَ لَجَّ الأَزْلَمُ الجَذَعُ (٣)
مَتُّوا إِلَيْكَ بِقُرْبَى مِنْكَ تَعْرِضُها (٤) … لَهُمْ بِها فِي سَنامِ المَجْدِ مُطَّلَعُ
قَوْمٌ هُمُ وَلَدُوا العَبَّاسَ وَالِدَكُمْ … وَأَنْتَ بَرٌّ وَعِنْدَ المَرْءِ مُصْطَنَعُ
يُنْشِي (٥) العُيُونَ إِذا هَرُونُ وَاجَهَها … نُورٌ تَكادُ لَهُ الأَبْصارُ تَلْتَمِعُ (٦)
مُباشِرٌ لِأُمُورِ المُلْكِ مُبْتَذِلٌ (٧) … فِيها قَرِيحَةَ رَأْيٍ ما بِهِ طَبَعُ (٨)
تَهْدِيهِ فِي ظُلُماتِ الرَّأْيِ تَجْرِبَةٌ (٩) … عَيْنٌ مِنَ الحَزْمِ ما فِي ماقِها قَمَعُ (١٠)
إِنَّ المَكارِمَ وَالمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ … أَحَلَّكَ اللهُ مِنْها حَيْثُ تَجْتَمِعُ (١١)

(١) النمر : قبيلة الشاعر وتسكين الميم للضرورة .
(٢) يشير بذلك إلى أن أم العباس بن عبد المطلب جد بني العباس كانت نمرية واسمها نُتَيْلَة النمرية (طبقات الشعراء ص ٢٤٤) .
(٣) الأزلم الجذع : الدهر الشديد الكثير البلايا .
(٤) كذا ولعلها (تفرضها) أي توجبها وتقدرها أو (تعرفها) .
(٥) في الأصل : يغشى .
(٦) تلتمع : تذهب .
(٧) كذا ولعلها مُبتَدِه .
(٨) الطَّبَعُ : الشين والعيب والكسل .
(٩) كذا ولعلها تَجْزِبُهُ أي تشتد عليه والضمير راجع الى ظلمات الرأي .
(١٠) القَمَعُ : فساد في موق العين وقلة النظر عمشاً .
(١١) تنسع ، الأغاني .

إذَا رَفَعْتَ امْرَأً فَاللهُ يَرْفَعُهُ(١) ... وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ الأَقْوَامِ يَتَّضِعُ(٢)

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالأَبْطَالُ مُعْلَمَةٌ ... يَوْمَ الوَغَى وَالمَنَايَا(٣) بَيْنَهُمْ قُرَعُ

كَمْ ضَرْبَةٍ لَكَ تَحْكِي فَا(٤) قُرَاسِيَةٍ(٥) ... مِنَ المَصَاعِبِ فِي أَشْدَاقِهَا شَنَعُ

أَوْ طَعْنَةٍ نَفَذَتْ حَتَّى بَدَا وَضَحٌ ... مِنَ السِّنَانِ وَرَاءَ المَتْنِ مُذَّرِعُ(٦)

يَارُبَّ قِرْنٍ تَخَطَّيْتَ الحُتُوفَ إلَى ... حَوْبَائِهِ(٧) وَعَجَاجُ المَوْتِ مُرْتَفِعُ

كَمْ شِدَّةٍ لَكَ لَوْ كَانَتْ عَلَى جَبَلٍ ... لَانْهَدَّ مِنْ وَزْنِهَا(٨) أَوْ كَادَ يَنْقَلِعُ

لَيْلٌ مِنَ النَّقْعِ لَا نَجْمٌ وَلَا قَمَرٌ ... إلَّا جَبِينُكَ وَالمَذْرُوبَةُ الشُّرُعُ(٩)

أَلْقَى بَنُو(١٠) الأَصْفَرِ الأَذْقَانَ وَاسْتَشْعَرُوا ... ذُلَّ الخُنُوعِ وَكَانُوا قَطُّ مَا خَنَعُوا

(١) رافعه . العمدة .

(٢) مُتَّضِعُ ، الأغاني وتاريخ بغداد والعمدة .

(٣) في الأغاني : « والمنايا صابها فزع » ؟

(٤) أي تشبه فم قراسية .

(٥) في الأصل « قُراشية » وهو تحريف والصواب ما أثبتناه والقراسية : الضخم الشديد من الإبل ، والمصاعب : جمع مُصْعَب وهو الفحل .

(٦) في الأصل : مُدَّرَعُ والصواب ما أثبتناه . يقال : اذَّرَعَ ذراعيه من الجبة : أخرجها .

(٧) الحوباء : النفس .

(٨) المراد بالوزن : الثقل ، يقال وَزَنَهُ وَزْنًا : رفعه لينظر ما ثقله .

(٩) في الأصل : الشَّرُعُ . وهو تحريف . والمذروبة الشرع : الأسنة المشرعة .

(١٠) بنو الأصفر : الروم .

وَالَيْتَ حَوْلاً(١) مُغاراً في بِلادِهِمِ ... وَلِلْمَنَايَا سَحَابٌ لَيسَ يَنْقَشِعُ
لَمَّا أَنَاخَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ... وَٱلْخَيْلُ عَابِسَةٌ وَٱلْمَوْتُ مُكْتَنِعُ(٢)
خَاضَتْ إِلَيْهِمْ خَلِيجَ ٱلْبَحْرِ هَيْبَتُهُ ... فَأَذْعَنُوا بِأَداءِ ٱلْخَرْجِ وَٱنْتَجَعُوا
عَاذُوا بِسَبْعَةِ حِيطَانٍ فَسَوَّرَهَا ... جُنْدٌ مِنَ ٱلرُّعْبِ لَمَّا نَالَهُمْ خَضَعُوا
حُكْمُ ٱلْخَلِيفَةِ هُرُونٍ يُذَكِّرُنَا ... أَحكَامَ أَحْمَدَ بَلْ أَخلاقُهُ جُمَعُ
مَشَابِهٌ مِنْ نَبِيِّ ٱللهِ تَنْزِعُهُ(٣) ... إِلى ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْأَشْبَاهُ تُنْتَزَعُ
وَمِنْ إِمَامِ ٱلْهُدى ٱلْمَنْصُورِ يَلْحَقُهُ ... قَهْرُ ٱلأُمُورِ وَحَزْمٌ حِينَ يَفْتَرِعُ
وَتُشْبِهُ ٱلقَائِمَ ٱلْمَهْدِيَّ مَرْحَمَةٌ ... مِنْهُ وَبَحْرُ نَوَالٍ حِينَ يُنْتَجَعُ
وَمَا أَخَلَّ وَصِيٌّ ٱلْأَوْصِيَاءِ بِهِ ... مُحَمَّدُ بْنُ(٤) عَلِيٍّ نُورُهُ ٱلصَّدِعُ
ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ٱصْطُفِيَتْ ... فَٱلْحَقُّ مَا نَطَقُوا وَٱلْحَقُّ مَا شَرَعُوا
يَاٱبْنَ ٱلْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِ ٱلنَّبِيِّ وَيَاٱبْنَ ٱلْأَوْصِيَاءِ أَقَرَّ ٱلنَّاسُ أَمْ(٥) دَفَعُوا

(١) في الأصل : جولاً معاراً .
(٢) مكتنع : حاضرٌ دانٍ .
(٣) نَزَعَ الولد أباه وإلى أبيه : أشبهه .
(٤) محمد بن علي : هو والد السفّاح والمنصور .
(٥) في الأصل : «أو» واخترنا رواية طبقات الشعراء .

إنّ الخلافةَ كانتْ إرثَ والدِكمُ ... مِن دونِ تيمٍ (١) وعفوُ اللهِ مُتّسِعُ (٢)

لولا عديٌّ (٣) وتيمٌ لم تكنْ وصلتْ ... إلى أميّةَ تَمريها (٤) وترتضعُ

تِسعينَ عاماً إلى عشرٍ مُجرّمةٍ (٥) ... مِنَ السِّنينَ وأنفُ الحقِّ مُجتدَعُ

وما لآلِ عليٍّ في إمارتِكمْ ... حقٌّ وما لهمُ في إرثِكمْ طمعُ

يا أيها الناسُ لا تعزبْ عقولُكمُ ... ولا تُضِفْكمْ إلى أكنافِها البِدعُ

العمُّ أولى مِن ابنِ العمِّ فاستمعوا ... قولَ (٦) النصيحِ فإنّ الحقَّ يُستمعُ

قال أبو العباس (٧) : هذه القصيدة من نادر شعره ، وجيد مدحه ، وفيها أشياء نحن ذاكروها إن شاء الله ، ومنبهون على ما فيها ، ومفسرون ذلك أجمع .

أما ما ذكره فيها من البكاء ، فكلام متقدم لا يعرف لمحدث مثله ، من ذلك قوله :

ما تنقضي حسرةٌ [مني ولا جزعٌ ... إذا ذكرتُ شباباً ليس يرتجعُ]

ARCHIVE

---

(١) بنو تيم بن مُرّة : من قريش منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) في الأصل : « يتسع » واخترنا رواية طبقات الشعراء وموضع هذا البيت في الطبقات بعد الذي يليه هنا .

(٣) بنو عدي بن كعب : من قريش منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) مَرَى الناقة : مسح ضرعها لتدر .

(٥) في الأصل : « محرمة » والصواب ما أثبتناه . ومعنى المجرّمة : التامة .

(٦) في الأصل : « قولَ النصيحة إنّ الحقّ مُستَمَعُ » واخترنا رواية طبقات الشعراء .

(٧) لعله عبد الله بن المعتز فقد كان يكنى بأبي العباس .

وقوله :

ما كنت أوفي شبابي [كنه عزته حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ]

وقوله :

إن كنتِ لم تطعمي [ثكل الشباب ولم تشجي بغصته فالعذرُ لا يقعُ]

معنى هذا البيت : أني وإن اعتذرت من جزعي عليه ، ووصفت الرزية فأسهبت وأطنبت ، فغير بالغ حقيقة وصفه ، وإنما يفهم منه مثل ما فهمت ، من بلي بمثل ما بليت ، فكأنه شيء لا يعرف حقيقته إلا من شاهده ، دون من وصف له .

ومما يستحسن من خروجه قوله :

قد كدتَ تقضي على فوت الشباب [أسىً لولا تعزيك أنَّ العيشَ منقطعُ]

يقول : إن الناس ماضون ، فإما خارجون عن الشباب من السن ثم الموت ، وإما ميتون قبل ذلك .

وقوله : لولا تعزيك أن العيش منقطع[1] .

وخروجه أيضاً :

لا بل بقاء أمير المؤمنين لنا فيه الغنى وحياة الدين والرُّفَعُ

الرُّفَعُ : جمع رفعة .

وقوله : يمين الله[2] : قوة الله وكذلك قيل في تفسير هذه الآية « والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه » .

انتهى من « الجمهرة »

---

(١) كذا ولعل هذا السطر زائد .

(٢) في قوله :

حصنٌ بناه يمين الله يسكنه الإسلام صعب المراقي ليس يُطَّلَعُ

أسماء الشهور في العربية(١)

كثيراً ما تساءل الذين يؤرخون بالتأريخ الميلادي ، عن حقيقة أسماء الشهور التي تُستعمل في الأقطار العربية الشرقية ، وأسماء الشهور التي تُستعمل في الأقطار العربية الإفريقية . وكثيراً ما تساءلوا عن أيها أصلح للبقاء .

وهذا الموضوع واسع ربما ملأ كتاباً برأسه . وانني ألخصه بالكلمات التالية ، وأنهيها برأيي في جواب ما سأل السائل عنه .

أسماء الشهور العربية :

كان أجدادنا العرب الأقدمون ، سواء في جنوبيّ جزيرة العرب أو في شماليها ، قبل الميلاد وبعده ، يستعملون للشهور أسماء شتى منها (ذو مجتين وذو تمنع وذو برم الخ .) في الجنوب ، ومنها (المؤتمر وناجر وخوّان وصوان الخ) في الشمال . وقد دثرت هذه الأسماء وأشباهها .

ولم تعش الا أسماء الشهور العربية التي كانت شائعة عند عرب الحجاز خاصةً قبيل ظهور الإسلام فاستعملها المسلمون في التأريخ الهجري وهي : (المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر الخ) وكلها اليوم معروفة وشائعة في جميع البلاد العربية والإسلامية . وهي خارجة عن نطاق بحثنا هذا .

أسماء الشهور السامية الأصول :

من المعلوم أن السنة الهجرية هي سنة قمرية ، وأن الفصول لا تثبت إلا في السنة الشمسية . فعندما شملت الفتوحات الإسلامية الشأم والعراق مست الحاجة ،

(١) سألتْ وزارة التربية والتعليم عن رأي المجمع في موضوع أسماء الشهور السامية الأصول ، وأسماء الشهور اللاتينية التي تستعمل في التأريخ الميلادي ، فوضع الأمير مصطفى الشهابي هذا البحث ووافق المجمع عليه .

في الأعمال الزراعية خاصةً ، الى استعمال أسماء شهور تساير التقويم الشمسي ، فاقتُبِسَت الأسماء التي كان يستعملها السريان والكلدان وغيرهم من الأقوام السامية وهي : كانون الثاني وشباط وآذار ونيسان وأيار وحزيران وتموز وآب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول .

وعندما نُقلت كتب الفلك والزراعة وغيرها من اليونانية ومن السريانية الى العربية استُعملت فيها أسماء الشهور المذكورة ، ثم عَمَّ استعمالها الكتب التي ألفها القدماء فصار المرء يراها حتى في كتب الأدب وفي الأبيات الشعرية . وسكان البلاد العربية الآسيوية لا يعرفون اليوم غيرها . وهي ذائعة على ألسنتهم وفي كتبهم .

وهذه الأسماء ليست عربية . وقد عدتها الأمهات من معجماتنا أسماء رومية . والصحيح أنها أسماء سريانية ، وأنها تمت الى أصول سامية قديمة ، وأن كثيراً منها اشتركت فيها الآرامية والسريانية والعبرية وغيرها . والبحث في أصل كل اسم من هذه الأسماء طويل . وكذلك البحث في التقويم وفي بدء السنة لدى الأقوام القديمة المذكورة وغيرها .

أسماء الشهور اللاتينية في البلاد العربية الأفريقية :

ليست أسماء الشهور اللاتينية التجار مقتبسة من الفرنسية أو الانكليزية على ما ظنه صاحب الاقتراح ، بل هي قديمة اقتبسها العرب في الأندلس من أعجمية سكانها أي من اللهجة الأندلسية للغة قشتالة القديمة وهي لغة متحدرة من اللاتينية . ثم عمّ استعمال تلك الألفاظ الأقطار العربية الإفريقية لصلات الأقطار المذكورة بالشعوب اللاتينية ، ولبعدها يومذاك عن الشرق العربي الذي ظل مقتصراً على استعمال أسماء الشهور السامية أي كانون الثاني وشباط وآذار الخ .

وقد وردت أسماء الشهور اللاتينية في كتب زراعية أندلسية ومغربية قديمة ، وذكرها المسعودي (٣٤٦ هـ) في (مروج الذهب) ، والبيروني (٤٤٠ هـ) في (الآثار الباقية عن القرون الخالية) فقال نقلاً عن غيره : إن المغاربة يسمون الشهور بالأسماء الآتية : (مايه ، يونيه ، يوليه ، أغشت ، ستنبر ، أكتوبر ، نونبر ، دجنبر ، ينير ، فبرير ، مرصه ، ابريل) . وقال : أما الروم فأسماء شهورهم (ينواريوس ، فبراريوس ، مرطيوس ، افريليوس ، مايوس ، يونيوس ، يوليوس ، أغسطس ، سبطمبريوس ، طمبريوس ، نوابريوس ، دمبريوس) . وممن ذكروا أسماء الشهور اللاتينية الأصل القلقشندي (٨٢١ هـ) في (صبح الأعشى) وسماها شهور الروم ، وبدأها بتشرين الأول وهي : (أكتوبر ، نوفبر (وكذلك نونبر) دجنبر ، ينير ، فبرير ، مارس ، أبريل ، مايه ، يونيه ، يوليه ، أغشت ، ستنبر ، (وكذلك شتنبر) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويتضح من ذلك أن العربية اقتبست من القديم في الأندلس والمغرب أسماء الشهور اللاتينية مثلما اقتبستها الفرنسية والإسبانية والبرتغالية والايطالية وغيرها من اللغات . أما الأسماء اللاتينية التي تستعمل اليوم في مصر فهي أحدث تعريبا ، وقد اختلف في نطقها عن الأسماء المغربية القديمة على ما هو واضح . وها كم الأصول اللاتينية للأسماء المعربة التي تستعمل اليوم في الإقليم المصري :

الاسم المعرب في مصر	الأصل اللاتيني	الملاحظـات
ينـاير	Januārius	حرف j (ج) الفرنسي والانكليزي حديث وهو يلفظ ياء باللاتينية .
فبراير	Febrārius	وهو Februārius باللاتينية الكلاسيكية .
مارس	Martius	وهو Marzo بالايطالية والاسبانيـة و Mars بالفرنسية .

الاسم المعرب في مصر	الأصل اللاتيني	اللاحظـات
ابريل	Aprīlis	وهو Aprile بالإيطالية و Abril بالإسبانية .
مايو « وكذلك مايه »	Majus	حرف j يلفظ ياء . وهو بالإسبانية Mayo .
يونيو « وكذلك يونيه »	Junius	حرف j يلفظ ياء . وهو بالبرتغالية Junho .
يوليو « وكذلك يوليه »	Julius	على اسم يوليوس قيصر لأنه ولد في هذا الشهر .
أغسطس	Agustus	باللاتينية الشائعة و Augustus باللاتينية الكلاسيكية .
سبتمبر	September	الشهر السابع لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .
اكتوبر	October	الشهر الثامن Octo أي ثمانية لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .
نوفبر	November	الشهر التاسع لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .
ديسمبر	December	الشهر العاشر (Decem أي عشرة) لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخلاصة :

يتضح مما مرّ ذكره أن أسماء الشهور المستعملة في الأقطار العربية في التأريخ المسيحي كلها غير عربية ، تستوي في ذلك الأسماء السامية الأصول والأسماء اللاتينية الأصل . ولكنها جميعاً معرّبات قديمة دخلت في العربية وأصبح لها حكم الكلمات العربية الصحيحة .

ومن المعلوم أن الأولى (كانون الثاني ، شباط ، آذار الخ .) هي أقدم تعريباً ، وأعم وروداً ، وألصق بتراثنا العلمي والأدبي القديم من الثانيـة . فجميع الكتب التي ترجمها أو ألفها علماؤنا وأدباؤنا القدماء في الشرق العربي لا تذكر غير تلك الأسماء الشرقية . وقد ذكرت أيضاً إلى جانب الشهور القبطية (طوبة ، أمشير ، برمهات الخ .) في كتب ألفت في مصر في زمن الفاطميين والأيوبيين ككتاب قوانين الدواوين لابن مماتي وغيره .

ومها يكن الأمر في الماضي فالعالم العربي في أيامنا هذه فريقان : فريق في جزيرة العرب والشام والعراق لا يعرف ولا يستعمل في التأريخ الميلادي إلا الشهور السامية الأصول ، وفريق في الأقطار العربية الإفريقية لا يستعمل إلا أسماء الشهور التي هي من أصل لاتيني . ومن أشق الأمور حمل أحد هذين الفريقين على إهمال ما ألف استعماله من الأسماء .

ولا أرى من الحكمة ، في الجمهورية العربية المتحدة على الأقل ، أن تجنح الحكومة في أعمالها الرسمية الى ترجيح أحد النوعين من الأسماء على النوع الآخر فتكتفي بواحد وتهمل الثاني . بل أرى أن فكرة توحيد الثقافة في الأقطار العربية كافةً تقتضينا استعمال النوعين من الأسماء المذكورة في المراسلات الرسمية والتدريس الرسمي والإذاعات والكتب والمجلات والجرائد التي للحكومة سلطة عليها . فاذا أرّخت إحدى الوزارات في سورية مثلاً رسالة في نيسان تضع الى جانبها كلمة (أبريل) بين حاصرتين . والعكس بالعكس عندما تصدر إحـدى الوزارات في مصر رسالة من رسائلها ، حتى لو كانت تلك الرسالة مختصة بالإقليم الجنوبي دون الشمالي .

وأرى أنه لا يجوز في القوانين خاصةً إلا ذكر الاسمين لكي لا يستغلق التأريخ على أحد من أبناء الإقليمين في الجمهورية . ولعله من المفيـد إحالة

الموضوع على المراجع العليا لكي تنظر في أمر إصدار قرار جمهوري يحتم على الوزارات والمؤسسات الحكومية استعمال اسم الشهر الشرقي واسم الشهر الغربي جميعاً في التأريخ الميلادي ، بحيث يذكر في الإقليم الشمالي الاسم الشرقي مضافاً اليه الاسم الغربي بين حاصرتين ، ويذكر في الإقليم الجنوبي الاسم الغربي مضافاً اليه الاسم الشرقي بين حاصرتين وهكذا .

وربما كان من الوسائل الناجعة إصدار تعليمات الى محطات الإذاعة في الجمهورية خاصةً بأن تستعمل التسميتين ، على غرار ما تفعل بعض المحطات الأجنبية للإذاعة . ومن المعلوم أن أسماء الشهور العربية في التأريخ الهجري هي مشتركة يعرفها ويستعملها أبناء جميع الأقطار العربية . وهي خارجة عن نطاق هذا البحث على ما مرّ ذكره .

مصطفى الشهابي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العلاقات الجوهرية (*)

بين اللغتين العربية والآرامية « السريانية »

في النواحي التاريخية والفنية واللغوية والأدبية

- ٢ -

وهنا يجدر بنا الإلماع الى اللهجتين الآراميتين الكبيرتين ، واللهجات المتفرعة عنها ، واليك ذلك :

١ — اللهجة الشرقية :

إن اللهجة الآرامية الشرقية هي اللهجة الفصحى النقية التي انتشرت يوماً ما في بلاد بابل ، وما جاورها من الأمصار ، وفيها نزل جانب من سفر النبي دانيال وغيره من أسفار العهد القديم [١] . وهي عينها التي تعلمها اليهود في السبي أيام نبوخذنصر ق ٠ م ٠ بضعة قرون ، واستعملوها كذلك بعد رجوعهم من الجلاء [٢] .

إلا أن هذه اللهجة عينها تفرعت الى لهجتين متباينتين : الأولى ، وهي الفصحى ، وكانت لغة الخاصة ، والثانية ، وهي لغة العامة ، وتمازجها ألفاظ واصطلاحات غريبة كثيرة [٣] .

ويسمي الكتاب المقدس هذه اللهجة عامة (آرامية) [٤] ٠ وسماها ربانيو اليهود (سريانية) [٥] ٠ ودعاها العهد الجديد (العبرانية) [٦] .

(*) انظر القسم الأول من هذا المقال في ص ص ٥٦٨ — ٥٨٧ من المجلد السابق (٣٣) من هذه المجلة .

(١) اللمعة الشهية ص ٥١ .

(٢) فيه أيضاً .

(٣) تاريخ شعوب الشرق القديم لمسبيرو ص ٧٧٥ .

(٤) سفر الملوك الثاني ١٨ ، ٢٦ وسفر أشعيا ٣٦ ، ١١ وسفر عزرا ٤ ، ٦ و ٧ ، وسفر دانيال ٢ ، ٤ .

(٥) اللمعة الشهية ص ٥١ .

(٦) اللمعة الشهية ص ٥١ .

وأم اللهجات المتفرعة عن اللهجة الشرقية في بلاد بابل هي اللهجة المانوية [١]، واللهجة المالدية وهي لهجة الصابئة في بلاد بابل . ومازالت موجودة الى الآن بتغيير ضئيل [٢]، ويلحق علماء الساميات بها اللهجة النبطية أيضاً [٣] .

ومن فروع اللهجة الشرقية أيضاً اللهجة اليهودية بقسميها، القسم اليهودي والقسم الجليلي، ثم اللهجة السامرية واختص بها سكان مدينة السامرة وما جاورها، وقد أشبعنا هذا الموضوع درساً في مقال (الثقافة السريانية) الذي نشرناه تباعاً في مجلتنا (المشرق) سنة ١٩٤٦ ص ٧٥٠ — ٧٥٦ .

٢ — اللهجة الغربية :

كانت هذه اللهجة منتشرة في سورية كلها اعتباراً من مدينة الرها الشهيرة، ومن نهر الفرات شرقاً الى البحر المتوسط غرباً، وتشمل ربوع لبنان كلها، وكانت لغة الآداب منذ أول عهد الأدب الآرامي، وفيها تركت المؤلفات النفيسة، وقد ظهرت آثار هذه اللهجة قبل العصر المسيحي بقرون عديدة، ونقلت عن الهياكل الوثنية والتماثيل والصخور والأسطوانات وغيرها، ولم نجد لها فروعاً هامة خلافاً للهجة الشرقية .

ويحدثنا العلامة ابن العبري عن تشعب اللغة الآرامية على أثر انتشار أبنائها في الأصقاع، واختلاطهم بالأمم المجاورة لهم، وابتعاد اللهجات الآرامية بعضها عن بعض ابتعاداً عظيماً، يقول : « يجب أن نعلم أن اللغة الآرامية انتشرت في بلاد قاصية أكثر من جميع اللغات، وهو الذي سبب تشعبها حتى إن الذين كانوا يتكلمونها كانوا لا يتفاهمون إلا بترجمان . وكأنهم يسمعون

(١) شابو ص ٣٢ .
(٢) المشرق السنة الأولى ص ٦٩٥ .
(٣) المشرق السنة الأولى ص ٦٩٧ — ٧٠٠ .

بعضهم من بعض لغة غريبة ، فان سكان سورية يتكلمون لهجة غريبة عن لهجة فلسطين ، وكذلك المشارقة الذين ابتعدوا كثيراً عن الأصل أكثر من هؤلاء واتبعوا اللهجة الكلدانية وانتسبوا اليها» (١) .

واذا اعتبرنا هذه الناحية حسبما يرويها هذا اللغوي الفيلسوف نجد الفروق التي نشأت بين اللهجات الآرامية أكثر تأثيراً من الفروق الناشئة بين اللهجات العربية ، ونقر أن هذه اللهجات ابتعدت بعضها عن بعض بعداً شديداً ، إلا أننا نعتقد أن الفروق نشأت بين اللهجات المحكية فقط دون لغة الكتابة والأدب ، لأن الآثار الآرامية المكتشفة تدل على ان تلك الفروق لم تكن فاصلة بين اللهجات الآرامية المختلفة بالشكل الذي شرحه الفيلسوف اللغوي . ومهما يكن فانا نجد أن جميع اللهجات تلاشت ولم يبق إلا اللهجتان المعروفتان ، وهاتان أيضاً لا تختلفان إلا باللفظ فقط ، وهما تتفقان في كل شيء سواه .

ومن مراكز الثقافة الآرامية التي أفاد منها أكثر ما يكون الفكر العربي مدينة حران الآرامية الوثنية التي ازدهرت في كثير من نواحي المعرفة الإنسانية من علم وأدب ودين ، واتصلت بالفلسفة اليونانية القديمة ، واستخدمها علماؤها في البلاط العباسي في نقل القسم الكبير من الفلسفة اليونانية ، من اللغتين اليونانية والآرامية (السريانية) الى العربية (٢) .

ونصيبنا من بحث اللهجات العربية والآرامية في موضوعنا هذا هو النظر الى التطورات المتماثلة التي طرأت على هاتين اللغتين الشقيقتين من جهة ، والتأثير الذي خلّفته إحداهما في الأخرى ، وعلى الأخص في القسم الشمالي من الجزيرة

(١) المدخل لابن العبري في الكلام عن اختلاف الحركات السريانية – الشرح –
(٢) أخبار العلماء وأخبار الحكماء لابن القفطي ص ٧٧ – ٨٠ و ص ١٣٠ – ١٣٣ ، والفهرست لابن النديم ص ٣٨٠ .

العربية ، وفي أنحاء فلسطين والشام وتدمر ، بتأثير مملكتي تدمر والبطراء ، وهو ما كان سبباً في حيازة اللغة العربية مفردات كثيرة ليس في الشمال فقط بل في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، على ما أنبأنا به علماء الساميات [١] .

ومما تجب الإشارة اليه أن اللغة العربية الشمالية ، القريبة من العمران والمدنية ، استطاعت ابتلاع بقية اللهجات المنتشرة في أواسط الجزيرة وفي جنوبيها ، وانفردت بالسيادة المطلقة آخذة مادتها الغزيرة من جميع اللهجات القديمة البائدة ، ومستفيدة من شقيقتيها القريبتين الآرامية والعبرية ، مما أغناها بالألفاظ الغزيرة ، وجمّلها بالمادة اللغوية التي لا تنضب ، إلا أن الآرامية وإن تلاشت لهجاتها الفرعية ، فان لهجتيها الأساسيتين الشرقية والغربية لم تزالا في قيد الحياة ، وفيهما مادة لغوية وأدبية صالحة ، وهما تسيران جنباً الى جنب منذ العصور الأولى للمسيحية ، لما أفادتاه من غذاء أمدهما به العلماء الكبار الذين نبغوا في شتى العصور .

والشيء المهم الذي نقرره ، بعد المرور على جميع اللهجات العربية والآرامية ، هو أن هاتين اللغتين خضعتا لظروف واحدة ، وسارتا تحت تأثيرات متشابهة ، وتعاونتا في جميع عصورهما ، على ما نراه في السطور التالية ، ولذلك لا يمكن دراسة نشوء كل منهما بمفردها ما لم يُبحث في نشوء الثانية منذ مطلع وجودها الى عصر النضج والازدهار والانتاج .

وما خلا امتزاج لهجات كل من اللغتين وتكوين لغة عربية موحدة ، ونشوء لغة آرامية واحدة أيضاً في المادة مختلفة في اللفظ ، نجد اللغتين الكبيرتين العربية والآرامية تتقاربان في فترات كثيرة من فترات تاريخهما ، وذلك بتأثير الاتصالات التجارية وغيرها ، فتؤثر إحداهما في الأخرى وتكوّن فيها مادة جديدة ، وقد تكوّن أيضاً أساليب جديدة في اللفظ والتعبير . ولولا انتشارهما

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٧٩ — ٨٩ .

الواسع وتزاورهما المستمر لما رأينا هذه الوحدة الى الآن بينهما ، ولحرمنا أموراً وفوائد جنيناها من ذلك التزاور وذياك التقارب ، ولا يخفى أن كثرة لهجات كل من اللغتين ، واستمدادها مواد جديدة بفعل الزمن كل ذلك أسعفها بالقوة والحياة ، ووسع نطاقها ، وسما بها الى مستوى أرقى اللغات في العالم القديم .

وبعد هذه النظرات العاجلة نتقدم الى تحري موضوعنا بأقسامه الكبرى ، واليك ذلك :

٤ ــ العلاقات التأريخية بين العربية والآرامية

علمنا سابقاً أن هاتين اللغتين أبصرتا الوجود كلتاهما في نحو مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، ولا يمكن تقديم احداهما على الأخرى تاريخياً ، وإن كانت الآرامية تركت آثاراً نفيسة سبقت فيها الآثار العربية بعهد طويل ، وذلك لأسباب اجتماعية تخص الأمتين الساميتين العربية والآرامية ، فان العربية بقيت وقتاً طويلاً منعزلة في فلواتها الواسعة بعيدة عن أعين التاريخ ، ويظهر أن العرب في تلك الأيام لم يميلوا الى تدوين أخبارهم لأسباب نجهلها ، وربما كان ذلك لعدم انتشار الكتابة عندهم الى حين ظهور مدنيات عربية في أعماق الجزيرة العربية ، حيث تركت لنا آثاراً وإن كانت قليلة إلا أنها تدل على مستوى هام في الحضارة والمدنية ، وأما اللغة الآرامية فقد تبعت أهلها الآراميين ، فاحتكت بالأمم المجاورة ، ونشأت فيها حضارات باذخة في وادي الرافدين وسهول سورية ، وأصبحت لغة دولية بالمعنى الصحيح منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وهذا هو السبب في ظهور آثارها سابقة للآثار العربية بزمن طويل .

لما كانت العربية والآرامية تنحدران من أصل سامي واحد كان لا بد لهما من التعاون التاريخي في مختلف عصورهما [1] . وفعلاً تمّ الاتصال بين القبائل

(١) محاضرة الأستاذ ديبون سومر في الجامعة السورية سنة ١٩٥١ .

العربية الشمالية وبين أمم سورية والعراق الناطقين بالآرامية منذ أقدم العصور التاريخية ، لأسباب كثيرة قد تكون حربية أو تجارية أو اجتماعية ، وبهذه الواسطة تبادلت اللغتان القوة والحيوية من الوجهتين العلمية والأدبية ، وتوثقت بينها العلاقات اللغوية ، وهو ما أكسب اللغة العربية على الأخص مادة غزيرة لا نستطيع حصرها الآن لتقادم العهد عليها [(١)] .

ونجد ، عدا ذلك ، قبائل جمة آرامية تتوغل في الجزيرة العربية ، وتمتزج بالعرب أنفسهم حاملةً معها لغتها وحضارتها وساكبة إياها في جدول اللغة العربية ، وقد وجد علماء الساميات في اللهجات العربية المنتشرة عصرئذ مادة لغوية غزيرة جزموا أنها ليست عربية لأنها تدل على معان دينية وعلمية وعمرانية لم تكن مألوفة عند العرب ، بل هي خاصة بالأقوام العبرية والآرامية ، وقد أفادت العربية من ذلك قوة جديدة [(٢)] .

على أن أقدم ذكر لبدء العلاقات بين القبائل العربية القديمة وسكان سورية الآراميين والعبريين ، ورد في النصوص الآشورية ، وتسميهم هذه النصوص باسم « قدري » كما يسميهم العهد القديم باسم قيدر او بني قيدار ، وهم من ذرية اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، وكانوا رعاة يربون قطعان الضأن والإبل ويبيعونها لأهل صور خصوصاً ، ويسكنون الخيام السود المؤلفة من الشقق ، وذكر أشعيا النبي بعض مساكنهم (أش ٤٢ ، ١) وذكر أرميا النبي العبراني قبائل أخرى من بني قيدار فسماها (حاصور) مستمدة من الكلمة العبرية (حصير — الحضائر) وهم سكان حضائر حجرية مغطاة بالعوسج والشوك لحماية السكان والقطعان من الوحوش واللصوص .

(١) اسرائيل ولفنسون ص ١٦٢ .

(٢) Die aramäirchen Fremdwörter in Altarabischen : S. Fraenkal

وتذكر النصوص الآشورية قبائل أخرى وتسميهم (بني قدم) ومعنى ذلك بالعبرية القديمة (بني المشرق) . ويطلق هذا الاسم على البدو الضاربين عصرئذ في الصحراء السورية العراقية . وأطلق عليهم فيما بعد اسم (Sarakimai) وهي مشتقة من كلمة (الشرقيين) العربية ، ومثلها كلمة ܣܪܩܝܐ الآرامية ، وقد رافقوا النبطيين دهراً طويلاً . ويذكر بنو قيدار أيضاً في الرقم الآشورية في أخبار حروب أسرحدون (٦٨١ — ٦٦٩ ق . م) ، وفي أخبار ابنه وخلفه اشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق . م) ويتتابع ذكر القبائل العربية في الرقم الآشورية ، وكثيراً ما سموا بالعرب (أريبي Aribi) . ويتوارد ذكرهم في العصور التالية [1] .

ومن هذه اللمحة الوجيزة نستنتج حصول علاقات متواصلة بين القبائل العربية ، والأمم الآرامية التي كانت منتشرة في تلك العصور على ضفاف دجلة والفرات وفي سهول سورية وما جاورها من المناطق [2] ، وهو ما أوجد علاقات متواصلة بين اللغتين العربية والآرامية منذ أقدم عصورهما .

هذا ما رأيناه في شمالي الجزيرة العربية ، أما في الجنوب فمن الراهن ازدهار أربع ممالك منحصرة فيه أقدمها معين ، ثم سبأ وحضرموت ، ثم قتبان . وأقدم اتصال يذكره لهم المؤرخون بسكان وادي الرافدين ـ ومنهم الآراميون ـ كان في الألف الثاني ق . م ، وقد اتصلت لغتهم بلغة أولئك الأقوام وروحيتهم بروحيتهم ، فقد رأيناهم يعبدون آلهة عبدها الآراميون وغيرهم قبلهم ، وأكبرها الإله (سين) أي القمر ، ولا نذكر أن اللغة العربية عرفت (القمر) باسم (سين) ، والمعلوم أن هذه التسمية للقمر قديمة جداً وما زالت موجودة في

(١) مقال الأستاذ M. Rodenson ، الكتابات الصفوية ، سومر المجلد الثاني سنة ١٩٤٦ ص ١٣٧ — ١٤٢ .

(٢) Barton, op. cit, P. 204.

اللغة الآرامية الحاضرة . وقد سموه أيضاً (سهر) والمعلوم أن القمر بالآرامية الحاضرة يسمى (سهرو أو سهرا) . وما عدا ذلك فقد وجد المنقبون معبداً للإله (سين) في موضع من حضرموت يدعى (حريضة) ، ووجدوا بعض النقوش الحضرموتية تشير الى أنه معبد الإله (سين) [1] ، وكذلك عبد القتبانيون الإله (عم حمّ) ومعناه شعب وقوم في الآرامية ، وهو أيضاً من آلهتهم .

ومما يؤيد علاقة العرب بالآراميين أكثر من هذا محالفة الأمير العربي (جندب Gindibu) لمدد عزيز ملك دمشق الآرامي على الملك الآشوري شلمناصر الثالث الذي حاربهم سنة ٨٥١ ق . م في موقعة (القرقار) شمالي حماة [2] . ومما لا شك فيه أن محالفة مثل هذه تخلق وحدة والفة بين المتحالفين سواء من الوجهة الحربية أو الاجتماعية أو المعنوية الأمر الذي يؤيد اتصال العربية بأختها الآرامية اتصالاً متواصلاً .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

واذا وجهنا أنظارنا الى الرقم التأريخية التي ظهرت نتيجة تنقيبات العلماء في خرائب المدن العربية المندرسة وغيرها ، نجد ما يدهشنا من العلاقات الوثقى بين العربية والآرامية ، وهو ما يؤيد تعاون هاتين اللغتين الشقيقتين في جميع عصورهما ، ويبرهن على استمرار الاتصال اللغوي والديني والاجتماعي بين ذينك الشعبين العظيمين .

هذه قبائل ثمود وداراتها في شمال الحجاز ، فهي قد تركت لنا كتابات هامة تفيدنا في بحثنا هذا ، وقد تركتها إما في مواطنها هذه أو في غيرها ، ولوحظ أن خطوطها وتعابيرها كانت مستعملة عند قبائل عربية أخرى ، كبلاد نجد وهضاب طور سيناء ، ولا يعلم هل انتقل هذا الخط من الثموديين

(١) G. Gaton Thompson : The Tompes and Temble of Horeidha « Hadramaut » 1944

(٢) Luckenbill. op. cit. 1. sec 611.

الى تلك المناطق أو القبائل ، أو أن الثموديين أخذوه منهم . ومهما يكن الأمر فالمهم في موضوعنا وجودها لا أماكنه .

وأم رقيم من الرقم الثمودية ، وتأريخه سنة ١٥٦ م [١] ، نراه مزيجاً من الكلمات العربية والآرامية . واليك ذلك حسبما حله العالم لتان وتثبته بالحروف العربية : « دنه قبور صنعه كعبو بر حرتب للقص برث عبد منوتي أمه دو هلكت في الحجر شنة ماه وشتين وترين بيرح تموز ، ولعن مرى علما من يشنا القبور دا ، ومن يفتحه حشى بلده ، ولعن من يغير دا على منه » .

وترجمته في العربية : « هذا القبر صنعه كعب بن حارثة للقيظ بنت عبد مناة أمه التي هلكت في الحجر سنة مئة واثنين وستين من شهر تموز ، ولعن رب العالمين من غيّر هذا القبر ، ومن فتحه يمس بأولاده (يحس) ولعن من غير الذي كتب أعلاه .... » .

في هذا الرقيم ثمان وثلاثون كلمة ، عشر كلمات منها آرامية صرفة ، والبقية عربية وثمودية ، وذلك يؤيد ما نحن بصدده ، فكلمات « بر وبرث وشنة وشتين وترين وبيرح وشنا وحشى » كلها آرامية ، وما عدا ذلك ففي هذا النص ورد عدد السنين بالأسلوب الآرامي وهو تقديم العدد الكبير على الصغير كقوله « شتين وترين » ، وعن الآرامية أخذت العربية هـذا الأسلوب في العدد واستعمله العرب القدماء كثيراً .

ولدى تأمل بسيط في هذا الرقيم نجد العربية والآرامية متحدتين فيه كأنهما لغة واحدة . وقد نجد رقماً أخرى غيره جرت هذا المجرى ، وربما جـرى غيرها مجرى اللغة العبرية ، فزج بين اللغات الثلاث العربية والآرامية والعبرية [٢] .

---

(١) أي سنة ٢٦٢ وفقاً لتاريخ بصرى ، وكانت بصرى تؤرخ حوادثها من تاريخ انقراض مملكة النبط سنة ١٠٦ م .

(٢) ١١٥-١١٩ Semitic Inscriptions وفي كتابه ص٢٨ Thamudenische Inschrifton

ولكن مما لا شك فيه أنه في القرن الرابع الميلادي كانت اللغة الأدبية لم تزل اللغة الآرامية (١) .

هذا ما يلزمنا قوله في صدد الرقم الثمودية . وهو كاف ليدلنا على التلاقي الممكن بين اللغتين العربية والآرامية ، ويفسر لنا تأثر العربية بأختها الآرامية .

وهنالك في منطقة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا (تسمى الحرة) وُجدت كتابات عربية كثيرة اتفق علماء الساميات على أن يسموها (الكتابات الصفوية) نسبةً الى الصفا حيث ساح كثيرون من المستشرقين فجمعوا قسماً عظيماً من هذه الكتابات وحلوا أبجديتها ، ولكنها بقيت غامضة الى أن زارها العالم (ليتمان) وجمع منها أكثر من ألف وأربعمائة كتابة ، وعاد الى بلاده ودرسها ، فتوصل الى نتائج هامة عجز عنها غيره ، فحل جميع رموزها وفك معميات أبجديتها التي تتألف من ثمانية وعشرين حرفاً ، كما هي في العربية . ويعتقد الأستاذ ليتمان أن هذه الكتابات ترجع الى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، وعرف أن أصحابها كان لهم اتصال بالمدنيات المعاصرة لأنهم يؤرخون بحوادث مشهورة كحروب النبط ، أو حرب الفرس مع الروم ، أو تاريخ بصرى (٢) .

ان الكتابات الصفوية هذه هي بلا شك كتابات عربية إلا أنها تحوي كلمات آرامية كثيرة ، وتذكر آلهة آرامية واصطلاحات آرامية لا عهد للعربية بها .

ففي أحد النقوش الصفوية مثلاً كلمة (داد) معناها (عم) (٣) وهذه مادة آرامية قديمة وإن كان لها نفس المعنى بالعربية .

(١) اللغات السامية ص ١٧٨ .

(٢) Littman (1) Zur Enturiferung der Safa Inschriften
(2) Semitic inscriptions.

(٣) ص ١٣٨ Dussaud : Les Arabes en Syrie avant l'Islam

وكذلك نجد في نقش آخر أسماء آلهة آرامية مثل (بعل شمين ، ودشر ، وشيع القوم) . ومعنى (بعل شمين : الهة السموات) و (أوشر دمر : حارس النبات) ، و (شيع القوم) من آلهة الأنباط وهو لايشرب الخمر (دي لاشتا حمر) ، وقد اختلف المستشرقون في معنى هاتين الكلمتين ، فذهب (ليتمان) الى أن الأولى (آرامية) والثانية (عربية) . وقال غيره إنهما عربيتان ، أما نحن فنقول إنهما كلمتان آراميتان ، الأولى مستمدة من فعل (ܣܝܥ سيع) ومعناها عضد كـ (أيد ، نصر) لتساوي السين والشين في الأبجديات الصفوية . والثانية (قوم) هي آرامية أيضاً وبالمعنى العربي المعروف (قوم ، شعب ، جماعة) [١] ومعنى الجملة المركبة (نصير القوم) .

وأنت ترى في هذه النقوش مادة آرامية لا تمت الى العربية بصلة ، وهذا ما يؤيد تلاقي اللغتين الشقيقتين في هذه المنطقة أيضاً شأنها في غيرها . ومصداقاً لما ذهبنا اليه ان الأستاذ ليتمان وجد في تحرياته الكثيرة للهجة الصفوية هذه مادة غزيرة غير مألوفة في العربية ، أخذت من الآرامية والعبرية ، ولاحظ أسماء أعلام كثيرة غير معروفة في العربية ، كما وجد أفعالاً غريبة عن العربية ، وأساليب أعجمية كلها استمدت من الآرامية أو العبرية أحياناً [٢] .

واكتشف الأثريان الفرنسيان فردريك ماكلير Frederic Macler ورينه دوسو René Dussaud نقشاً مهماً آخر في منطقة الحرة نفسها ، في وادي السوط الذي يصب في وادي الشام بالنمارة وذلك في الرابع من نيسان سنة ١٩٠١ ، وهذا النقش بالأبجدية النبطية وباللغة العربية تتخلله بعض كلمات آرامية واليك كلماته بنفسها ومقاطعها :

(١) قاموس منا السرياني العربي ص ٦٦٤ .
(٢) لتمان Semitic Inscriptions

(١) تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج •

(٢) وملك الاسدين ونزارو وملوكهم وهرب مذ حجو عكدي وجاء •

(٣) بزجاي في حبج نجران مدينت شمر وملك معدو وبن بنيه •

(٤) الشعوب وكلهن فارسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغــه •

(٥) عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده •

وهذه ترجمتها العربية كما قرأناها نحن بعد تجريات ومقابلات كثيرة باللغة السريانية الحاضرة وهي ولا شك الآرامية بثوبها الجديد :

(١) هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد له التاج •

(٢) وأخضع الأسدين ونزاراً وملوكهم وهزم مذحج و (منعه أو عطله أو صده) وجاء •

(٣) شنت (بزج) وأسقط نجران مدينة شمر وأخضع معداً وسلط بنيــه •

(٤) (على) الشعوب فسموا الى العلى فلم يبلغ ملك مبلغه •

(٥) وذريته وهلك سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من شهر كسلول (كانون الأول) • فليسعد الذين خلفهم (فليسعد ولده) •

واليك شرح ذلك وتعليل مخالفتنا في قراءة هذا النص لجميع علماء الساميات الذين استعرضوه وترجموه حسبما تراءى لهم :

ان كلمة (تي) من استعمال قبيلة طيء وهي ضمير الإشارة القريب للمؤنث ، و (نفس) بمعنى (قبر) في اللغة النبطية ، (وامرؤ القيس لا حاجة لنا ببحث من هو لأنه خارج عن نطاق موضوعنا) ، و (بر) كلمة آرامية بمعنى (ابن) و (ذو) بمعنى (الذي) في لهجة طيء ، و (اسر تاج) هي المعنى الدقيق للعبارة الآرامية احتقنا أي ربط التاج أو عقد له التاج •

وقد خالفنا العلماء بخمس نقاط من هذه القراءة ، واليك تعليل ذلك نقطة فنقطة :

(١) ان الكلمة التي قبل الأخيرة من السطر الثاني في النقش (عكدى) أثبتها الدكتور ولفنسون[١] كما يلي :

« وهزم مذحج بقوته » ، تبعاً لما قرأها الأستاذ ليدزبارسكي[٢] ، وأثبتها الأستاذ م · رودنسون « تماماً » ، وقد أورد الأستاذ المشار إليه رأي جوزيف هالفي بأن لا تقرأ (عكدى) بل (كعدى) مقابلةً لكلمة الترجوم العبراني التي معناها حتى الآن (عد كدون) · إلا أنه نبذ هذا الرأي وقرأها تبعاً للأستاذ ليدز بارسكي (عكرى) ، وذهب الى أن (عكرى) في النص في محل (عكارى) وهي - عنده - كلمة على وزن (فعال) من الأسماء المستعملة في معنى « الحال » · وهكذا تكون - بحسب رأيه الأخير - « عكار » تعادل « عكرا » أي أصلاً[٣] ·

أما نحن فنخالف الأستاذين ليدزبارسكي وولفنسون بكونها بمعنى « القوة » · وكذلك نخالف « هالفي » بكونها مستمدة من الكلمة الترجومية « كعدى » (حتى الآن) ونوافق الأستاذ رودنسون بقراءتها « عكرى » · ولكننا نخالفه بكون معناها (أصلاً أو تماماً) ، ولدينا كلمة سريانية هي (ܥܟܪ) بمعنى حجز ، منع ، عطل ، صد ، عاق[٤] الخ · وما عدا ذلك نجد تقارباً شديداً بين (الراء والدال) في النبطية ، فيمكن أن تقرأ هذه الكلمة (عكدى أو عكرى) وهو الأصح ·

٢ - هناك كلمة (يزجي أو يزجاي) ، لقد ألحق بها الأستاذ ولفنسون الكلمة الأخيرة من السطر الثاني وأثبتها هكذا : (وجاء الى يزجي أو نوجي)[٥] ،

---

(١) اللغات السامية ص ١٩٠

(٢) ج ٢ ص ٣٥ Lidzbarski : Ephemeris

(٣) مقالة في سومر ، الكتابات الصفوية ص ١٤٧ العدد الثاني لسنة ١٩٤٦ .

(٤) قاموس منا السرياني العربي ص ٥٤١ .

(٥) اللغات السامية ص ١٩٠ .

بينما قال الأستاذ م . رودنسون إن كلمة (يزجي) ليست قراءتها مؤكدة ، إلا أنه يأخذ برأي دوسو الذي يقرأها (يزجاي) أي (بتوفيق) ، إلا أننا لم نرتح لما أورداه ، ولدينا كلمة سريانية هي (ܫܢܬܐ) ومعناها (فرد . فرق . شتت) [١] فاذا جعلنا مطلع هذا السطر على النحو الذي أثبتناه أي (شنت) ، (نجران الخ) يستقيم المعنى ، أو اذا أردنا أن نقول غير ذلك لدينا كلمتان سريانيتان يمكن تركيب كلمة منها ويستقيم المعنى أيضاً وهما كلمة (ܚܪ) بمعنى نهب ، سلب (ذل) ، وكلمة (ܚܓܐ) بمعنى (تعجرف ، تكبر) ، فنستطيع أن نقول أيضاً (أذل عجرفة نجران الخ) .

ونصر على رأينا بقراءتها (شنت) لأن الكلمة السريانية مطابقة للمعنى ، ولأن الأستاذ رودنسون يؤكد أن قراءتها السابقة ليست مؤكدة بعد .

ARCHIVE

٣ — في السطر الثالث نفسه نجد كلمة (حبج) ، وقد أثبتها الأستاذ ولفنسون (في حبج نجران) ، بينما قرأها الأستاذ رودنسون (حبج) بمعنى (حاصر) استناداً على ما ورد في شرح المحيط الذي يفسرها (دنا . اكتنف سار شديداً . حبق) (في محاصرة نجران) . أما نحن فنخالف الدكتور ولفنسون ونوافق الأستاذ رودنسون على كونها (حاصر) ، ونزيد على ذلك كلمة سريانية بمعناها ، وهي (ܣܚܦ) أي (صرع . أسقط . جندل) ، إذ يمكن أن تقرأ هكذا أيضاً لتقارب صورتي (الجيم) و (الطاء) في الأبجدية النبطية .

٤ — في السطر الرابع نجد جملة هي (وكلهي فرسو لروم) أثبتها الأستاذ ولفنسون بقوله : (ووكله الفرس والروم) ، بينما قرأها الأستاذ رودنسون (ونظمهم فوارس للروم) . ونجد اختلافاً بين القراءتين ، فالأولى تحتمل (امرأ القيس) (وكله الفرس والروم) فعلى ماذا وكله ؟ لا ندري . وسيف

(١) منا ص ٥٩ .

الثانية نجد (امرأ القيس) ينظم بنيه (فوارس للروم) . ولا يستبعد أن تكون علاقة لهذه القبائل العربية بالفرس أو الروم ، أو أن يجعلها أحد الجانبين حليفة له ضد الجانب الثاني ، إلا أن ما قيل عنه في الجملة التالية (فلم يبلغ ملك مبلغه) لا يظنه يجعل بنيه (فوارس) للروم أو لغيرهم ، وقد تخبط علماء الساميات في قراءة هذه الجملة ، وأورد الأستاذ رودنسون آراءهم فقال : إن بيدو ومارتين وهارتيان وكليرمون غانو ، وتبعهم دوسو أحياناً ، ذهبوا الى أن (فرسو) تعني الفرس ، وعلل بيزر ذلك بقوله « لأن الفرس كانوا قد خذلوا القبائل العربية أمام الرومان » ، وترجم كليرمون غانو ذلك بقوله : « وانتدبهم لدى الفرس والرومانيين » ، والرأي الأول يفترض أن امرأ القيس كان تابعاً للرومانيين ، ويفترض الرأي الثاني أن هذا الأمير العربي كان يمثل دوراً مستقلاً على وجه المعادلة بين الفرس والروم ، ولكن « ليدز بارسكي » رفض الرأي القائل بأن (فرسو) تعني الفرس ، بل رأى أن كلمة (فرسو) تعني (الفوارس) جمع فارس ، واعتنق دوسو هذا الرأي أولاً ، وترجم الاثنان هذه الجملة بما ترجمها الأستاذ روندسون .

(يتبع) (الموصل) غريغوريوس بولس بهنام

مهرجان أحمد شوقي

درج مجمعنا العلمي العربي بدمشق على سنة حميدة في الاحتفاء بعلماء العربية وأدبائها ، وتكريمهم وتأبينهم ، من قدماء ومحدثين ، فأحيا لهم حفلات عدّد فيها محاسنهم وخدماتهم للغة العربية وآدابها ، وذكر أياديهم على الثقافة ، ووفاهم حقهم في التعريف والتكريم والنقد . وقد قام بتأبين الأساتذة الشيخ طاهر الجزائري ، وأحمد كمال المصري ، ومحمود شكري الآلوسي ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ومحمد حافظ ابرهيم ، وأحمد شوقي ، ومحمد رشيد رضا[1] .

وخصّ من القدماء المتنبي والمعري بحفلات ألفية ، كانت مهرجاناً للشعر والأدب ، تكلم فيها المستشرقون والعرب في فضل الرجلين خلال أسبوع لكل منهما ، فكان الأسبوعان عكاظ الشعر والخطابة . وقد طبع المجمع مهرجان المعري في كتاب جمع فيه ما قيل عن فيلسوف المعرة وشاعر العرب سنة ١٩٤٥ ، يعدّه النقاد مرجعاً نافعاً في هذا الباب ، ويذكره القراء للمجمع بالحمد والثناء ، ويرجون أن يعمد إلى طبع ما قيل في المتنبي لمهرجانه ، في كتاب مستقل خدمة للأدب وتخليداً للشاعر الفحل الذي ينطق شعره بكل جنان ، ويتحدث بكل لسان ، ويرفع للشعر العربي مناراً بين الأمم على الأزمان والأوطان .

ودرج المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ، على خطة حميدة كذلك ، فعمل على تكريم الشعراء والأدباء والفنانين الذين

---

(١) راجع « تاريخ المجمع العلمي العربي » تأليف الأستاذ أحمد الفتيح ، دمشق ١٩٥٦ ، بالصفحات ٨٢ – ٨ – ١٠ .

رفعوا لغتنا وآدابنا وفنوننا علماً بين أعلام العالم . فقام باحياء ذكرى الشاعر محمود سامي البارودي ، ثم باحياء ذكرى محمد حافظ ابرهيم [١] ، ونشر ما كان في المهرجانين من كلمات ودراسات وقصائد في كتابين اثنين .

وقام المجلس هذا العام باحياء ذكرى الشاعر الخالد أحمد شوقي في مهرجان حافل ، لمرور خمس وعشرين سنة على سكوت هذا البلبل الذي غردت قوافيه بفضل العرب والإسلام ، وجلجلت قصائده في ذكرى مصائبهم وأفراحهم ، فكأن ديوان العرب في كل قطر . ودعا المجلس إلى إقامة هذا المهرجان في القاهرة من ١٥ — ٢٢ تشرين الأول ١٩٥٨ (اكتوبر) ، وندب له من الأقطار العربية خطباء يتكلمون في عميد الشعر العربي للقرن العشرين [٢] .

وكانت القاهرة خلال هذا الأسبوع موضعاً لتلاقي رجالات الأدب من العراق ولبنان واليمن والجزائر والمغرب والسعودية والسودان والجمهورية العربية المتحدة باقليميها السوري والمصري .

وكان موضع المهرجان القاعة الذهبية بقصر محمد علي السابق (في المنيل) ، وهي قاعة جميلة موفقة ، تزينت جدرانها بالذهب ، وطليت أعمدتها بأجمل النقوش الفنية والمصابيح الزاهية ، وكتبت على جدرانها أبيات البوصيري في مدح النبي الأعظم ، وزها سقفها برائع الوشي والحلي ، فكأن شوقي يعيش بروحه من جديد في قصور الملوك من أبناء اسماعيل ، يشهد تكريم الأدباء لنبوغه واحتفاءهم بذكراه .

وكانت ساعات الاحتفال من السادسة مساء حتى الثامنة أو التاسعة ،

---

(١) طبع ذكرى حافظ ابرهيم ، سنة ١٩٥٧ بالقاهرة ، في ٢٥٤ صفحة متوسطة .
(٢) اعتذر عن المشاركة في هذا المهرجان الدكتور جميل صليبا بسبب اشتغاله في رئاسة الجامعة بدمشق آنذاك ، احرم المستمعين من كلمة رصينة في هذا الباب .

http://Archivebeta.Sakhrit.com ARCHIVE

خلال أربعة أيام ، تكلم فيها الأدباء في موضوعات معينة من جوانب الشاعر ، كلٌّ فيما خصَّ به ، من غير أن يكون ترديد أو إعادة على قدر ما يستطيع المتحدث في شوقي التزام جانب دون العدوان على جانب آخر .

وكانت حفلة الافتتاح برعاية الوزير المركزي للتربية والتعليم ورئيس المجلس الأعلى سيادة كمال الدين حسين ، فافتتح المهرجان بكلمة قوية ، تحدث فيها عن أثر شوقي في العرب والعروبة ، ورأى في ديوان الشاعر برهاناً من براهين قوميتنا ، ودليلاً لأمانينا ، ورائداً لكثير من المكافحين في أقطارنا فقد كان نداء الثورة الصحيحة ، وكان على قربه من الحكم ينتهز كل فرصة خيِّرة في خدمة أمته ، يعبر عن أمانيها وإحساسها فيرسم الصورة التي ينبغي أن تكون للمثل الأعلى العربي ، ولم يكن في العربية منذ عهد المتنبي والمعري شاعر مثل شوقي يتغنى بشعره كل عربي ، لأنه كان شاعر العرب في كل قطر من أقطار هذا الوطن .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتكلم بعده الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ، عضو مجمعنا العلمي ومقرر الشعر في المجلس الأعلى ، فالتفت إلى شوقي ليقول فيه : « كان علماً للمدرسة التي انتقلت بالشعر من دور الجمود والمحاكاة الآلية إلى دور التصرف والابتكار ، فاجتمعت له جملة المزايا والخصائص التي تفرقت في شعراء عصره » وبذلك فضله على شعراء زمانه بعد أن ذكر مزاياهم جميعاً . وتحدث الناقد الشاعر عن فضل شوقي في التاريخ والمسرحية والمواعظ والأمثال ، وشهد بأنه « كان علماً لمدرسة الشعر في مطلع النهضة الأدبية » . ولكنه رأى أن شوقي كان رسول « شعر النماذج » ، ورأيته « تلك القدرة البارعة في تجويد الصناعة التي لا تفوقها قدرة في عصره ، ونكاد نقول في عصور الأقدمين والمحدثين » .

وانبرى مندوبو الدول العربية ، يفتتحون باسم أقطارهم هذا المهرجان

فيذكرون فضل شوقي وأياديه على أهليهم وربوعهم ، فكانت كلمة لمندوب الجزائر الشيخ محمد بشير الإبراهيمي ، عضو مجمعنا ، الذي أثنى على فضل شوقي وعتب عليه « مدحه لفرنسا وافتتانه بحضارتها المزيفة » . ثم تعاقبت كلمات لبنان واليمن والجامعة العربية ، والعراق والسودان والمغرب والسعودية ، فقصيدة للشاعر محمود عماد ، ثم دراسة للأستاذ أحمد التاجي مندوب الجامعة العربية في « شوقي والعروبة » تحدث فيها عن فترات النضال وموقف شوقي من الاستعمار ومن كفاح العرب في الوطن والمنفى ، وأياديه على الأبطال المكافحين من العرب ، وخدمته للقومية العربية وتحمسه بجراح أمته في نوائبها . ثم جاءت قصيدة شاعر الشام الأستاذ شفيق جبري ، عضو مجمعنا العلمي ، وعنوانها « شاعر العرب » فهزت القلوب وأثارت الإعجاب ، فقد كرمت شوقي وأشارت إلى عبقريته في ديوانه وصنيعه للعرب وموضعه من الشعر العربي (وهي منشورة في هذا العدد) .

وفي اليوم الثاني ، تكلم الأستاذ جمال الآلوسي مندوب العراق ، عن « شوقي في الشعر العراقي » فذكر ما وقع من تكريم وقول وحفاوة بشعر شوقي وأدبه على ألسنة الأدباء والشعراء في العراق ، وما تحدثت عنه الصحف خلال الأحداث التي مرت بشوقي بعد وفاته ، فنقل في أمانة ودقة وجميل سعي صدى الشاعر في الرافدين وأثره في أدب العرب بهذه الجمهورية الفتية . وتحدث الأستاذ عادل الغضبان عن « نشأة شوقي وأطوار حياته » فرسم شريطاً حياً في ألوان زاهية من الأدب ، مراحل الشاعر منذ الفجر ومطلع الشباب ، فالجهاد في سبيل الوطن ، فعودة البلبل إلى مغناه ، فرحلة الأصيل حيث غاب سيف هوة العدم . وأنشد خلال هذه المراحل شعر الشاعر في حنان وموسيقا وبراعة كما ينشد الشاعر قصائد أبيه الشاعر ، ويفتقد مكانه من سدة الشعر . ودرس الدكتور محمد مندور « مسرحيات شوقي » وعرض للتاريخ والمراجع والمزايا ، وأثار رأي الغرب في المسرحية وموقع شوقي من الفن الدرامي ، وكان في ذلك

مثال الأستاذ الماهر والدارس المتمكن والناقد الفني . وعرض الأستاذ عبد الرحمن صدقي « حياة الشاعر من شعره » منذ ولادته حتى الوفاة ، فاستخلص ما كان للرجل من قوة وتجديد في أبواب الشعر والمسرحية ، وما كان من أثر الغرب في قصائده وآثاره في تفصيل طويل وشواهد شعرية كثيرة أنشدها عنه الأستاذ عادل الغضبان . وتكلم بعده الدكتور علي جواد الطاهر مندوب العراق عن « اللوحة في الشوقيات » فقال ان شوقي كان يستعين بالمبالغة ، وان وصف الطبيعة عنده ليس على درجة عالية « وان كثيراً من لوحاته التي حاول أن يجمع على سطحها أكثر من منظر واحد أقرب إلى الكليشة والفوتوغراف منها باللوحة » . ورجع إلى النقاد القدامى فرأى أن همهم كان ينحصر في الجزء الصغير من الصورة مما ينطوي عليه البيت الواحد ، وأن هذا ظل قائماً في دراساتنا الحديثة . وشوقي « لا يبدو أنه تأثر بالشعر الغربي وبالرسم الغربي » « وانما هي مبالغات تكاد تكون تعليمية ، يتولاها التلميذ في وصف أيّ واد بل أيّ منظر من الطبيعة يطلبه المعلم في درس الإنشاء » .

وفي اليوم الثالث ، تكلم الأستاذ علي الجندي عن « الفنون البلاغية في شعر شوقي » فعدّد الألفاظ والمفردات والصور التي تدل على هذه الفنون ، وعدّد الحلى البديعية ، وأخذ على شوقي بعض أخطائه في هذا الباب . ثم كانت كلمة الأستاذ طاهر الطناحي « ذكريات عن شوقي » روى فيها أخباراً أدبية جمعها عن شوقي ، فقد عرفه منذ ثلاثين عاماً ، وفي هذه الأخبار أحاديث طريفة وآراء جديرة بالذكر والتنويه والجمع ، وخاصة فيما كان بين شوقي ومصطفى كامل . وفي كلمة الدكتور محمد صبري عن « التاريخيات والوطنيات في شعر شوقي » تطرق الباحث إلى دراسة الديوان من ناحية التاريخ والآثار المصرية ، ووازن بين الشعر والعلم ، وعرض للأحداث التاريخية ونظر إلى ما يطابقها في الديوان . وجمع ما قال الغربيون وما وصفوا من هذه الآثار ، ثم رسم ما كان في المسرحية ،

فاستوفى دراسته وأطال البحث في تتبعه ، فجمع بيان الأديب إلى دقة المؤرخ في موضوع ليس باليسير ولا بالهين .

وفي اليوم الرابع ، تكلمتُ عن « الوصف والغزل في شعر شوقي » فعرضتُ لألواح الوصف عنده من أحجار وأنهار وآلات ، وبسطت الغزل على ألوانه في الديوان والمسرحيات (وهي منشورة في غير هذا المكان) . وأنشد الشاعر ابراهيم الوائلي مندوب العراق قصيدة في الوفاء لمصر والربوع التي عاش فيها ودرس في جنباتها وتغنى بالثورة في العراق ومصر ، وأثنى على يد شوقي في خدمة العرب والرافدين . وكانت كلمة الأستاذ كامل الشناوي « ذكريات عن شوقي » صفحات طيبة اقتطفها من فصول الحياة لا ترويها صحيفة ولا يوردها كتاب ولا يحويها إلا صدر هذا الأديب ، وهي تنير السبيل إلى كثير من دقائق عيشه وظروف نظمه ، وصلات شوقي بمجتمعه ، فهي جديرة بالجمع والحفظ . وتكلم الدكتور شكري فيصل عن « نثر شوقي » فتحدث عن النثر المطلق ، وأبرز صفات السجع وألوانه ، وما يثير في نفسه من نفرة ، ورأى « أن شوقي الشاعر غطى على شوقي الناثر ، كما كسف عصر شوقي المطلق المرسل شمس السجع التي كانت متوهجة » ؛ وعلى هدي هذا راح يتحدث عن مسالك النثر عند شوقي في آثاره ، وعرض لأسواق الذهب ووازن بينها وبين مقامات الزمخشري ، ثم مال إلى بواعث السجع وموضوعاته وعناصره ، فقسم العناصر ووصفها ، ورسم الأسلوب في الآثار الفنية ، فانتهى إلى « أن شوقي أراد من السجع كما قال حلاوة الفواصل وهديل الحمام بأكثر مما أراد إلى القيد والتكلف والالتزام » (مما تجده في غير هذا المكان) .

وختم المهرجان بزيارة بيت شوقي « كرمة ابن هانىء » والحج إلى قبره بالقرافة قرب المقطم ، وانتهى بحفلة شاي خطب فيها سيادة يوسف السباعي سكرتير

المجلس الأعلى فاقترح بأن يكرم الأحياء كالعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وأم كلثوم ليروا بأنفسهم وفاء الأمة لصنيعهم وأقلامهم ، وانفضت الوفود على اقتراحات مكتوبة في العمل للديوان وصاحبه وفاء لأياديه وإكباراً لشاعريته .

وهكذا ، كان الحديث في شوقي منشعباً يمثل أدب القائلين وآراءهم ومذاهبهم ، ونظراتهم إلى الشعر والنقد والدراسة والخطبة ، بحيث تصلح أقوالهم أنفسها موضوعاً لتعليق أو بحث لسنا في صدده الآن ؛ وإنما همنا أن نصور المهرجان كما كان ، وأن نرجو للعربية شاعراً يسد المكان ، ويقوم في غمرة الأحداث التي يمر بها العرب من ثورة وانتفاضة ونهضة بما قام به شوقي في ظل الأسوار والأغلال والكبت والجور ، فيعيد على مسامعنا شعراً كشعره خالداً على الزمان .

الدكتور سامي الدهان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاعر العرب[1]

ما الذي هيّج الحمى والعربا ... أنسيم من شاعر العرب هبّا
فمشوا في مواكب الفنّ زهوا ... وتهادوا على المواكب عجبا
أخذت فيهم الأغاريد والالحــــن فراحوا منها نشاوى شربا
سائل العرب يوم كان دويّ الشعـــــر يزجي الى المعالي العربا
كتبوا المجد بالسيوف وبالشعر فكـــــان القريض أخلد كتبا
لغة القلب طالما خاطب القلـــب فهزّ الشعور جنباً جنبا
تارة يملأ المدارك جدّاً ... وتراه يفيض حيناً لعبا
يبسط السلم إن أردت سلاما ... ويشبّ الحروب إن شئت حربا
قد تحول الصحراء في روعة الشعـــــر فتغدو منه حدائق غلبا
كــرّم الله دولة كرّمتــه ... فنما في ظلالهــا واستتبا

⁂

ايه شوقي ! لو كان للشعر ربّ ... جعلتك الأذواق للشعـــر ربّا
يا غذاء القلوب إن تجدب الأر ... ض فلسنا نظنّ فيك الجدبا

(١) قصيدة الأستاذ السيد شفيق جبري عميد كلية الآداب في الجامعة السورية وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ألقاها في مهرجان أسبوع شوقي في القاهرة في تشرين الأول ١٩٥٨ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاعر العرب كان شعرك حينا كنسيم الصبا وحيناً عضبا
كلما طال عهده وتراخى رفّ في مسمع الزمان وشبّا

***

كم هززت الرجال في ثورة الشام فثاروا ولم يبالوا الخطبا
نفخت فيهم القلائد روحاً جعلت في الشدائد الموت عذبا
فاستطاروا مثل الرياح إلى المو ت فكانوا فيه رياحاً نكبا
فنفضنا عن المرابع ضيماً سال فيه النجيع مزناً وسحبا
غصبوا الشام واستباحوا حماه ثم طاحوا وما تملّوا غصبا
كيف ننسى في غوطة الشام يوماً كنت فيه نوراً وكنت اللهبا
جلت بالشعر جولة فحسبنا طيف مروان في النواظر دبا
وكأنا نرى الخلافة تختال وملكاً مع الخلافة صلبا
هكذا الشعر ثورة كلّما هاجت شعوب أوحى اليهم غلبا

***

ضحك الشعر في بيانك وابيضّت حواشيه ما نشاهد كربا
فغدا مسرح الظباء اذا ما ندّ سرب فتنت منها سربا
غزل ينفذ القلوب فتلقي بهواها فيصبح القلب صبّا
فتظلّ العيون تغمز غمزاً وتظلّ الشفاه ترضب رضبا

ويكاد النسيب ينطق سحراً ويكاد الهوى يشقّ الحجبا
وترى قبلة الثغور على الخدّ وتلقى مزاحها والدعبا
يتلاقى العناق والضمّ والشمّ وهـدب يلزّ فيها هدبا
لا تلمّ الشباك من كل درب لم تغادر في غمرة الحب دربا
لو يسيل الهوى خلال القوافي سلسبيلاً غمرت منه الهضبا
قد ملأت الشباب حباً وفاضت جارة الوادي في فؤادك حبا
فاذا جئت في الشيوخ هوام هجت فيهم هوى الشيوخ فأبا
فتنادوا إلى الكؤوس وصاحوا هاتها يا نديم صرفاً وصبا
أنت لا تدري ما تكنّ الليالي ان توالت وما تكون العقبى!

**

أدموع بأرض أندلس جـدت بها، روّت روضها والتربا
فكأن العيون تلمح شجواً وكأن الآذان تسمع ندبا
أم غناء كالعندليب طوى الأر ض فخلنا بعد المنازل قربا
فكأن السنين لمّا ترامت وثبت نصب أعين القوم وثبا
فرأينا القصور تلمع في الليـل فتهدي فوق البطاح الركبا
وقطعنا الرياض بين رفيـف الدوح نجتاز سروه والدلبا
ولمسنا النعيم في جنة الأرض نروّي الشعاب شعباً شعبا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فبكينا ملكاً تقاذفته الليالي غرسوا فوقه القنا والقضبا
ركبوا الموج والعباب وطاروا يقطعون العباب كثباً كثبا
رفعوا الملك والحضارة والفنّ وكانوا الرحى لها والقطبا
فهوى الملك والدموع ترويه وساءت تلك الأوائل غبّا
وكذاك الأيام تعصف بالنـــاس ويبقى ما أودعوه الكتبا
صور تقطر البلاغــة حتى تحسب الصدق في البلاغة كذبا
كلما رثّ أو تقادم عهد جدّد الشعر وشيه والعصبا

***

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كذب الدمع ما وفى حقك الدمع وإن ماج كالخضم وأربى
قد حبوت التاريخ ما ليس يبلى لؤلؤاً من لآلئ الشعر رطبا
فشهدنا فرعون قد نفض القبـــر وهزّ الأحقاب حقباً حقبا
وأتوه بالأكل والشرب حتى رأت العين أكله والشربا
لبست مصر من بيانك برداً لم تزده الأيام إلا رحبا
هدرت كالعبـاب تحطم قيداً أنقض الظهر حمله والصلبا
فتغنيت بالهدير فهـاجت لم يفل الحديد منها غربا
وقفت كالأهرام في ثورة الضيم وطالت سماءها والشهبا
وانثنى الضيم عن حماها ونالت من رقاب العدو طعناً وضربا

ثورة في الديار غنّى بها الشعر وألقى غراسها والحبا
فزكا غرسها وطاب ثراها وسقاها الإيمان هطلاً وسكبا
أكلتك الذئاب إن لم تكن في ثـورة العرب والعروبة ذئبا

***

ايه شوقي ! أسامع صيحة العـرب وقد دوّى الصوت شرقاً وغربا
مادعونا إلهامك السمح إلاّ حشد السحر والبيان ولبّى
ليتك اليوم في الجماهير والشعـب تغنّي جمهورنا والشعبا
فإذا ما سجا فؤاد ولبّ هجت منا فؤادنا واللبا
إرم عنك الأكفان واطرح ثـرى القبر وشاهد ملكاً على النيل رحبا
تلتقي الشام فيه ترباً لمصر كلّ ترب يشدّ في الملك تربا
وغداً تزحف الديار ديار العـرب تحت الدرفس روحاً وقلبا
انما العرب وحدة فاذا صال عـدو كانوا عليه إلبا

***

درجوا حقبه وأوطانهم أيدي سـبا والخيرات في الأرض نهبى
وعليهم سلاسل من حديد تمنع الأسد صولة ومهبا
فكأن التاريخ لم يملأوه روعـة أو لم يملأوا الدهر رعبا

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

لا تعدّ السيوف غير فتوح لهـــم في مناكب الأرض ذنبا
صحبوا اليمّ والبطـاح وهمّوا أن تكون الجوزاء يوماً صحبا

*

سيّدُ الشعر ! هل ترى ربعك اليــــوم يشقّ الحديد إرباً إربا
بعثوا من مدافن العزّ تاريخاً غنــــا هزه غنـاء وخصبـا
فكأنا نرى ابن حمدان يثني الـــروم جرّاً عن الحمى أو سحبا
هكذا المجد هبّة سلك العرب اليهــــا درباً على النـار صعبـا

*

نم هنيئاً يا مرسل الشعر نوراً شبع القلب من سناه وعبّـا
أرأيت البيان والسحر منـه أيّ مجد بنى وجيل ربّى !

شفيق جبري

ARCHIVE

الوصف والغزل
في شعر شوقي (١)

ولدت دنيانا من سحر خالد ، وفتنة لا تنفد ، فعشقها الناس على العصور ، وتعلّقوا بها تقديساً وإكباراً ، وهتفوا باسمها سرًّا وجهاراً . استبدت بعقول الفلاسفة والمفكرين وعبثت بقلوب الشعراء ، فحملوا قيثاراتهم يغنون على أوتارها اناشيدهم كترانيم تتصاعد عبر التاريخ شذى يعطّر الكون ، وموسيقا تسحر الآذان ، فكأنها جوقات من لغات تتآلف بالسحر والإلهام ، وتجد بالخلود والعبقرية لأنها لغات القلوب ، نبعت من المهجات واجتمعت على صلوات .

وهذه اللغات العالمية تجمع الشعراء من كلّ حدب وصوب ، في ذرى (أولمب) الشعر حيث تتلاقى أرواحهم وتتحدث ، في جوّ عطر مسحور ، ثم تعود الى الأرض لتحمل من أجوائها أناشيد علوية ، افهمها حيناً على وجهها وحيناً آخر على وجه مختلف ، فتتباين نظراتنا ومقاييسنا في الإحساس بها وفي تذوقها ، ومن هنا جاء الاختلاف بين النقاد ، فليس للشعر العالمي تعريفات أو موازين يقاس بها الشعر ، كتعريفات الأشياء الجامدة الملموسة أو موازين الآلات الموسيقية .

وقد اجتمع في رحاب الشعر العالمي عرب وعجم ، مشارقة ومغاربة ، قدماء ومحدثون ، لأن الشعر يعلو على الأجناس والعروق ، والأوطان والأزمان ، واشتركت بذلك أمتنا منذ قرون على ألسنة النوابغ الخالدين ، ودوّت أغانينا في تقديس الطبيعة الفاتنة ووصف المرأة الجميلة فخلف أجدادنا ألواحاً خالدة في الطبيعة الميتة والطبيعة الحيّـة ، سمّاها النقاد وصفاً وسموها غزلاً ، ولكنها

(١) الكلمة التي ألقيت في مهرجان أحمد شوقي بالقاهرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في واقع الأمر الى باب واحد يفد إلى تقديس الجمال أنّى وجد وتصيّده أنى كان .

وهذه الألواح العربية تشير إلى أن العرب فتحوا قلوبهم للطبيعة والمرأة وتملّوا منها جميعاً ، كما فعل شعراء الأمم ، فأرسلوا الدموع في بكاء الديار والأحبة ، وسكبوا نفوسهم على ترائب الحجر وترائب الغيد ، وخفقت قلوبهم لنسائم الغدران ولقاء الحسان ، فكان منهم ديوان ضخم موسيقي جميل ، منسجم في معناه ، متقارب في مبناه ، كأنه خرج من عشيرة واحدة وقبيلة واحدة على تعدد أقطارنا وسعة أمصارنا ووفرة عصورنا .

وهذا الديوان في الوصف والغزل واضح الملامح ، بسيط لبس فيه تعقيد أو التواء أو تفلسف أو تشكك ، تسيل فيه نفوس المحبين جزعاً للبعد وحرقة للوجد ، وحذراً من الحساد ، وخوفاً من الوشاة ، وإعجاباً بالروعة ، ونشوة بالدهشة ، وإكباراً للنقش والفن ، يصور القرون الأولى في جمال الحب وبساطة الرسم ، على خطوط لا ظلال لها في أكثر الأحيان ، وسطور ناصعة لا غموض وراءها ، لأنه غناء وإنشاد ، والفن يفسده التعقيد والشرح والتفلسف .

ولعل شوقياً فتن مبكراً بجمال الشعر وجلاله ، فعكف على قيثارته بأوتار ضعيفة أول الأمر ، عكوف العاشق العابد ، يتمنّى أن يصبح في الشعراء ، فقدّم قلبه قرباناً ، وضمخ روحه على مذبح الشاعرية ، وراح ينشد ويترنم ، فيتعثر ويتعثر ، ثم ينهض ويستوي ، ثم يقف للفحول ، فيقع منه ديوان كبير فيه الرفيع والعادي ، كما في دواوين غيره من الفحول . فمن الخير أن ينتقى وأن ينتخل ، وأن نستشهد بالخيّر منه في يوم ذكراه . فقد كسب العرب قانونياً طلّق الأحكام ، وترديد الدساتير والمواد ، ليدخل في ربوع الخيال ، ويعيش بين مرابع الجمال ، ويكون منه في الحب والوصف ما كان .

ولقد وهبه الله لساناً لافظاً ، وروحاً ملهمة ، فعاش بقلب كثير الخفوق ، وعينين حالمتين في رجرجة وفي حركة عجيبة ، وصدر عامر بالشعر يعجّ بما يحفظ ، ويثور بما يضطرم في نفسه ، حتى سالت في أحناء قلبه معاني القدماء مع المعاني الجديدة ، فأصبح كأنه صورة للجيل من الأدباء الذين عاصروه ، بل صورة للأدب الذي يعيش في أيامنا ، يتجاذبه تياران يتأرجح عليهما بين الشرق والغرب .

ولقد حاول شوقي أن ينطلق بالأدب العربي الى ميادين الشعر الغربي ، ووعد مخلصاً بأن ينقلنا إلى مرابعه ، ولكن الشعر العباسي كان يجذبه إلى أحضانه ويلفه بخياله ، فعاد به إلى تاريخ العرب وأمجادهم وصورهم أكثر الأحيان ، فكان لثقافته في الصبا والشباب على أيدي العباسيين أثر بعيد فيما نظم وفيما أبدع .

لذلك وقف أمام مشاهد الغرب كما وقف أمام مشاهد الشرق ينظر إلى القصور والأشجار والحدائق والأنهار ، والى السماء والماء ، بعينين يدفعهما الحنين أكثر ما يدفع الى الماضي العربي ، فيقتات عنده ، ويستعيدان صوره العزيزة الغالية ، سواء حين نظر شوقي الى تماثيل مصر وقصورها أو تماثيل الغرب في باريس ومدريد واستانبول . حتى قيل : إنه لم يفد كثيراً من مقامه بين الشعراء الغربيين في قلب الحيّ اللاتيني إلا كما يفيد المتنقل في قطار مسريع من مشاهد الطريق .

ونحن حين نسعى إلى جمع ألواحه في الغزل والوصف واختيارها من متحفه الواسع ، نقع على أناشيده في أمنا الأرض [1] ، وفي بناتها الحسان العبقات قد انتثرت في سماء ديوانه كالنجوم . وصوره الوصفية كثيرة في هذا الديوان ، لأنه كان في أكثر شعره يركب على عبارة مجنحة الخيال وصفية التركيب مجنحة الصورة .

ولهذا سنتخذ بعض المقاطع الخالصة للوصف والغزل شواهد للحديث عن

(١) انظر « لزوم ما لا يلزم » لأبي العلاء المعري ، في صدر الكتاب .

توفيقه في هذين البابين ، تحشدها باقة لذكراه ، بعد أن قضى الجسد ، ومات الحسد ، ودُفن الحقد ، وأصبحت روحه في الخالدين ، ترفرف في مرابع الشعر العربي وقممه ، مع رصيفاتها من عهد الوليد وسليمان بدمشق ، والرشيد والمأمون ببغداد ، وآل حمدان ومرداس في حلب ، وملوك الطوائف في الأندلس . والغربيون يقولون : يحسن أن ينبغ في القطر شاعر ولو تأخر به الزمان فيحسب من خيراته ويعدّ من حسناته يوم الحساب .

ولعلكم تأذنون في رحلة قصيرة الى متحف شوقي ، نستعرض فيها أجنحة الوصف ، فننظر الى ألواحه في القصور والأحجار قبل كل شيء ، لنرى كيف صنع وكيف رسم . فقد وقف أمام أبي الهول يتغنّى [1] :

أبا الهول ويحك لا يستقـــلّ مع الدهر شيء ولا يحتقر
تهزّأت دهراً بديك الصباح [2] فنقّر عينيك فيما نقر
أسالَ البياضَ وسلّ السوادَ وأوغل منقاره في الحُفَر
فعدتَ كأنك ذو المحبسيـــنِ قطيعَ القيام سليب البصر
كأنّ الرمال على جانبيـــك وبين يديك ذنوبُ البشر
كأنكَ فيها لواءُ القضا ءِ على الأرض أو ديدبانُ القدَر

فرسم أبا الهول في قلب الصحراء الصامتة على مقربة من أبواب الأهرام ، رابضاً يحرس الكنز المخبوء والأجساد البالية ، ناشب الظفر في هدوء المتوثب ، والقرون تمر ، والعوادي تجري ، والحروب تنشب حوله ، فيجدع أنفه وتسلب عينيه ، ويغدو قطيع القيام ، قعيداً ، لا يريم يسمع اللغط الدائر حوله في

(١) الشوقيات ١ / ١٥٥ .
(٢) ديك الصباح يريد به الزمن .

لفات ما عرفها حين كان أصحابه ، واستبيح حماه وكان السيد المهيب فأصبح منالاً لكلّ زائر .

فاتخذ منه العبرةَ الجميلة والصورة البديعة ، وكان يستطيع ، إلى ذلك ، أن يرسم الأسد وجثومه ، وأن يصف الروعة الهائلة التي يلقاها زائر أبي الهول ، وأن يأسى له ، وأن يرثي لحاله وقد شدّ إلى الصخر أسطورة خالدة على الأيام . فلما عاد اليه بالذكرى وهو في الأندلس صنع لوحة أخرى لهذا التمثال يقول فيها [1]:

ورهينُ الرمال أفطسُ الأ نه صنع جنة غير فطس

تتجلى حقيقة الناس فيه سبع الخلق في أسارير إنسي

دَرَكبتْ صُيّدُ المقادير عينيـه لنَقْد ومخلبيه لفَرْس

فأكمل في هذه اللوحة ما نقص في الأولى ، ورسم الأنف وذكر المخلبين ، وقربنا من الأسد ، ثم عاد ليقول مع البحتري إنه صنع جنة لهوله وعظمته وبارع صنعه ، كما قال العرب حين أذهلهم البنيان وأدهشهم أن يكون من صنع الإنسان . وليس من سبيل الى لوم شوقي ، فقد أراد أن يقف للقدماء وأن يعارضهم ، وأن يعدّ فيهم ، وليس ذلك بالقليل ولا الهيّن في مثل عصره .

فاذا وقف أمام حمراء الأندلس ، لبس ثوب البحتري حيال إيوان كسرى ، فاتعظ كذلك بالتاريخ ، وتأسّى للأحداث ، وبكى الماضين ، فرسم الأعمدة المستوية كألفات الوزير في طرس ، وقاعة السباع خالية إلاّ من أشبال تجمعت حول فوارة جميلة ترسل الماء حبيا ، تنشد على الزمان حزينة كئيبة فيقول [2] :

(١) الشوقيات ٢ / ٥٦ .
(٢) الشوقيات ٢ / ٦٠ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وترى مجلسَ السباع خلاءً مقفر القاع من ظباء وخُنس
مَرمرٌ قامتِ الأسودُ عليه كَلّةَ الظُّفر لينات المَجَسِّ
تنثر الماء في الحِياض جماناً يتنزّى على ترائبَ مُلسِ

وهذا جانب واحد من الصورة ، لم يعرض فيها شوقي ما قام من نقوش على الجدران ، وما اختلف الى الأعمدة من جمال اللون وتعاقب النور والظلّ ، وما سال تحتها من ماء ، وما حفَّها من خرير وهمس ، فكأنه لم يستوح الأندلسيات وقد رتعت أشباحهن في كلّ زاوية ، وتصاعد غناؤهن بموشحات تسمعه الآذان عبر التاريخ . ولكن الشاعر – كما نرى بعد قليل – لا يرسم كلّ شيء ، وإنما يركز عدسته على أمر واحد دون سائر الأمور ، فكأنه يرسم الأشياء من وجه واحد مسطّحة – كما يقول المهندسون – .

وإذا دلف الى «أسوان» ووقف أمام «قصر أنس الوجود» ، ترك في لوحته عنه ما أدهشه من جمال وجلال فقال (١) :

أيها المنتحي بأسوان داراً كالثريّا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غضّا
قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكاً بعضُها من الذُعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضّاً سابحات به وأبدين بضّا
مشرفات على الزّوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون مازالَ غضّا
ربّ نقشٍ كأنما نفض الصا نعُ منه اليدين بالأمس نَفضا

(١) الشوقيات ٢ / ٦٨ .

وهي صورة جميلة بارعة تصف الأحجار تتماسك من الذعر خوفاً من الغرق ، وقد أشرفت على الزوال ، فكأنها عذارى أخفين بضاً وأظهرن بضاً . ثم عرض للفن فرأى أنه لا يشيب مع الزمان ولا يهرم مع الدهر ، ومهارة الصانع ما تزال تبهر العين على تقدم الفنون ، وتستبد بالاكبار والدهشة . وهذه اللوحة من أجمل ما يزين متحف شوقي في الوصف ، بل هي آية أوصافه في الحجر والنحت ، تشير إلى حبه العظيم وإخلاصه لهذه التربة التي حضنت أباه ورعت مجده وحفظت بيته ، فهو يحتفي بتاريخها ويقول :

وأنا المحتفي بتاريخ مصر   من يَصُنْ مجدَ قومه صان عرضا

فصان التاريخ بهذه الألواح وخلّد الأمجاد بهذه الأوصاف ، واقتعد الى جانب القدماء من وصافينا مكاناً لا يقل عنهم ولا يزل عن عروشهم ، في بيان يختلط ببيانهم ، وأساليب تمتزج بأساليبهم فكأنه النسل عبر الزمان فاستعار ريشتهم وفنونهم ليرسم ما لم يرسموا .

ولعلكم توازنون بعد هذا بين ألواحه في القصور والأحجار وبين ألواح القدماء لتجدوا مبلغ التوفيق عنده ، مما لا نستطيعه في هذه الدقائق ، لأننا نحب أن نطوف بكم جناحاً آخر من متحف شوقي في وصف الآلات ، فقد رسمها كذلك كما رسم الحجر ، وخصها بشعره فجمل المراكب البخارية والغواصات والطائرات ألواحاً تنطلق مع أوصاف الشعر الحديث خطى غير قليلة ، ولكنها تجمع في يديها صوراً موروثة للحيوان ، برع في نقلها حين وصف الطائرة فقال [1] :

مركب لو سلف الدهر به   كان إحدى معجزات القدماء
نصفه طير ونصف بشر   يالها إحدى أعاجيب القضاء

(١) الشوقيات ٢ / ٢ .

مسرجٌ في كلّ حين ملجم كامل العدّة مرموق الرُّواء
كبساط الريح في القدرة أو هدهد السيرة في صدق البلاء

فقلّب على الطائرة الصور التي تخطر على البال ، فهي مركب نصفه طير ونصفه بشر ، وهي فرس ملجم ، بل إنها بساط الريح أو الهدهد المعروف أو الحوت في الماء أو الكوكب المذنب أو الطاوس يجر ذيله على الأرض تيهاً وخيلاء . والطائرة معجزة العصر ، فأين معجزة الشعر ، تصفها بأكثر مما وصف ! انّ « بساط الريح » راجت وأعجبت فاستعارها فوزي المعلوف شعاراً لملحمته وهو في المهجر . والغربيون لا يجدون غير الطير شبيهاً للطائرة ، بل يردّون اختراعها الى الطيور الكاسرة حين تحلق باسطة في السماء جناحين من حديد .

وبرع حين رسم الغواصة [1] ، فشبهها بالحوت تدبّ تحت الموج تَرى ولا تُرى ، وتبث الموت في كلّ مكان ، وهي خئون ملثّمة لأنهــا تزرع الشرّ والفناء . ونحن حتى الساعة لا نجد من الصور ما نسلمه الى أبنائنا في الاستظهار غير أبيات شوقي ، فهي في موسيقا وبساطة ويسر بحيث تدخل على الآذان بغير استئذان ـ كما يقول القدماء ـ ، وهذا كسبٌ للجيل على اختلاف أسنانه ، ننتظر من شعرائنا المجددين يداً يضيفونها إلى أياديه في غنى المتحف الأدبي للعرب .

* * *

واذا ما انتهينا من جناح الحجر والحديد في ألواحه انقلبنا الى جناح الطبيعة في رياضها وأنهارها وأشجارها ، لنرى الى صوره ورسومه عنها ، فقد خلّف شوقي ألواناً بديعة كما خلّف القدماء ، فرسم الماء والسماء وما بينهما ، وبث يتصيّد الجمال في كلّ درب ، فلننظر الى قوله في نهار جميل [2] :

(١) الشوقيات ٢ / ١٣٣ .
(٢) الشوقيات ٢ / ٢٥ .

وترى الفضاء كحائط من مرمر نضدت عليه بدائع الألواح
الغيم فيه كالنعام بدينةً برِكت وأخرى حلقت بجناح
والشمس أبهى من عروس برقعت يوم الزفاف بعسجد وضاح
والماء بالوادي يخال مسارباً من زئبق أو ملقيات صفاح[1]

رسم فيه الفضاء والسماء والشمس ثم عرض للسواقي فقال :

وجرت سواق كالنوادب بالقرى رعن الشجيّ بأنة ونواح
الشاكياتُ وما عرفن صبابة الباكيات بدمع سحّاح
من كلّ بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح[2]
تبكي إذا ونيت وتضحك إن هفت كالعين بين تنشّط ورزاح[3]
هي في السلاسل والغلول وجارها أعمى ينوء بسيره الفداح

وهذا شعر جميل يذكرنا بأخيه في العراق والشام ، لا يكاد ينخفض عنه في بيان ورقة وعذوبة وتوفيق ، أكثرنا من روايته عامدين وأفضنا في أبياته لنشهد السامعين معنا أن الشاعر جرى في ميادين الشعر الفحل ، واستطاع على تأخر الزمان ، وسكوت الحناجر المبدعة ، وقلق الشعر أن يلحق بركب الفحول من شعرائنا ، وأن يرفع لمصر راية عالية بين شعراء العرب ، وأن يدفع إلى تكريمه وفاء لشاعريته ، فهذا الجديد يصبح في التراث العظيم إذا تقلب الزمان ، وافتقد الناس الشعر الجميل الجزل .

---

(١) الصفاح : عرض السيف .
(٢) ملواح : سريع العطش .
(٣) رزاح : رزحت الناقة ألقت نفسها إعياء .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالمدهش في شوقي – كما قلنا – أنه نجح في قطر غلب عليه الركود ، وفي مصر صمت قروناً في الشعر ، فلم يلهم ولم يبدع ، وانما روّج لنوابغ الشعراء من جيرانه ، فلما غنى شوقي ولصق بالفحول ضحكت في قوافيه أماني الأدباء ، وتهللت في أوصافه متانة الشعر ، فأعاد للناس شراباً معتقاً في الوصف وفي الغزل ، فتوجهت الى مصر أنظار العرب وأصغت اليها أفئدتهم وقدمت اليها وفودهم تبارك القبيلة التي نبغ فيها ، وتهنئ العشيرة التي لمع في ربوعها ، كما كان العرب يهنئون في عكاظ سواء بسواء .

وقد رأينا أنه استعرض صور القدماء ، وطمع أن يكون أميراً في الشعراء ، وأن يصبح لعصره كما كان جرير والبحتري وأبو نواس لعصورهم ، فلم يضره عرقه ، ولم يفسده القانون ، ولم يحبسه زمانه وحساده ونقاده عن امتلاك مكان رحب في جنان الخلود ، فكسب المعركة سواء أوقع في التقليد أم انفرد في الابداع ، وذلك لأنه شق الطريق ، ومهد لشعراء قومه سبيل الابتكار بعده ، فلم نسمع بمن ينسينا ذكره ، حتى لكأن الشواغل صرفت شبابنا عن أهذا اللون من متع الشعر ولذائذه المترفة الى شعر الكفاح والنضال ، فكأنهم آمنوا بالالتزام وحده ، فهبوا إلى ينبوعه ينهلون منه لنسمع منهم بعد قليل ، وإنا لغنائهم لمنتظرون .

وسيبقى شوقي وتبقى هذه القصائد وأمثالها منضودة كبدائع الألواح في متحف الشعر العربي ، وفي مكان رحب منه هو « جناح شوقي » اذا صح التعبير ، يمرّ به الأدباء معجبين يستعرضون الجمال والجلال . ويقرءون شعره مثلاً في الربيع فيجدون أن الطبيعة هي الطبيعة وأن الغيم هو الغيم ، نرسمه كالنعام حين نستلم لأحلام الطفولة ، ونشبه الشمس بمسجد وضاح أو كعروس يوم الزفاف ، ونجد السواقي نوادب تشكو خلودها على الزمان ، تدور وتدور فما تعرف الهدوء والقرار ؛ تغرف الماء وتسكبه ، وما تدري ما تفعل ، لأنها كالعبيد في العصور

الوسطى أو كالأسرى في وحول الڤولغا القيصرية ، تغني باكية حظها . بل هي كهذا الحيوان معصب العينين ينوء بنيره الثقيل .

ويقرأون شعره كذلك في وصف القمر ، وقد رسمه متهللاً في الماء قد بدا نصفه ، وأسفر عن قفل ماس في سوار نضار ، ورسم الفلك على الماء يتبعها ذيل من الأنوار تخطر في لجين مائج أو عسجد زخار .

فاذا وقفنا أمام وصفه للنيل ، رأينا الألوان والأصباغ حين يسود النهر أو يخضر ، فيحوك بردة على الضفتين لا تخلق على الأيام لأنه شريان مصر ، وغذاء أرضها وأهلها ، وهبة الخير والنماء التي لا تعدلها هبة[1] :

ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقرق
وبأي عين أم بأية مزنة أم أي طوفان تفيض وتفهق

فاذا حفظ المصريون يد النيل ، فهم يحفظون يد شوقي ويرددون شعره ، وينقشونه في قاعاتهم شارة على الوفاء لشاعر النيل ، وينشدون أبياته كما ينشد الغربيون أغانيهم في الدانوب الأزرق وفي الڤولغا وغيرهما ، فالنهر ماء الحياة ودفقة العزة وشراب الخصب ونعمة الدهر .

ونحن في الشام نحفظ لشوقي يده علينا حين خصنا بألواح في هذا المتحف الجميل ، فرسم من اقليمنا ما وصف ، وخلد من آثارنا ما خلد ، فسكب الجمال في قوافيه وأراق في أبياته من مسجدنا ومآذننا ما أراق . فلما دخل دمشق عاصمة العروبة ومسرح الوليد ومروان ، هبت دمشق لاستقباله ، وجرى « بردى » يصفق للقائه ، فكأنه رضوان يستقبل اليوم شاعرنا في جنان الخلد ، والشمس فوق لجين الماء كأنها عقيان ، وشجر الحور في قرية دمر أو في

(١) الشوقيات ٢ / ٧٦ .

« الهامة » كالحُور في الجنان قد كشفت عن ساقها وخفّت ترقصُ لمقدمه ، ولعلّ شوقي قد عرف أن النهر صغير قليل ، ولكنه نشيط جميل ، يكاد يكون صورة للشعب ، يضجّ بالحركة ويثور بالسعي ، ويتعلق بالحرية والنفع ، يندفع على صغره كما يندفع النيل والفرات ودجلة ، ليغذي العرب بآياته ويتمهم بخصبه ؛ فنحن نتغنى بقوله [1] :

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنته ... دمشقُ دَوْحٌ وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبّت خمائلها ... الأرضُ دارٌ لها الفيحاءُ بستان
جرى وصفّق يلقانا بها « بردى » ... كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة ... والشمس فوق لجين الماء عِقيانُ
والحورُ في « دمر » أو حول « هامتها » ... حُورٌ كواشف عن ساق وولدان

لأننا لم نقرأ لنهر دمشق وصفاً كوصف شوقي منذ حسان بن ثابت فنعترف لذلك بيده على أبنائنا منذ أرسل فينا هذه الأنغام العلوية .

والألواح في المتحف ما تزال كثيرة ، في الربيع والشرب والشاربين ، تشبه ما في ديواننا من البحتري وابن المعتز وأبي نواس ، بل تزيد عليها فتثير البلابل وتحرك الورق كأنها جوقة من راهبات في صحن كنيسة يوم عيد الفصح ، وقد انتشر البخور وعلا النشيد الجميل . وأحمد شوقي يستعير صوره من الاديان جميعا ، وفيها الدين المسيحي ، كما فعل الحدائيون . ويعدّد النبات وألوانه والزهر وأصنافه كما عدّدها أولئك في روضياتهم ، فيرسم الخمائل مرحة ، والنرجس والأقاح ، والمنثور والورد والزهر ، كأنها في موكب جميل تتهادى في أوضاعها ، هذه خفضت رأسها ، وتلك تعالت شامخة ، وثالثة ضحكت مرحة ،

---

(١) الشوقيات ٢ / ١٢٣ .

وهذه عبثت في العرس الحافل ، فكأنه يرمم عرس الطبيعة ، ويحرك الزهر على المسرح كما يحرك الفنانون دماهم بخيوط خفية يرقصونها وينطقونها بأجمل الحديث في مسارح باريس وموسكو .

* * *

وهذه الألواح خالية في أكثرها من التوقيت والتأريخ ، لا تدلنا على صبى أو كهولة ، فلن نستطيع أن نصف منها أطواره ، ولن نصور تقلبه وتقدمه في شعره . ولعلها ليست أجمل ما قال ، ولكنها في رأينا من أجمل ما يقال ، بل اننا نراه يحاول أن ينطقها كما فعل دهفنشي في لوحته عن موسى الكليم صلوات الله عليه ، ولكنه عجز في باب الألوان والأصباغ والحركة فنظر اليها كما ينظر الفوتوغراف من وجه واحد — كما قلنا — .

وقد نظر إليها نقادنا المعاصرون على اختلاف غير يسير في الرأي فانتقصها بعضٌ على أنها تقليد ونقل ، وأكبرها بعض على أنها آية الآيات . فقال الرافعي : «ان شوقي صاحب الآيات البديعة في الوصف ، وهذه الناحية هي أقوى نواحيه» . ونقدها العقاد وعرّف التشبيه : «أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك» . ورأى غيرهما أن الشاعر أخفق في مجاراة عصره فاستعار آلات القدماء وأوصافهم .

ونحن لا نحمّل شوقي معرة تقصيره في اللحاق بشعراء الغرب في العصر الحديث ، وقد عاش بينهم في باريس وغير باريس ، فلم يرمم أثر المشاهد في نفسه ولم يحاول أن يطبعها في نفوس قرائه ، ولم يجعل كالشاعر لامارتين من الخليج ساعدين يضمان الماء كما يضم العاشق حبيبه في نفور حيناً وفي استسلام أحياناً . وذلك لأن شاعرنا كان بديم النظر الى الشعر العربي القديم أكثر ما يديم ويسعى في اللحاق به وخاصة في الوصف .

فلما أراد أن يصف دقات قلبه من جمال النساء بعدما وصف من جمال الأرض والسماء وقف أول الأمر عند غزل القدماء، وتعلق بصور القرنين الثالث والرابع، ولاذ حيناً بأصحاب المدرسة العذرية، وأخذ أحياناً بالغزل الصناعي، ولكنه كان في ذلك كله يجاري الفحول من الغزلين القدماء، فلما أوغل في الفن استطاع أن يولد وأن يبتكر، فكانت منه تعابير وصور بلغت مبلغاً عظيماً من الصيغة والموسيقا، فكان شعره في هذا الباب موضع الغناء في عصرنا لحن كله أو كاد، ودار على الأسماع لرقته وعذوبته.

أما أنه وقف عند غزل القدماء أول الأمر، فهو واضح في ألفاظه يكرر ذكر البان والعلم والريم والمها والمرض والبعاد والقتل والفتك، في مطالع قصائده وفي المقطعات الخاصة بالنسيب والتشبيب. فوصف ماء الخد يشف عن اللهب، والشادن في غلائل قشب، قد قرّ منه النهد واضطرب، فاذا مشى أخجل القضب، بين عينيه والمها نسب، يميس قده، ويسفر عن البدر وجهه، ويقتل بجفنه وفيه سقم، ويدمي عشاقه بالسيف والسحر والطلى، يرمي الشباك ويصيد العشاق يبسم عن نضيد، ويرنو بطرف أحور. وكان في هذا مقلداً من غير شك حتى اذا انطلق الى باريس وغير باريس راح ينشد شعراً جميلاً ينبعث من قرارة نفسه، فيقول[1]:

نظرةٌ فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا ... نتهادى من الهوى ما نشاء
وعلينا من العفاف رقيب ... تعبت في مراسه الأهواء

فصوّر الحب جنيناً منذ ولادته حتى بلغ أشده، وأثمر الثمر المرجو، فكان

(١) الشوقيات ٢ / ١٣٩ .

لقاء وما وراء اللقاء . وهو في غزله عفيف حيناً ، وغير عفيف أحياناً ، أمين على الحب وخئون في العشق ، يقسم ويقسم ، ويجعل للحبيب من قلبه معبداً وصفحاً وملعباً ومنهلاً عذباً ومرعى طيباً .

وكم تغنينا في شبابنا بألحان شعره في قصيدته السائرة التي وصف فيها لقاء الحبيب وما وقع بينه وبينه فقال [1] :

لم أدر ماطيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطواك
ودخلت في ليلين فرعك والدجى ولثمت كالصبح المنور فاك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك
لا أمس من عمر الزمان ولا غد جمع الزمان فكان يوم رضاك

وأعجبنا آنذاك بلغة الكلام حين تعطلت ، وذهبت الكلمة فينا مثلاً ، ورددناها في سن كانت ترقص لهذه المعاني والصيغ ، ولعلها تبعث فينا اليوم ما يبعث الناقوس في النسّاك ـ كما قال شوقي ـ ولكنها لم تفقد عذوبتها في أفواهنا ، ورقتها في أسماعنا ، لأنها تصور الغزل الجميل وقد سكت الكونُ وتكلّمت الأنفاسُ في الصدور ، وتقطعت الحسرات بالقبل ، وبرقت العيون في الظلام ، وازداد حديث القلوب كلما سادت العتمة ـ كما يقول بول جيرالدي ـ في باريسياته ، فكيف نصدّق الخبثاء من النقاد حين يرمون شوقي بالبعد عن هذا ، ويرون أنه ما تكلّفه ولا سعى اليه . وكيف يستطيع شاعر لم يذق الجوى والألم أن يقول :

اذا طاف قلبي حولها جنّ شوقه كذلك يطفي الغلة المنهل العذب
يحنُّ اذا شطّت ويصبو إذا دَنَت فياويح قلبي كم يحنُّ وكم يصبو

(١) الشوقيات ٢ / ٢٢٥ .

ولو عرفوا أبة حسناء سفح عليها حنينه وشكواه ، وأراق على نحرها دمعه وبكاه ، لآمنوا بما يقول ، ولكنّ شوقي سكت عن ذكرياته في هذا الباب فلم يحدّث عن باريس ومونبليه وغيرهما كما فعل غيره . وانما رأوا أن الرجل كان يتقمص ثياب الأبطال العشاق في مسرحياته ، فيغني باسمهم ألم قلبه وجروح صدره وذكريات أيامه ، ويوفق في التعبير والتصوير حتى ليقع من ألسنتهم موقع الشقيق الرفيق ، فيختلط شعره بشعرهم ، ويصيح مع المجنون في صيغة واحدة :

مُنى النفس ليلى قربي فاكِ من فمي ... كما لفّ منقاريهما غردان
نذقْ قبلة لا يعرفُ البؤسَ بعدها ... ولا السقمَ روحانا ولا الجسدان
فكلُّ نعيم في الحياة وغبطة ... على شفتينا حين تلتقيان
ويخفقُ صدرانا خفوقاً كأنما ... مع القلب قلبٌ في الجوانح ثان

ولعلّ ليلى المجنون هي ليلى شوقي لقيها في الشرق أو الغرب ، فما نظن أنه خلا من حبّ عنيف فاتك ، لأن أشعاره تصور عاشقاً لقي الحب وخبر الفراق ، وأحسّ بهذا لكل جارحة من جوارحه كما أحسه العباسيون والأمويون قبلهم ، فاستطاع أن يقف لشعرهم لا عن تقليد بل عن إحساس وشعور وفهم وذوق ، وبرع في وصف الغرام في الصبا والشباب فرسم في المسرحية مشهداً رائعاً نظن أنه بلغ فيه الذروة تصويراً وتعبيراً حين قال :

هـذه الربوة كانت ملعباً ... لشبابينا وكانت مرتعا
كم بنينا من حَصاها أربعاً ... وانثنينا فمحونا الأربعا
وخططنا في نقا الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى

لم تزل ليلى بعيني طفلة لم تزد عن أمس إلا أصبعا
قد يهون العمر إلا ساعة وتضيق الأرض إلا موضعا

وهذه الأبيات تقع من موسيقا الشعر الغزلي وروعته وجماله بحيث تشهد لشوقي ببراعة الغزل فهي تنضح بالحب البريء، وتصف الهوى في أجمل صفحاته، حين يرسم العاشق على الرمل ويخط على الماء ويبني على الهواء، فتحمل الريح أحلامه وقصوره الى كل مهب وفي كل سبيل، فاذا شبّ ذكر ماكان من الصبا في أسى جميل ولوعة صادقة، وحرقة يعرفها المحبون، لأنها صورة الحب في الإنسانية. وهذا هو الشعر الإنساني الذي وفق شوقي إلى رسمه وبلغ الغاية فيه فلم يصح مع «موسه»: أن الأماني لا تبنى على الرمال ولا تعتمد على الرياح.

والنقاد يرون أن شوقي لم يلح على الغزل إلحاحه على الأبواب الأخرى فلم يعالج منه لوصف حياته ومن حوله ومن عرفه، ومن أحبه، ولذلك جاء قليلاً بالنسبة الى شعره في الألوان الأخرى، ويرون أنه سكت لموقعه من السلطان والمجتمع، ولو قد فعل لكان له في الغزل ديوان كبير، ولكنه صرف أكثره الى المسرحية فوفق فيه وبرع به، ورفع فيه لواء مصره وعصره.

على أننا نجد أنه صرّح بهذا الغزل حين تحمّل الى لبنان، ووقع في «بكفيا» على صيد جميل، فجرى وراءه وخادعه وخادعه حتى انتصر عليه، ومشى الصيد اليه ولبس أول جؤذر وقعت عليه حبائله[١]:

قد جاء من سحر العيون فصادني وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرتُ به على حرم الهدى لابن البتول وللصلاة وهبته

(١) الشوقيات ٢ / ١٨٨ .

ولكننا لا ندري بعد ذلك كم وهب وكم اصطاد ، وكم من الشباك ألقى وكم لمّ ؟ حتى إذا تعبت يداه ترك الشباك وألقى القيثار ، وعزف عن الغناء في الغزل ، وجلس يرقب الصيد والصيادين ويذكر أيامه الحلوة في بسمة راضية وعيشة هانية ، حتى دلف اليه الملاك بين سحر المناظر وعطر المفاتن ، فاحتمله الى جنان النعيم حيث الحور والولدان المخلدون ، قرير العين بما كسب للشعر العربي ، ناعم النفس بما وهب من صور وألوان ، عظيم الشهرة فيما خلد من وصف كان تاج شعره ، ومن غزل كان موضع الغناء في مطارح أنسنا ونجوى نفوسنا ، حلّق فيهما كما حلق الفحول من قدمائنا فاستحق الإعجاب والتكريم والذكر العطر ، على مرّ الدهر وتقلّب الأجيال .

الدكتور سامي الدهان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نثر شوقي (*)

أكان شوقي الشاعر الذي ملأ شعره مسمع الدنيا ، وخفقت له قلوب الناس، وردّ إلى الشعر العربي رونقه وبهاءه ، وجلا عنه ـ بعد البارودي وصبري ـ ظلمة عصور الانحطاط ، أكان شوقي هذا الذي فعل الأعاجيب في الحياة الفنية الشعرية ، ناثراً من الناثرين الذي يقف عندهم تاريخ الأدب مشيراً إلى أثرهم في سواهم ، دالاً على مكانتهم فيمن حولهم ، مبيناً عما كان من تجديدهم في الأسلوب العربي أو تثقيفهم له ، أو دفعه في مساربه الجديدة ؟

أغلب الظن أننا لن نستطيع أن نكتشف شوقي الناثر في شيء من اليسر .. لا لأنه لم تكن له هذه القدرة على النثر الفني المتمكن من الصنعة حتى لتكاد تكون فيه عفواً .. ولا لأن نثره لم تكن فيه هذه القدرة على الإمتاع .. لا لشيء من هذا أو ذاك ، وإنما يتجاوز الأمر شوقي نفسه إلى العصر الذي عاش فيه ، وإلى العصر الذي نعيش فيه ، وإلى المواضعات التي نطمئن إليها في العمل الفني ، والأسس التي نرتكز عليها في التقدير والتقويم .. فنحن نحيا في عصر هو أقرب إلى الإطلاق منه إلى التحديد ، والى العفوية منه إلى التصنع ، وإلى الإرسال منه إلى القيد ، وإلى الانسجام مع المعنى بأكثر من الانسجام مع اللفظ .. ونحن اليوم نحب النثر رهواً ، رخاءاً ، طلقاً ، كهذه الأشرعة الخفيفة التي تجري مع النيل ، لا تسمع لها صلصلة ولا جلجلة ، ولا تحس لها ضجيجاً ولا عجيجاً ، وإنما هي وسوسة ناعمة كأنما هي همس الموج إلى المجداف ، وتحية المجداف إلى الموج ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا هذا التقدم المنطلق على صفحة الماء .

(*) الكلمة التي ألقيت في مهرجان أحمد شوقي بالقاهرة .

كذلك نحن نحب النثر اليوم ، وانما تولد عندنا هذا الاعجاب بهذا اللون من النثر المطلق ، وتكوّن فينا الميل إليه ، واستقر عندنا الأخذ به بعد ذلك والتزامه والانصياع إليه والرضا به - أثراً لسلسلة طويلة متشابكة من العوامل والأسباب ... بعضها يعود إلى تراثنا العربي النثري في القرون الأولى قبل أن تطغى الصناعة ، وبعضها يعود إلى طبيعة العصر وروحه العامة ، وبعضها يعود إلى غلبة الفكرة وتقهقر اللفظة التي لا ترتبط بالفكرة ارتباطاً وثيقاً ، وبعضها يعود إلى عوامل أخرى اصطلحت جميعاً على أن تكون عندنا ذوقاً جديداً ، ومقاييس جديدة ، وأساليب تخضع لهذا الذوق وتمضي مع هذه المقاييس .

وأبرز ما في ذلك أننا أدرنا ظهورنا للسجع .. بل أوشك أن أقول إننا كرهنا هذا السجع في كل ما يكون من صوره وألوانه .. وسواء أكان السجع طريفاً نديا أم كان جافاً قاسياً فنحن لا نُؤخذ به ولا نطرب له إلاّ أنْ يكون ذلك عارضاً أو كالعارض . وعلى ذلك لا تكاد تتعاقب سجعتان في أسلوب كاتب من كتابنا ، أبرز كتابنا إن شئت ، حتى نتوقف وتثور في نفوسنا النفرة من السجعة قبل أن يثور عندنا الإحساس بجمالها .. إننا حين تمر بنا السجعة في صفحة من الصفحات ينبعث عندنا من الإحساس بانكار السجع كله أكثر مما ينبعث من الاطمئنان اليها .

ولقد مضى السجع في طريقه إلى أن ننكره ونفرق منه في مرحلة الصحافة اليومية أولاً ، ثم في مرحلة الأدب الانشائي كله بعد ذلك في أي لبوس بدا هذا الأدب الإنشائي .. ولم يبق للسجع إلاّ مجال الخطابة يحتمي بها ويحتفظ على نفسه ببعض مكانته عند الخطباء الموفقين .. فلما اضمحلت الخطابة من نحو ، واتخذت سبيلها إلى التبسيط الذي يقرّبها من العامية ، وغلبت فيها حرارة المشكلة السياسية أو الاجتماعية على اللبوس الفني ، كما نلاحظ في الأعوام الأخيرة ،

خسر السجع آخر معاقله التي التجأ إليها واحتمى بها ، فلم يبق هنالك من ينشئ فيه أثراً فنياً جديداً .

وحين نقول السجع لا نعني السجع وحده ، وانما نعني كلّ هذه الطائفة من المحسنات البديعية التي تواكب السجع في كثير من الأحيان : الطباق والمقابلة ومراعاة النظير والجناس والتورية وهذا الحشد من ألوان البديع في معناه الذي نعرفه به في كتب البلاغة المجمّدة .. فقد ارتبطت هذه كلها بالسجع فكأن لا يكون - غالباً - إلاّ معها .. فعافتها أذواقنا أو عافت أكثرها بصورها القديمة مع ما عافت من أمر السجع سواء بسواء .

وفي هذا الانصراف عن المقيد إلى المطلق ، وعن المسجوع إلى المرسل ، تتمثّل أكبر منعطف في طريق النثر الفني في حياتنا العربية المعاصرة .. ومن المؤكد أن هذا الانعطاف كان من القوة ومن التأثير في نثرنا الحديث وفي تذوقنا الحديث بحيث نملك أن نفترض مطمئنين أن أقوى نص أدبي مُعجب من إنشاء أدبائنا المتميزين لو قدر له أن يُصاغ مسجعاً لانصرف الناس عنه ولفتشوا عن غيره ، ولقالوا في أنفسهم مُستزّين وفي ألسنتهم جاهرين : إنه السجع .. كأنما يركّزون في هذه الجملة كل أثقال عصور الانحطاط يلبسونها هذا النص ، ويحمّلونه كل ركاكات اللفظ وفقر المعنى الذي نعرفه في إنتاجنا الأدبي خلال أكثر فترات الضعف والتردّي .

ومن هذا ، فيا أحسب ، كان أعظم الغبن الذي لحق نثر شوقي .. واذا كانت مواضعات العصر ومقاييسه هي التي ألقت على نثر شوقي ، أعني على النثر المسجوع ، هذه الظلال الكثيفة التي تحول بيننا وبين أن نتذوقه ، وبيننا وبين أن نستجيب له ، وبيننا وبين أن نتفاعل معه - اذا كان هنالك هذا السبب الخارجي الذي لا سلطان لشوقي عليه .. فثمة سبب آخر كان شوقي نفسه هو مردّه وهو مصدره .. هو فيه المبدأ وهو فيه النهاية ، وأعني به شعر شوقي ..

فقد طغى هذا الشعر حتى ما يكاد يذكر معه نثر، وعُني الناس بالقصائد ولكنهم ما ردّدوا المقالات، ونهلوا من الشوقيات ولكن «أسواق الذهب» كان ـ في شيء من التجاوز ـ كالأخ المنفيّ بين أجزاء ديوان شوقي، عليه شكل إخوته وله مثل طابعهم الخارجي، ولكنه لا ينزل من قلوب الناس وأفئدتهم ولا يكون له في تقديرهم مثل منزلة أخيه ولا قريب منها .

ومن المؤكد أنه لو لم يكن هنالك الديوانُ، والشاعرُ الانسانُ الذي غنّى روائع النشيد وبارع النغم .. وكان هنالك شوقي الذي تحدث عن الحياة والأمس واليوم والغد، وعن الأمومة والقلب، وعن الشهادة والصلاة والزكاة والحج، وعن القناة والجندي المجهول، وعن الشمس والظبي ـ لو كان هنالك شوقي هذا فحسب لكان له في حساب الحياة الأدبية شيء آخر ...

ولكن شوقي الشاعر غطّى على شوقي الناثر، كما كسف عصرُ شوقي المطلق المرسل شمس السجع التي كانت متوهجة .

وكذلك نرى أننا نستطيع أن نقول في الشعر : هذا عصر شوقي .. في كثير من الاطمئنان .. ولكننا لا نملك بحال أن نقول في النثر : هذا عصر شوقي ... فللنثر أمراؤه الآخرون : طه حسين والعقاد والمازني والرافعي والزيات ومن في طبقتهم في اقليمهم والأقاليم الأخرى ..

* * *

على هدي من هذه الحقائق الأولى نستطيع أن نتحدث عن نثر شوقي، وأن نتساءل ماذا كان من أمر هذا النثر وما سبيله فيه ؟ ما هي مسالكه التي اتخذها وألوانه التي تسربل بها ؟ ... أهنالك وراء هذا النثر مذهب معين يتجه إليه شوقي ويبشر به أم كان الأمر لا يخضع لغاية ولا يمضي في مذهب ؟ ... أهنالك مراحل مرّ بها هذا النثر ؟ وماذا كانت دوافع شوقي إليه وعناصره في تكوينه وأسلوبه في بنائه وموضوعاته التي صبّها فيه ؟ .

وليس في وسعنا أن نعرض كل آثار شوقي النثرية ، فبعض هذه الآثار يعود إلى مطالع حياته ، وتلك خطى قد يعنى بها مؤرخو حياة الأديب وراصدو مسالكه . . ولكننا نريد اليوم أن نكتفي بالإشارة إليها دون الوقوف عندها . . ونعني بها هذه الآثار التي كتبها أو ترجمها في صدر حياته : لادياس ـ عذراء الهند ـ دل وتيمان ـ وبعض هـذه الآثار هي التي تتوج اتجاهه النثري وتعبر عنه في أكمل صوره وتلك هي التي سنتوقف عندها ونعنى بها « أميرة الأندلس » وأسواق الذهب . . . غير أن أميرة الأندلس عمل مسرحي خلص فيه شوقي من نثره المسجوع إلى النثر المطلق فليس لها إلاّ هذه الدلالة الضخمة على تطور نثر شوقي ولذلك لن نقف عندها إلاّ من هذا النحو .

وقد كان لا بدّ لهذا البحث ، كي يأخذ أبعد آفاقه ، ويسير في أصدق اتجاهاته ، أن يظفر بشيء من رسائل شوقي الخاصة فيما كتب إلى خُلّص أصدقائه في الشؤون العامة أو في شؤونه الخاصة ، ولكننا لا نزال في دراسة الأدب من هذه الغاية على بعد . . لأننا لم نتعود أن نجمع كل آثار أدبائنا ، ولم نتمكن بعدُ من النظر اليهم ـ من خلال آثارهم الخاصة ـ في غير الصورة التي أرادوا أن يظهروا بها للناس في آثارهم العامة التي نشروها .

* * *

ما الذي نجده في أسواق الذهب ، أبرز آثار شوقي النثرية ؟

حين قدم شوقي لكتابه هذا أشار إلى كتابين آخرين : أحدهما أطواق الذهب للزمخشري والآخر أطباق الذهب للأصفهاني فقال : « فهذه فصولٌ من النثر ما زعمت أنها غرر زياد ، أو فقر الفصيح من إياد . . . ولا توهمت حين أنشأتها أني صنعت أطواق الذهب للزمخشري ، أو طبعت أطباق الذهب

للأصفهاني ، وإن سميت هذا الكتاب بما يشبه اسميهما ، ووسمته بما يقرب في الحسن من وسميهما ..»

هذه الجملة التي جاءت في مقدمة أسواق الذهب دفعت بعض الذين كتبوا عن شوقي إلى القول بأنه جرى في كتابه على نمط أطواق الذهب وأطباق الذهب .. أو أن عمله في الأسواق يتطابق مع المقامات وانه يذهب فيه مذهب الزمخشري من حيث الوعظ والارشاد (١) .

فهل ذهب شوقي مذهب الزمخشري والأصفهاني ، وهل جرى على نمط الأطباق والأطواق ؟ أكان عمله يتطابق مع المقامات ؟

قد نستطيع أن نجاري الذين قالوا بهذا اذا نحن تناولنا الأمور تناولاً عاماً ، ووقفنا لا نتجاوز الشكل إلى ما وراءه .. إن الأطباق والأطواق قائمة في مظهرها الخارجي على السجع ، وكذلك أسواق شوقي .. غير أن هذا وحده لا يبيح لنا أن نفرق في المقارنة حتى نصل إلى حدّ المطابقة بين هذه الأعمال الثلاثة .

وصحيح أن شوقي أشار إلى الأصفهاني والزمخشري ، ولكننا يجب أن لا ننسى أنه أشار كذلك إلى زياد بن أبيه وقسّ بن ساعدة الإيادي ، وأنه مرد هذه الأسماء كلها لا على أساس فني ، بمعنى أنه لم يقصد إلى أن يقيم هذه المقارنة أو المطابقة بين صنيعه وبين صنيع هؤلاء الذين تحدث عنهم ، وإنما قصد إلى شيء من الزينة الفنية فحسب حين مثّل غرر زياد وفقر الفصيح من إياد .. إنه في الواقع كان في نطاق تعداد هو إلى ذكر طائفة من

---

(١) انظر ما كتبه العلامة المرحوم الأستاذ محمد كردعلي في كتاب ذكرى الشاعرين « الأستاذ أحمد عبيد – ج ٢ ص ٤٣٦ » ، واشارة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في كتابه الرائع عن شوقي ص ٢٩٢ « الطبعة الثانية » .

الأسماء اللامعة في النثر العربي ، بعضها إسلامي وبعضها من القرون المتأخرة ـ أقرب منه إلى أي شيء آخر .

وإذن فليس هنالك هذا النمط المشترك ـ إن شئنا الدقة ـ بين الأسواق وبين الأطواق والأطباق .. وليس هنالك هذه الرغبة في تقليد أثر بعينه .. إن لكلّ من هذين بناءه وأساسه ووجهته التي يخالف بها عن وجهة الآخر وبنائه وأساسه .

ولذلك ، أعني لهذه المقارنة بين شوقي وبين الزمخشري والأصفهاني فضل حديث ندّخره لكتاب عن نثر شوقي فلنتجاوزه إلى ما وراءه متسائلين ـ في سبيل التعرف الأصيل على أسلوب شوقي ـ عن الدوافع التي دفعت بالشاعر أن يقول هذا النثر المسجوع .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بواعث السجع

في ذهن كلّ الذين يقرأون نثر شوقي تحوك هذه الأسئلة المختلفة : لِمَ لجأ شوقي الى هذا النثر وقد عُرف تميّزه بالشعر وتقدمه فيه سائر طبقات المحدثين ؟ ما الذي كان وراء هذا الطريق الذي شقه من بواعث ؟ ألم يكن له في المجال الشعري ما يسدّ كل ظمأه الفني ؟ .. أكان يحسّ أن ثمة دفقة من نفسه في حاجة إلى أن تبدو للناس في غير القالب الشعري الذي ارتضاه سبيلاً ومضى فيه وصقله أروع صقل في تاريخنا الأدبي الحديث ؟ .. ألم يكن يجزيء شوقياً أن يقال عنه إنه أمير الشعراء ، وأن يقال بحق عن عصره في التاريخ الأدبي إنه عصر شوقي ؟ أكان هنالك دوافع خاصة تدفعه إلى هذه المزاوجة بين الشعر وبين النثر ؟ .

وقفتُ طويلاً عند هذه الأسئلة التي كانت تجلجل في صدري وأنا أعالج

نثر شوقي ، ولكني لم أجد الجواب الذي أطمئن اليه وأرتضيه .. وأحسب أنه ما لم يُتَحْ للذين عاصروا شوقياً وخالطوه أن يتحدثوا عن كلّ ما عرفوا من سيرته أو خبروا من سريرته أو شهدوا من تشابك العلائق في حياته أن يقولوا هذا الذي عرفوا أو خبروا أو شهدوا ، وأن يكشفوا عن كل وجوه هذه السيرة والسريرة والعلائق ـ فان حديث المتحدثين اليوم وغداً لن ينكشف عن شيء وإنما سيظل يدور حبيس الحدس والتظنّي .

ومردّ ذلك إلى ما نعرف جميعاً من أمر شوقي .. كان شوقي للناس كما يكون البحر إذ تراه هادئ الصفحة على حين يضطرم داخله بالموج ، ويثور بالحركة ، ويغلي بالانفعال .. والموجة التي تضطرب في داخله لم يكن شوقي ليكبتها وانما كان يتيح لها أن تتحرك هنا وهناك ذات اليمين وذات الشمال .. ولكن ما أقل ما أتاح لها أن تنطلق فتملأ سطح هذا البحر الذي يراه الناس فيأخذهم انبساطه المادي وانطلاقه البعيد ووسوسته الناعمة ـ ضجيجاً وصخباً وحركة ... ويبدو كأنه في حكم المؤكد أن شوقي كان لا يخرج على الناس إلاّ بالجانب الحليم العاقل من ذاته العاقلة وذاته الثائرة .. إن نفس شوقي جوهر واحد للذين يلتمسونها من هذا السطح الظاهري فقد استطاع أن يخفي جواهره الأخرى .

وكما كان في سلوكه الاجتماعي كان كذلك في سلوكه الفنيّ .. فالذين عاصروا شوقياً مجمعون على أن سلوكه الاجتماعي كان غاية في اللين والدماثة والرقة والسلاسة .. وما نحسب أن انساناً ، بله أن يكون شاعراً ، شهد كل أحداث الوطن العربي والاسلامي ، ومدّ يده إلى ما وراء الأفق الإنساني فاقتطف هذا الشعر الخالد ، ما نحسب أن انساناً هذا شأنه كان حلماً خالصاً ورقة خالصة .. فمؤكد أنه كان كذلك ثورة داخلية عارمة بمعانيها ، ويتكيف بها ، وتنال من عقله ، وتأخذ نفسه انفعالاً مبهجاً أو محزناً ... غير أن شوقي

الذي استطاع أن يخلّص سلوكه الاجتماعي من الغضب والطيش والجاهلية وفلتات القول ، وأن يصفّي حقد الناس بحلمه ، وطولَ لسانهم بتهذيب لسانه ، وتطاولهم إلى أن ينالوا منه بمحاولته أن يبلغ اليهم نَيْلُهُ ، هو شوقي الذي استطاع كذلكْ في سلوكه الفني أن يحيل كل انفعالاته الداخلية صنيعاً فنيّاً معجباً تغطيه الحكمة على حين كانت حروف هذه الحكمة تشتعل أطرافها بالقلق كما تشتعل أطراف الشموع بالنور .

ومن هنا تعذّر التعرّف إلى مبرّ هذا المنعطف النثري في طريق شوقي الشاعر .. وليس لنا بعد هذا إلاّ سلسلة من الافتراضات .

فنحن نستطيع أن نرى في صنيعه هذا امتداداً لما استقر ، تقريباً ، في تراثنا الأدبي القديم من الجمع بين الشعر والنثر عند كثيرين .. حتى الذين عرفناهم شعراء كان لهم نثر لم يصلنا منه شيء ، وأبو الفرج في الأغاني يحدثنا أن بشاراً كان صاحب منثور ومزدوج ورسائل ... ويبدو أن جمهرةً من أدبائنا على مدى تاريخنا الأدبي الطويل حرصوا على أن يجمعوا بين هذين القالَبيْن .. وكأنما استقر عند شوقي أن من تمام التميز في الأدب العربي أن يماشي موكبَ الشعر عنده موكبٌ من النثر ، وأن تحفه من حوله ، من يمينه وشماله آلهة الشعر وربات النثر .. وذاك كله - فيما أحسب - استمرار للتقاليد الأدبية العربية .. وما من شاعر كشوقي استطاع أن يمدّ خيوط هذه التقاليد من نحو ، وأن يوجهها وجهة جديدة من نحو آخر ، وأن يقيم هذا التوازن بين القديم والجديد من نحو ثالث .. بل لعلّ حياته ، سيرةً وانتاجاً ، ليست إلاّ هذا الجمع المتوازن .

وقد لا يكون هذا التقليد الأدبي هو الذي دفع شوقي في هذا السبيل .. قد يكون في واقع حياته ، حياته الداخلية التي لا نعرف عنها إلاّ القليل ، هذا الدافع .. أترام عيَّروا شوقي ذات يوم بنقص زاده اللغوي فأراد هذه

المقالات تمثيلاً لغناء في هذا النحو ؟ .. أتراهم عبّروه بالقصور في النثر فردّ عليهم مقالتهم ؟ .. أكان هنالك من حبّب إلى شوقي السجع فمضى فيه ؟ .. من يدري ؟ ولعلّه على كل حال شهد تطور النثر نحو الانطلاق، ولحظ أن هذا التطور مقرون بالكره للسجع والانحراف عنه والعيب عليه فأراد أن يعيد لهذا اللون الأدبي ألقه، وأن يردّ عليه حرمته، وأن يحمل منه هذه القصائد المنثورة، وأن يخرج به عن نطاقه التقليدي وعن موضوعاته التقليدية في المقامات أو ما في حكمها. فوسّع ساحته، ونوّع موضوعاته، وأراد أن يتسع لكل هواتف النفس، وأصوات المجتمع، ومشاكل العصر.

ويبدو أن هذا هو الذي كان .. فقد كتب شوقي نفسه في «أسواق الذهب» يكشف عن صنيعه، ويبرره، ويعرض لهذا السجع الذي صبّ فيه بعض انتاجه الأدبي، ويبين عن مكانته وقيمته، ويقول عنه إنه يقف على الطرف الآخر من الشعر ليلتقي به لقاء لونين فنّيين متماثلين «السجع شعر العربية الثاني».

وفي هذه القطعة التي كتبها شوقي نلمح قصة السجع في العصر الحاضر كلها. كيف كان، وكيف دال، وما الذي رُمي به .. ولكنها قصة موجزة مركزة وقف شوقي عند خطوطها الكبرى .. أبان عن مكانة السجع، ثم تحدث عن دوره في الأدب، ثم بدأ يصور إنكار الناس في عصره له ويقول ان مردّ ذلك إلى الخلط بين السجع المشرق والسجع المظلم، بين ما سمّاه الجيل المتفرد وما سماه القبيح المرذول .. وهو على كل حال يريد أن يكون السجع منطوياً على فكرة، متصلاً برأي، بعيداً عن الحشو والثرثرة :

« السجع شعر العربية الثاني ، وقواف مرنة ريّضة خصت بها الفصحى ، يستريح اليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله .... وقد ظلم العربية رجال قبّحوا السجع وعدّوه عيباً فيها ، وخلطوا الجيل المتفرد بالقبيح المرذول منه يوضع عنواناً لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشواً في رسائل السياسة ، أو ثرثرة في المقالات العلمية ..... »

ونلمح في تبرير شوقي للسجع شيئين اثنين أساسيّين ربما كان فيهما بعض التعبير عن الدافع التي حدت به إلى اصطناعه والأخذ به ، وهما الحفاظ الديني والحفاظ اللغوي ... إنه يرى ان القرآن الكريم لجأ الى هذه الفواصل (١) وما كان أحلاها ، وفي الحديث الشريف من هذا اللون مثل ما في سجع الحمام من حلاوة ، وفي كلام السلف الصالح منه المأثور الخالد ، فما ينفع الناشئة أن تتخلّى عنه أو تتنكر له : « فيانشء العربية » ان لغتكم لسرية مثرية ، ولن يضيرها عائب يتنكر حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام في الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح » .

الموضوعات

لم تكن الموعظة والزهد الغرض الأساسي عند شوقي ، ولم تكن الحكمة والمثل كذلك من هذه الاُول وان أشار اليها وأشاد بها في مقدمة الأسواق « الحمد لله الذي علّم بالقلم ، وألهم نوابغ الكلم ، وجعل الأمثال والحكم ، أحسن آداب الأمم » على كثرة ما تقع له الحكمة .. وواضح

(١) كان شوقي شديد الدقة شديد البراعة حين استعمل هذا التعبير في مقطوعة عنوانها : السجع .. لم يشأ أن يسمي ما في القرآن سجعاً ارتفاعاً به عن أسلوب البشر من نحو ، وتنزيهاً له عما نزه عنه نفسه حين اتهم بأنه قول كهان . .

أن شوقي لم يقصد كذلك الى موضوع واحد - أو موضوعات متقاربة - يمثله أو يعبّر عنه عدد من الشخصيات على مثال ما أنشأ بديع الزمان والحريري في القرن الرابع والخامس والموبلحي واليازجي في العصر الحاضر مقاماتهم .. وإنما نوّع شوقي بين موضوعاته تنويعاً كبيراً ، وكان في أسواق الذهب ، مثله في الشوقيات ، يتراوح بين الموضوعات الذاتية والموضوعات الاجتماعية في ألوانها المختلفة .. ويطالعُ الإنسانَ في كتابه صورٌ من المدّعي العمومي إلى حديث عن الزهرة ، ووصف للشمس وحديث عن الطلاق ، ووقفة طويلة عند الحياة ووقفة قصيرة عند الموت .. إن آفاق شوقي في الأسواق من التنوّع ومن الامتداد في هذه الوجهة أو تلك بحيث تدفعنا الى القول بأنه لم يكن يقصد إلى الإنشاء من حيث هو إنشاء بقدر ما كان يقصد إلى التعبير عما حوله وعما في نفسه .

ARCHIVE

على أن هذه الموضوعات لم ترتب وفاق شكل معين ، فلم تفرد الموضوعات ذات الصبغة المعينة في قسم خاص وانما جاءت ، شأنها في ذلك شأن الشوقيات ، متداخلة متعاقبة .

وليست هذه الموضوعات جديدة كلها ، وليست كذلك قديمة كلها .. بعضها من هذه الموضوعات الانسانية المشتركة التي لا يفنى فيها القول ، وبعضها من هذه الموضوعات الطارئة التي توحي بها الساعة وإن كان شوقي ، على ما نعرف من أمره في الشعر ، أقدر الناس على أن يستخلص من الحادثة الطارئة المعنى الثابت ، وأن يعتصر من البارقة الخاطفة الضوء المديد .

وقد وفق شوقي في تجديد موضوعاته النثرية توفيقاً بارعاً ... تجاوز النطاق التقليدي أو الذي آل أن يكون تقليدياً في اختيار الموضوع ، فاستمدّ موضوعاته من كلّ ما حوله : من الدين ، ومن المجتمع ، ومن

السياسة ، ومن صراع الفكر ، ومن هذه القضايا التي كانت تثيرها روح العصر ... فتحدث عن الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج ، وعن العدل والظلم وشاهد الزور ، وشهادة الدراسة وشهادة الحياة ، وعن الأهرام والبحر المتوسط والجندي المجهول ، وعن الظبي والأسد والشمس ، وأشار الى الوطن والوطنية ، والاشتراكية والشيوعية ، والحرية والاستقلال .

ولكن يجب ان نستدرك .. فشوقي حين طرق هذه الأشياء كلها إنما طرقها ليصنع منها عملاً فنياً لا ليعالجها أو يشرحها ... إن بناء الأثر الفني هو الذي كان يستبد بكل قواه ، ومن هنا مصدر أكبر الفرق بينه وبين الذين عاصروه من الناثرين المرسلين .

العناصر

ARCHIVE

واذا كانت موضوعات شوقي في هذا التنوع فما هي العناصر التي كانت تدخل في تركيب مقالات شوقي وفي إقامة بنائها .

العنصر التاريخي :

نستطيع أن نلمح بوضوح أن ثقافة شوقي التاريخية تؤلف عنصراً أساسياً في تكوين موضوعاته .. بل ان هذه الثقافة التاريخية هي التي كانت تبيح لبعض مقالاته أن يطول ... وحيث يكون التاريخ يمتد نفس شوقي ، كأن التاريخ نبعة يرتوي منها ويتزوّد ما وسعه الارتواء والتزود .

ونحن نظفر بهذا العنصر التاريخي في شكلين :

أحدهما هذا الشكل الاستعراضي الذي يمضي فيه شوقي مع مراحل الزمن ، كما فعل في قطعة القناة وفي الجندي المجهول إذ ينشئ المشاهد ويعرض الصور . والآخر هذا الشكل الموجز الذي يكتفي فيه ببعض الأقباس فيذكر بعض

الأشخاص أو بلدت إلى بعض الأمكنة ، أو يلقي بعض الأسماء ، ليكون لهذه الأسماء والأمكنة والأشخاص دور الإيحاء والإثارة .

وهذا الاحتفاء بالعنصر التاريخي في نثر شوقي ليس بدعاً جديداً .. فنحن إذا كنا نراه أو نلمحه في نثر شوقي فقد لمحناه كذلك من قبل في شعره . إنه ركيزة أساسية من ركائز العمل الفني عند شوقي الشاعر وشوقي الناثر .

العنصر اللغوي :

إفراغ الأثر الفني في قالب السجع يقتضي بطبيعته مادة لغوية ثرة .. ونحن لا نستطيع أن نتصور نثراً مسجوعاً لا يكون لغزارة اللغة ووفرة مفرداتها نصيب كبير فيه .

واذا كان هذا صحيحاً فنحن لا نحتاج أن نقف وقفة طويلة عند هذا العنصر الذي يدخل في عمل شوقي النثري .. غير اننا لا نملك السكوت عن ملاحظة أن شوقي استطاع أن يجاري الفحول في استخدام المادة اللغوية واستثمارها .. ان مقالاته في أسواق الذهب كشفت عن مقدرته اللغوية البارعة .. واذا كان هذا شيئاً طبيعياً من أمثال الحريري وبديع الزمان والزمخشري واليازجي من الذين نشأوا في رحاب المعاجم العربية واتصلوا بالثقافة اللغوية اتصالاً مستمراً دائباً ـ فإنه من الأمر الخارق الذي يلفت النظر حقاً أن استطاع شوقي ـ وبيئته هي بيئته التي تتمازج فيها العناصر الأعجمية وتتغلب فيها اللغات الاجنبية : التركية والفرنسية ـ أن يستعلي على هذه البيئة من نحو وأن يمسك بزمام اللغة العربية وأن يسخرها كيف يشاء ، فتلين له بين يديه وتطاوعه في نثره في انطلاق واستساغة وشيء من عفوية كثير ، وأن يضرب في هذه اللغة يطلب ما يقتضيه السجع فلا يفوته اللفظ وانما يسلس له كما يريده في نطاق الصنيع الفني الذي أخذ نفسه به .

إنه ليس شيئاً عادياً أن يمتلك شوقي كل هذه القدرة اللغوية التي دل عليها نثره بأكثر مما دل عليها شعره نتيجة لتتبعه الشخصي ومطالعاته الخاصة وحسه المرهف، دون أن يكون واحداً من الذين نشأوا في رحاب الأزهر أو درسوا على أساتذته أو كانوا قريبين من معاقل الفصحى .

العنصر التأملي :

وتأملات شوقي عنصر ثالث من عناصر مقالاته .. واذا كان بعض هذه المقالات كما يقول هو «من شؤون المجتمع وأحواله، وصفات الانسان وأفعاله، أو ماله علاقة بأشياء الزمن ورجاله – ص ٤» فان بعضها كذلك كما يقول «قد نبع من القلب وهو عند استجمام عفوه، وطلع في الذهن وهو عند تمام صحوه وصفوه» .

وليس معنى هذا العنصر التأملي في بعض هذه المقالات أنها تتجرد عن الدافع الاجتماعي او الباعث النفسي، فما إلى ذلك قصدت، وإنما أردت أن حظها من التأمل الفكري واستملائه أكثر من حظها من مشاهدة الواقع واستمداده .. إن الكثرة الكاثرة من مقالات الزمخشري تعود إلى هذا التأمل، ولكن بعضها كالحديث عن الوطن مرد التأمل فيه الى باعث نفسي، وبعضها يعود إلى دافع من الحياة .. ومقالات شوقي يرجع بعضها إلى هذا العنصر التأملي كما في حديثه عن البيان، والسان، والمال، والحياة، والموت وما إلى ذلك .

العنصر الواقعي :

ومع ذلك فان الجانب الأكبر من مقالات شوقي يرتد، في أصله الذي نجم عنه أو في تفاصيله التي ينشعب فيها، إلى هذا العنصر الواقعي من حياة الشاعر أو مما يشاهد في مجتمعه، مما يفرح به أو يشكو منه، مما ينكره أو مما يتمناه .. ولو رحنا نستقصي هذا العنصر من مواضيع شوقي لطال بنا الطريق، ذلك أنك

نجده في أكثر المقالات .. وقد يكون هو الذي يولّد بعض معانيه أو يلوّن الحديث عنه .. ففي قطعته عن «الجندي المجهول» نستطيع أن نلمح بوضوح كيف انعكس بعض العنصر الواقعي في حياة شوقي أو مجتمعه على هذه القطعة فولد فيها بعض معانيها .. إن شوقي يشهد كيف يسير الناس في الجنائز، ويتالون وهم يشيّعون الأموات، من الأموات والأحياء على السواء، ويلغون في الأعراض والحرمات وهم يرون عاقبة الحياة .. إن هذه الصورة الاجتماعية المنفرة ولدت عند شوقي في حديثه عن الجندي المجهول هذه الفكرة: (... إلا هذا الجندي المجهول، فقد خلت جنازته من الهامس والهامز، والغامط والغامز، فقل لمن لم يعرفه الناس: طوبى لك، ما أنعم بالك، وما أنقى كفنك وسربالك ـ ص ٢٤).

وشوقي كذلك يشهد في مجتمعه كيف يكون تجنّي الشيع والأحزاب، وكيف يتسلع غير ذي مجد بأذيال ذوي المجد، وكيف يحاول الفاشلون من الأبناء أن يستغلوا سمعة آبائهم .. فاذا ذلك كله ينعكس كذلك في مقالاته ويولّد عنده هذا المعنى الذي صاغه في الجمل التالية: (.. ذهب رحمه الله لا عن ولد يرمينا بجنادل أبيه، ولا أخ يسحب علينا أكفان أخيه، وكفانا تجني الشيعة، وإدلال الصنيعة، وكلّ حرباء يتسلق الناس شجراً إلى الشمس، يعبدها على مناكبهم من المهد إلى الرمس ـ ص ٢٥».

الأسلوب

حين نتحدث عن الآثار الفنية التي أنشئت في قالب السجع يغلب على أذهاننا معنيان اثنان: أحدهما هذه المحسنات البديعية المختلفة التي تواكب السجع من مثل الجناس والطباق والتورية ومراعاة النظير وما إلى ذلك .. والآخر هذا الفقر المعنوي الذي نلمحه في كثير من الآثار المسجوعة، وهذا التغليب لجانب

اللفظي الذي يخرج الأثر الفني عن هدفه الأول الى شيء من الثرثرة أو الحشو كما عبر عن ذلك شوقي نفسه .

أفنجد مثل هذا عند شوقي حين نقرأ أسواق الذهب ؟ وهل استطاع أن يتجنب العيوب التي رمي بها السجع أو التي أضفيت عليه ؟ وما بلغ من أمره في هذا السبيل ؟

من الحق أن ننبه قبل كل شيء إلى أن شوقي استطاع أن ينجو مما سماه الثرثرة ، وارتفع بأثره الأدبي عن مستوى الآثار المسجوعة التي سيطرت في بعض فترات الانحطاط .. وبوجه خاص استطاع أن يسوّد المعنى ، وأن لا يغمط الفكرة ، وأن يجعل نقطة انطلاقه التعبير عما في نفسه ، لا مجرّد التعبير ... إن كثيرين من الذين كتبوا سجعاً لم تكن تعيش في أذهانهم فكرة معينة ، وإنما كانت تعيش في ذاكرتهم ثروة لغوية خصبة تفيض لهم هذا السجع وما يتصل به من محسنات .. فلما أرادوا لهذه الثروة اللغوية أن تبدو ، ولهذه القدرة أن تتضح للناس ، أخذوا ينشئون .. بمعنى أن الدافع الأول – أغلب الظن – كان يكمن في الرغبة في استعمال هذه الثروة والإبانة عنها ، وكان يتمثل بعد ذلك في هذا الأثر الأدبي أو ذاك .. إن نقطة الانطلاق كانت في كثير من المرات اللغةَ نفسها .. ولكن شوقي لم يكن كذلك ، فلم تكن الرغبة في الإدلال بقوته اللغوية – فيما يبدو حقاً – مصدر هذا العمل الفني ، وانما كان هنالك فكرة معينة تطيف بذهنه ، أو تأمل يسيطر عليه ، أو انفعال يخامر فؤاده ويغمره ، فاذا هو يعبر عنه هذا التعبير المسجوع ، تماماً كما كان يعبر عن هذه الأشياء بالشعر .

ولكي نؤكد هذه الحقيقة يكفي أن نذكر ما فعله الأصفهاني في أطباق الذهب .. إن مقاماته كانت عرضاً لغناه اللغوي .. ذلك لأننا نعدم عنده الفكرة فأفكاره هي أفكار الزمخشري ، ونعدم عنده الانفعال فانفعاله يأتي طارئاً ،

ياتي متأخراً لا ينبع من ذاته وإنما يأتيه من قراءة الزمخشري عن طريق العدوى ، ولا نكاد نجد عنده إلاّ هذه التوسعة اللغوية ـ إن صحت التسمية ـ لما قاله الزمخشري .

ولعلّ شيئاً من هذا أو هذا كله هو الذي فعله اليازجي في مقاماته « مجمع البحرين » فقد كانت عرضاً لبراعته اللغوية في أكثر المرات ، وفي مقامة كالمقامة اللبنانية مثلاً نجد أنه استعرض الأفعال التي تدل على معاني القطع والأفعال التي تدل على معاني الكسر والفروق الدقيقة بينها ثم نظمها ..

ومعها يكن من أمر فنحن لا نستطيع أن ننفي ـ حتى في الآثار التقليدية الصرفة ـ وجود الفكرة ووجود الانفعال أحياناً .. غير أننا نفرق بين فكرة وفكرة وانفعال وانفعال بالدرجة أولاً والأصالة والتقدم ثانياً .. فالزمخشري أعدى الأصبهاني بانفعاله ، ولكن من المؤكد أن الأصبهاني عانى نوعاً من الانفعال ، هو على الأقل انفعال الرغبة في إنجاز الأثر الفني ، وانفتح له بعض الجديد في المعنى ، هو على الأقل الشرح والتوسعة .. ولكننا في تقويم الأثر الفني لا ننظر الى وجود هذا العنصر أو ذاك وانما نلتفت إلى درجته من نحو كما نلتفت الى أصالته ومكانته من نحو آخر : أكان عنصراً أصيلاً دافعاً أم كان عنصراً ثانوياً لاحقاً ؟ .. أكان له دور الإثارة والتفتيح أم كان له دور التقليد والمتابعة .. ومن هنا نؤكد ما لاحظناه من أن شوقي وضع الرغبة في إنشاء أثر فنيّ بكل ما يحتاج اليه هذا الأثر من فكر وانفعال وصُنع ، قبل أن يضع الرغبة في اظهار البراعة اللغوية .. على حين كانت البراعة اللغوية موَجّهاً أول في بعض الآثار المسجوعة الأخرى .

ومن هنا يصحّ لنا أن نلاحظ أن شوقي كان ينظر بعينيه الى السماء أو الطبيعة أو النفس أو المجتمع ثم ينظر الى المعجم أو ينثال المعجم على لسانه .. أما بعض

الذين سلكوا السجع فقد كانوا ، أغلب الظن ، ينظرون الى المعجم اللغوي ، ولا يتركون لعقولهم وأحلامهم وأهوائهم دورها أن تنهض بمهمتها في انشاء الأثر الفني .

واذن فقد وفق شوقي في انتشال السجع من وهدته التي رُدّي فيها حين بدأ انطلاقه فيه من الفكرة .. ولم تكن الفكرة أو الحادثة أو الشيء الذي يراه بعينيه ليصفه ، مجالاً لتصيّد الألفاظ اللغوية التي يمكن أن تدور في فلك هذه الحادثة أو هذا الموصوف ولكنها كانت لتعبّر عنها ولتتلاءم معها ، لا لتتلاءم مع التعبير الجاهز أو التعبير المجتلب .

ولهذا فنحن نجد أن لمقالات شوقي عناوين : الأسد - الجمال - الذكرى - الأهرام - الطلاق .. ولكننا لا نجد لمقامات الزمخشري عنواناً وبالتالي لا نجد عنواناً كذلك لمقامات الأصفهاني . وفي مقامات الحريري لا يعني العنوان دائماً .. وعناوين « مجمع البحرين » غريبة جداً لأنها مصطنعة اصطناعاً وأضحمّ (المقامة المصرية - الرشيدية - الفراتية - اللبنانية - الحموية) نعي لا تدل على شيء مما وراءها ، ولذلك لما صنعوا فهرس هذه المقامات كتبوا العنوان وكتبوا الى جانبه ما تتضمنه المقامة .. ان العنوان الصحيح يعبر عن الحادثة أو الفكرة التي أراد الكاتب أن يتحدث عنها لا الحادثة المفتعلة التي أراد الكاتب أن يجمع حول نواتها الألفاظ اللغوية المختلفة .

والحق أننا ، في سلسلة الآثار المسجوعة في الأدب العربي ، نستطيع أن نلمح هذه الأنواع المختلفة : آثار تقوم على تغليب اللفظ - وآثار تقوم على تغليب الحادثة - وآثار تقوم على تغليب الفكرة مع رعاية مقام اللفظ .

في الأولى تتضاءل الفكرة وتخفت ، وتبدو من وراء ضباب ، ويسيطر

اللفظ بكل ما يتصل به من جناس وطباق ومراعاة نظير .. كما في بعض مقامات اليازجي .

وفي الثانية تحاول الحادثة أن تخفف من سيطرة اللفظة ولكنها توفق أحياناً في مفاجآتها أو طرافتها شأن بعض مقامات البديع والحريري ، وتفشل أحياناً في رتابتها وتكرار شخوصها وضيق أفقهم وتناولهم التناول الخارجي .

وفي الثالثة تسيطر الفكرة ولكنها لا تحجب جمال اللفظ ، وتبدو الفاصلة وكأنما جاءت لتمكن لما يحس به المنشئ أو للذي يجول في ذهنه .

وأغلب الظن أن سجع شوقي كان من هذا النوع .

. . .

ولم يوفق شوقي في أن ينجو بالسجع من الفقر في الفكرة والتفاهة في المعنى ، وانما وفق كذلك في أن ينجو من سيطرة المحاسن اللفظية التي تواكبه .. ان الطباق والجناس بأنواعها يشغلان حيزاً كبيراً في الآثار الأدبية المسجوعة ، ويقصد اليهما في بعضها قصداً ، ويتولد المعنى الصغير حيناً منهما ، وقد يلفتان الحديث عن مجراه .. وما أكثر ما كانت هذه الأشياء تجتلب اجتلاباً يتضح للقارئ دون ريب أنه اجتلاب مفتعل ...

أما شوقي فالذي تيسر له من ذلك ينبئ عن أنه لم يكن مقصوداً اليه كل القصد وبصورة خاصة ما يسميه البديعيون مراعاة النظير .. وأحسب أن الذي جاء عنده من الطباق والجناس إنما كان أثراً من آثار نشدان السجع نفسه .. فاللفظة المسجوعة تستدعي لفظة أخرى قد لا تشاركها في الحرف الأخير فحسب ، ولكنها تشاركها في أكثر من حرف فيتولد هذا الجناس الناقص .. ولعلنا حين نقرأ مثلاً حديثه عن اليوم « ص ٧٢ » وعن الغد « ص ٧٣ » نجد أبرز القطع التي تتجمع منها هذه العناصر البديعية .

وما نعفي شوقي من قدر من التكلف في اصطناع هـذا البديع اللفظي ، ولكننا ننفي عن سجعه أن يكون قد غرق في المحسنات فضأت به المحسنات عن معناه .. إن وجود هذه المحسنات التي تواكب السجع أمر لا مفر منه عند اصطناع هذا الأسلوب .. ولكن كثرتها وغلبتها هي التي تقيم المخالفة بين أثر وأثر : تجعل من أحدهما أثراً مقبولاً أو محبوباً ، ومن الآخر أثراً ممجوجاً أو مرفوضاً .

ان شوقي أراد من السجع كما قال حلاوة الفواصل وهديل الحمام بأكثر مما أراد إلى القيد والتكلف والالتزام .

. . .

على أن شوقي لم يلتزم هذا السجع دائماً ، ولعل من القريب أن نلاحظ أنه في الأقسام الأخيرة من أسواق الذهب انحرف عن التزام السجع .. بل انه حتى في القطعة التي كتبها للدفاع عن السجع في الأسواق تحرّر من هذا القيد وبدا أشدّ ميلاً إلى الأسلوب المرسل وان كان التزم الازدواج وتوازن الفواصل .

إن هذا الخلل كان بداية طريق جديدة في نثر شوقي .. كان بداية الطريق الى النثر المطلق الذي بدا في أميرة الأندلس .

وكذلك يتضح أن نثر شوقي جرى مع شعره في طريقين متوازيين : كان شوقي أول الأمر شديد الصلة بالقديم وكان نثره شديد الارتباط بالسجع .. فلما مضى شعره في موضوعاته وأساليبه حرّاً خالصاً من قيود القصر ، انطلق كذلك نثره حرّاً خالصاً في أميرة الأندلس .

ومهما يكن من تقديرنا لهذا النثر فلسنا نملك أن نقول الذي قاله الأستاذ المرحوم شكيب أرسلان من أن نثر شوقي قتل شعره أو فتك به فلبس سيف

الحياة الأدبية هذا . . لكنا نميل إلى القول ان آلة الشعر التي قامت عن ميامنه «كما قال الشيخ بشارة الخوري في رثائه» قد استبدت به فلم تترك لربات النثر التي قامت عن مياسره أن تستقل بهذا الشاعر الملهم . . شدته الى موسيقاها ، موسيقى الخليـل ، فلما تغاضت عنه بعض الأحيان شدّه النثر الى أساليبه وفواصله .

ان نثر شوقي في مثل منزلة الشعر . . بل انه شعر اذا نحن التزمنا تعبيره . . إنه شعره الثاني[1] .

الدكتور شكري فيصل
أستاذ الأدب العربي بجامعة دمشق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) يرجو صاحب البحث كل الذين يملكون بعض النصوص او الرسائل من نثر شوقي ، مما لم يطبع ، أن يتفضلوا بهدايته اليها أو اطلاعه عليها .

معجم المصطلحات الطبية

الكثير اللغات

للدكتور ا ٠ ل ٠ كليرفيل

نقله الى العربية الأساتذة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط

ومحمد صلاح الدين الكواكبي

(لجنة المصطلحات الطبية في كلية الطب من الجامعة السورية)

— ١ —

لا تزال كلية الطب في الجامعة السورية هي المدرسة الطبية الوحيدة التي تدرّس الطب باللغة العربية في العالم العربي قاطبةً ، وإن سبقتها في هذا المضمار ، لمدة قصيرة من الزمن ، مدرستا القصر العيني في مصر والجامعة الأميركية في بيروت ٠ فقد بدئ بتدريس الطب بالعربية في دمشق منذ اعادة افتتاح مدرسة الطب فيها (٢٤ من كانون الثاني سنة ١٩١٩) [١] بعد اتخاذ لغة الضاد لغة التعليم في تلك المدرسة ٠

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) لقد تم في التاريخ المذكور إعادة افتتاح مدرسة الطب باسم المدرسة الطبية العربية تخلفت مدرسة الطب العثمانية التي يعود تأسيسها الى سنة ١٩٠٣ ، والتي كانت التركية لغة التدريس فيها ، وكان معظم أساتذتها من الأتراك عدا أستاذين كانا من أبناء البلاد العربية أحدهما المرحوم الأستاذ ميشيل شامندي الذي عُهد اليه بتدريس الطب الشرعي ومفردات الطب وفن المداواة . وكان بين مساعدي الأساتذة الأتراك عدد غير قليل من أبناء سورية ، خلفوا أساتذتهم في التدريس في المدرسة الجديدة . ثم بُدل اسم المدرسة الطبية العربية فصار اسمها المعهد الطبي العربي ، وبدل مرة أخرى فأصبح كلية الطب .

ويعود فضل التدريس بالعربيــة الى أولئك الأساتيذ الذين وسدت اليهم كراسي التدريس (ومعظمهم ممن تخرج من إحدى مدرستي الطب العثمانيتين في دمشق أو في اسطنبول) . وكانت دراستهم بالتركية قد مهدت أمامهم السبيل الى التدريس بالعربية ، لأن المصطلحات الطبية في اللغة التركية معظمها عربية . وليس من الصعب رد الألفاظ التي شوهتها أو حرفتها الصياغة التركية الى وضعها العربي الصحيح ، وانبرى ثلاثة من أساتيذ مدرسة الطب الى ايجاد المصطلحات الطبية العربية ، والى ارشاد زملائهم الى الألفاظ الصحيحة ، فكان لهم القدح المعلى في هذا المضمار ، وهم الأساتيذ مرشد خاطر (وهو ممن درس الطب بالفرنسية ، وتخرج من الجامعة اليسوعية في بيروت) ، وأحمد حمدي الخياط ، والمرحوم جميل الخاني . فهؤلاء الثلاثة يعدون رجال الطليعة في هذا الميدان [1] ، يضاف اليهم الأستاذ عبد الوهاب القنواتي الذي أخذ على عاتقه وضع المصطلحات الكيمياوية . واستعان بقية الزملاء بخبرة أولئك فكانوا جميعاً المرجع الأول ، وتلا هذه الطبقة رجال الطبقتين الثانية والثالثة ، وكل منهم جهد في رفع شأن اللغة وايجاد المصطلحات في الفرع الذي اضطلع بأعباء التدريس فيه . ويُعد الأستاذ محمد صلاح الدين الكواكبي (وهو من رجال الطبقة الثانية) من المجلين في هذه الحلبة ، إذ ما كاد ينهي دراسته ، ويجوز شهادة الصيدلة حتى رأينا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) هذا وإن الأمانة لتقضي بأن ننوه بفضل المرحوم الدكتور حكمة المرادي الذي انبرى الى كتابة سلسلة من المقالات نشرها في مجلة (الصحة العمومية) الأسبوعية التي كانت تصدرها رئاسة ادارة الصحة في دمشق ، مقترحــاً قبول عشرات من المصطلحات الطبية العربية مقابل المصطلحات الفرنسية ، وقد استعمل معظمها أساتيذ كلية الطب كالخَـزَب والقُلاب والملاوب والأسر والسلى والنقي والوتين والمشاش والحاصّة والهيضة والشرى وانتشار الحدقة والزحير والزحار والذبحة والخناق والقلاع والسلعة والرعن والعقي والسابياء والشدَح والداغصة والخلب والإبقار (عن العملية القيصرية) والكظار والإباء (عن فقد الشهوة) والدوار وارفاء الدم والسادة والمراق وغيرها .

له المقالات المتتابعة في مجلة المعهد الطبي العربي [1] ثم رأيناه يشرع في وضع كتابه الذي سماه «مصطلحات علمية» ، وقد أعاد طبعه خمس مرات على ما أعلم .

هذا وإن الأمانة تقضي أيضاً بأن لا نغمط حق أولئك العلماء والرواد الأول من أساتيذ القصر العيني عندما كانت العربية لغة التدريس في الطب ، ولا أولئك المؤلفين الأجلاء الذين درّسوا الطب بالعربية في الجامعة الأميركية في بيروت [2] .

وأنشئ في مصر سنة ١٩٣٢ مجمع اللغة العربية الملكي ، وصار اسمه بعد الثورة مجمع اللغة العربية ، وأنيط باحدى لجانه النظر في المصطلحات العلمية

(١) لم تعمر مجلة الصحة العمومية الأسبوعية التي ألمتُ اليها طويلاً ، إذ لم يصدر منها سوى ٢٦ عدداً ، وكل عدد منها ثماني صفحات ، ثم جعل العدد الواحد ست عشرة صفحة بعد أن تولى رئاسة تحريرها الأستاذ مرشد خاطر . وصدرت بعدئذ في أول سنة ١٩٢٤ مجلة طبية شهرية هي مجلة المعهد الطبي العربي ، باشراف الأستاذ خاطر وانقطعت عن الصدور بعد سنة ١٩٣٦ ، وكانت هذه المجلة نبراساً يهتدى به ، وميداناً فسيحاً تتبارى فيه أقلام القرويين والأطباء من سورية ولبنان والعراق ، سواء في المصطلحات الطبية أو في الموضوعات الطبية العالية والمستحدثات المستجدة في بلاد الغرب .

(٢) لم يتح لكاتب هذه السطور الاطلاع على ما ألفه هؤلاء ولا أولئك ، الا أنني أجلت الطرف مَعرَضاً في أحد الكتب التي وجدتها في خزانة كتبي ، وهو المعروف بالمصباح الوضاح في صناعة الجراح من تأليف وترجمة الدكتور جورج بوست أستاذ الجراحة في المدرسة الكلية في بيروت وقد طبع سنة ١٨٧٣ ، فوجدت لغته صحيحة لا غبار عليها . وقد سبقنا في استعمال الكثير من المصطلحات الطبية كآكلة الفم والآمة والأدرد والأدرة والارتشاح والتأمور والأستسقاء وأسر البول والإطراق والملتحمة والرغامي وبُرَحاء والتلقيح وتلين الدماغ والجمرة والجهر والحسر وحمى الدق والخَشَم والشبذ والسبات والسعفة والسلاق والشترة والعقبولة والعَمَش والفَحَج والفَدَع والفرقعة والفَكَم والفَلَج والثآليل والقدم الرجاء والقفداء والقدعاء والوكاء والرحاء والأبلة المائية والكمنة واليرقان والنسيج الخلوي والوترة والوكع وغيرها .

ومن بينها المصطلحات الطبية لعرضها على مجلس المجمع واقرارها ، فأقر المجمع جملة قرارات تناولت الطريقة الواجب اتباعها في وضع المصطلحات العلمية مما لا يتسع المجال لسرده .

وقد شرع المجمع في وضع المصطلحات في بادئ الأمر وفق الأسس التي أقرّها دون أن يلتفت الى ما فعله أساتيذ كلية الطب في دمشق . وثابر هؤلاء أيضاً على الطريقة التي اختطوها لأنفسهم (ولا أقول اختطها كل منهم لنفسه) دون أن يكون هنالك ما يجمع أو يوحد بين جهود الطرفين . وبدت بوادر التقارب مؤخراً فرأينا بعض لجان المجمع تنظر بعين الاعتبار الى ما سبق لأساتيذ كلية الطب وضعه وإدخاله في صميم لغة الطب المتداولة في سورية وفي معظم البلاد العربية درساً واستعمالاً . ومع ذلك لا يزال ثمة خلاف بيّن لا بين الفريقين المذكورين فحسب ، بل بين أساتيذ كلية الطب أنفسهم ، فنرى للفظ الفرنجي الواحد بضع كلمات عربية بين معرّب ومشتق ومنحوت . وكل واحد من واضعي تلك الكلمات أو من المنتصرين لها يتشبث برأيه ولا يحيد عنه قيد أنملة .

واستبشر خيراً كل من يهمه الأمر عندما طرق مسمعه أن لجنة من خيرة أساتيذ كلية الطب وأطولهم باعاً في وضع المصطلحات الطبية قد تألفت وأخذت على عاتقها مهمة وضع معجم شامل يهدف الى توحيد المصطلحات ، ويكون مرجعاً يعتمد عليه ، وها هو قد صدر المعجم فهل تحققت به الآمال ؟ .

إنه لسفر ضخم عدد صفحاته تقارب الألف ، وقد طبع طبعاً متقناً في مطبعة الجامعة السورية . وهو منقول الى العربية عن معجم ا . ل . كليرفيل الكثير اللغات (فرنسي انكليزي ألماني لاتيني) ، فتكون العربية اللغة الخامسة فيه . والترجمة كانت عن طبعته الثانية التي صدرت سنة ١٩٥٣ ، ورقمت كلماته بأرقام متسلسلة فكان لكل كلمة عربية رقم مماثل لرقم الكلمة الفرنسية ، وقد بلغ مجموع الكلمات ١٤٥٣٤ كلمة .

إن إقدام الأساتذة خاطر والخياط والكواكبي على هذا العمل الجليل ، وما أدوه في تحقيقه من خدمة لأبناء الضاد عامةً وللطب والأطباء خاصةً سيسجل لهم بمداد الفخر والإجلال . وليسمح الزملاء الأكارم بعد هذا بأن أبدي ملاحظاتي عليه :

١ — المعجم الأصلي المترجَم :

لا يعد هـذا المعجم كاملاً من حيث عدد مفرداته . فاذا ما قيس بالمعاجم الطبية الأخرى كمعجم (Blakiston's) مثلاً نجد أن الطبعة الثانية من هذا المعجم الأخير (وقد صدرت سنة ١٩٥٦) قد زادت على الطبعة الأولى بمقدار ١٢٠٠٠ لفظة ، ونجد أنه جرى فيها تبديل ٨٠٠٠ لفظة من ألفاظ الطبعة الأولى . فأين هذا من معجمنا الذي بلغ مجموع مفرداته ١٤٥٣٤ لفظة فقط . ولاحظ كاتب هذه السطور وهو يطالع في الصيف الماضي كتابين صدرا حديثاً أحدهما انكليزي وهو (The Person Behind the Disease) أي الشخص وراء المرض لمؤلفه (J. Bauer) ، وآخر فرنسي وهو (La douleur et les douleurs) أي الألم والآلام لمؤلفه الأستاذ (Alajouanine) أن عشرات إن لم أقل مئات من الألفاظ الجديدة خلا منها معجمنا الطبي .

٢ — ترتيب المعجم :

لقد جعلت اللجنــة ترتيب المعجم ـ وهو على الحروف الفرنسية ـ من اليمين الى اليسار على غرار ما يكون في المعجمات العربية . والأفضل أن يكون الترتيب من اليسار الى اليمن تسهيلاً للبحث عن اللفظة الفرنجية ، وهو ما درج عليه زميلنا الفاضل الأمير مصطفى الشهابي في معجم الألفاظ الزراعيــة ، ووددت أيضاً لو نسجت اللجنة على منوال هذا المعجم الزراعي الكبير باثبات الألفاظ العربية ، مرتبةً على الحروف الهجائية العربية ، في صفحات ملحَقة بالمعجم . وهو عمل سهل ما دام

يوجد لكل لفظة من الألفاظ رقم خاص يمكن رسمه في جانب اللفظ العربي ، فيدل على اللفظ الفرنسي الذي يقابله ، وتصبح فائدة المعجم بذلك مضاعفة . وهذا ما درج عليه مؤلف المعجم الأصلي في الألفاظ اللاتينية .

٣ — الأسلوب المتبع :

لقد ذكرت اللجنة في المقدمة الأسلوب الذى اتبعته ، فقالت إنها تحرى المعنى الصحيح لكل كلة من كلمات المعجم بانتقاء الكلمة العربية الصريحة ، من ترجمة سابقة صحيحة ، أو وضع ترجمة صحيحة عند فقد تلك ، مستعينةً ببعض طرق الاشتقاق المقررة لأسماء الآلات والأمكنة . وإن كانت الكلمة مصدراً لعمل ترجمتها بالفعل الماضي لذلك الفعل ؛ ودرجت على اتخاذ وزن فَعَل للدلالة على المرض (كفَيَل ورقَص لداء الفيل وداء الرقص) ؛ وخصصت وزن استفعال بالكلمات التي يقصد منها الامتشاء (كالاستلقاح) ، ووزن فَعُول وفَعُولة ترجمةً للكلمات المنتهية بالكاسعة (Able) و (Abilité) ، ووزن فُعَال للداء في حشو[1] أو عضو ككُباد وعُصاب وقُلاب وما الى ذلك ، وقالت اللجنة إنها تضع كلة أقرب ما تكون من معناها الصحيح لكل كلة لم تهتد الى ترجمة صحيحة لها كالمحة والفوعة ، وإنهـا لم تعمد الى التعريب الا فيما ندر ، وكذلك الاشتقاق من تلك المعرَّبات ، وإنها اضطرت الى النحت في بعض الكلمات لحاجة الملحة اليه عنـد استعمال النسبة والإضافة الى تلك الكلمات كالكريراء منحوتةً من الكرية الحمراء وجمعها كريراوات ، ومثل كريضة للكرية البيضاء وجمعها كريضات أو كريضاوات . واستدركت اللجنة بعد

(١) كذا ورد في المقدمة ولا أظنه إلا غلطاً مطبعياً لم يُنتبه الى تصويبه . وهو حشى أو حشا . فقد جاء في لسان العرب الحشو البطن لأنه تحشى به الكُرُش وغيرها ، والحشى ما دون الحجاب مما في البطن كله من الكبد والطحال الخ .

ذلك بقولها وكثيراً ما لجأنا الى وضع هذه الكلمات المنحوتة مرادفة للكلمات قبل نحتها ، تاركين الخيار فيها للباحث ، حتى اذا ما استأنس بها أخذ باستعمالها . وتركت اللجنة أكثر الأسماء والمصطلحات الكيمياوية على حالها غالباً ، كما أنها حرصت في أكثر ما أثبتته من كلمات عربية على شكلها على أصح وجوهها بحسب ما عثرت عليه في كتب اللغة الموثوق بها .

إلا أن عمل اللجنة الذي هو حريٌ بكل تقدير واعجاب يعوزه بعض الانسجام في انتقاء المصطلحات بعيداً عن التمسك بالآراء الفردية السابقة . فلكل من الأساتيذ الثلاثة طريقته في النقل ، وله ألفاظه الخاصة في المصطلحات العلمية أو الطبية ، منها ما نُشر على حدة وأعيد طبعه مرات (الكواكبي) ، ومنها ما نُشر على حدة نقلاً عما جاء في آخر مصنفات المؤلف (الخياط) ، ومنهـا ما أُثبت في احدى مجلدات مجلة المعهد الطبي العربي ، أو استعمله المؤلف في مقالاته الضافية في المجلة المذكورة أو في مؤلفاته العديدة (خاطر) . وكان ثمة خلاف على بعض تلك المصطلحات . فهل سُوي الخلاف عليها ، وهل وُحدت طرائق النقل المختلفة ، وصُهرت في هذا المعجم المشترك الجديد ؟

إن ما يظهر لمتصفح كلمات المعجم أن كلاً من الأساتيذ الثلاثة قد التزم نهجه القديم الذي درج عليه فجاء المعجم جامعاً لطريقة كل منهم لا موحداً لها . وعلى ذلك يلمح القارىء التمسك بالنحت في كلمات هي في غنى عنه ، ويرى كلمات قد اجتنبت على حين أنها أصلح من سواها ، ويجد كلمات لم يسبق لغير واضعها أن استعملها ، ولم يجاره في استعمالها أحد من زميليه ولا من غيرهما . وكذلك يلمح الإصرار على اثبات كلمات لا تفي بالمعنى المترجم ، لأن واضعها سبق له أن استعملها . وها كم بعض الأمثلة : لقد جاء في مقدمة المعجم ، كما تكرر في متنه ، استعمال كُرَيرات ، وكُرَيضات (منحوتتين من كُرَيّات حمر وكريات بيض) في صيغة الجمع ، وكُرَيرة

وكُرَيضة في صيغة المفرد ، أولسنا في غنى عن أمثال هذه الكلمات المستحدثة لنستبدل بها كلمات لم تعد مجهولة لأحد ، وإن أجازت اللجنة عدها مرادفة للكلمات الدارجة تاركةً للطالب الخيار باستعمال احداها ؟ [١] ومع هذا فقد تجاوزت اللجنة عن النحت في ترجمة بعض المصطلحات الفرنسية المنحوتة ، مؤثرةً ترجمتها بكلمتين غير قصيرتين ، ومن ذلك مثلاً أسماء بعض الجراثيم كالمكورات العقدية (Streptocoques) والمكورات العنقودية (Staphylocoques) وغيرها .

وعودنا الأستاذ خاطر في كتبه العديدة التي نشرها أن يستعمل كلمة العفونة في ترجمة (Infection) ؛ فاذا باللجنة تقر كلمة خَمَج [٢] عوضاً عنها ، ومشتقة منها كلمات مخمج ومخموج وانخماج . وعفونة كلمة شائعة وصحيحة وردت في كتب الطب العربية القديمة منها قانون ابن سينا عند بحثه عن حميات العفونة ، ومنها كامل الصناعة للمجوسي [٣] في ذكره الحميات العفنية (دلائل الحميات

(١) سبق لكاتب هذه السطور أن أبدى ملاحظاته على النحت في تقريظه كتاب علم السموم للأستاذ الكواكبي (الجزء الثاني من المجلد الثلاثين من مجلة المجمع العلمي العربي ص ٣٢٠) .

(٢) في اللسان الخَمَج بفتح الميم الفتور من مَرَض أو تعب ، يمانية . وأصبح فلان خَمِجاً وخميجاً أي فاتراً ، الى أن قال : وخَمِج اللحم يخمَج خمجاً أروح وأنتن . وفي اللسان أيضاً عَفِن الشيءُ يعفَن عَفَناً وعفونة ، فهو عَفِن بيِّن العُفونة ، وتعفّن : فَسَد من نُدُوّة وغيرها فتفتت عند مسه .

(٣) وهو علي بن العباس المجوسي من الأهواز . وكان طبيباً مجيداً متميزاً في صناعة الطب ، وهو الذي صنف الكتاب المشهور بالملكي ، صنفه للملك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي حسن بن بويه الديلمي . وهو كتاب جليل يشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها (طبقات الأطباء) .
وفي أخبار الحكماء : علي بن العباس المجوسي طبيب فاضل كامل فارسي الأصل يعرف بابن المجوسي ، قرأ على شيخ فارسي يعرف بابن ماهر ، وطالع هو واجتهد لنفسه ، ووقف على تصانيف المتقدمين ، وصنف للملك عضد الدولة فناخسرو بن بويه كناشه المسمى بالملكي ، وهو كتاب جليل وكناش نبيل اشتمل على علم الطب وعمله حسن الترتيب مال الناس اليه في وقته ولزموا درسه الى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا فمالوا اليه وتركوا الملكي بعض الترك . والملكي في العمل أبلغ ، والقانون في العلم أثبت .

العفنية وأسبابها وعلاجاتها)[١] . وذكر في مكان آخر حمى العفونة وحمى العفن . أقول هذا وإن اختلف مدلول مصطلح زمننا هذا عنه لدى القدماء . وقد درج كاتب هذه السطور على استعمال كلمة انتان وان كانت دون كلمة عفونة . وهي لم يستعملها قدماء العرب ، إلا أن مدلولها في المعجمات لا يكاد يختلف كثيراً عن (الخمج) وهي أسهل لفظاً وأخف وقعاً في السمع وكانت شائعة في العهد العثماني . وأظنها الآن أكثر رواجاً لهذا المعنى من الكلمات الأخرى . ولم يتح لكلمة خمج ـ وقد استعملها الأستاذ خياط منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ـ أن تجتاز امتحان الزمن . وقل من تداولها من تلاميذه . وطغت عليها كل من الكلمتين السالفتين ، ولا أدري هل يكتب لها البقاء بعد أن أثبتها معجم المصطلحات الطبية أم لا ؟

وعندي أنه لا يصح الاعتماد على كتب اللغة وحدها في انتقاء الألفاظ العلمية ، ولا أن ننبش منها ما دُفن من ألفاظ ميتة لا يستسيغها عصرنا الحاضر ، أو يكون لها معان مبهمة أو متضادة ، أو تكون معرفة تعريفاً غير علمي الخ . وقد نبه زميلنا الفاضل الأمير مصطفى الشهابي الى ما تحويه معجمات اللغة الشهيرة من عيوب وأغلاط[٢] في الناحية العلمية ، كما أتى المرحوم الدكتور أحمد أمين[٣] على ذكر بعض هذه العيوب وأسباب كثرة المترادفات في لغتنا . وها كم على سبيل المثال

---

(١) الصفحة ٢٩٩ من الجزء الأول لكتاب كامل الصناعة طبع المطبعة الكبرى في القاهرة سنة ١٢٩٤ للهجرة .

(٢) مقدمة الطبعة الثانية من معجم الألفاظ الزراعية ، وكذلك كتابه المسمى « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » .

(٣) أسباب تضخم المعجمات العربية ، وهي محاضرة ألقيت في جلسة افتتاح مؤتمر مجمع اللغة العربية في الدورة التاسعة عشرة ، ونشرت في الجزء التاسع من مجلة المجمع المذكور.

رأي أصحاب المعجمات العربية في كلمة وريد[1] ، فالباحث لا يستطيع أن يستخرج منها فكرة معينة بعد تلاوة ما قيل فيها من المتناقضات ، أما صاحب القانون فقد عرّف الأوردة بالعروق الساكنة ، والحجومي بالعروق غير الضوارب مطلقاً العروق الضوارب على الشرايين ومثل هذه النصوص في كتب اللغة وغيرها لا تدع مجالاً للشك في أننا لا نستطيع الاعتماد عليها وحدها في انتقاء الألفاظ

(١) في اللسان : وقوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد قال أهل اللغة الوريد عرق تحت اللسان ، وهو في العضد فليق ، وفي الذراع الأكحل ، وهما فيما تفرق من ظهر الكف الأشاجع ، وفي بطن الذراع الرواهش ، ويقال إنها أربعة عروق في الرأس فمنها اثنان ينحدران قدام الأذنين ، ومنها الوريدان في العنق . وقال أبو الهيثم الوريدان تحت الودجين ، والودجان عرقان غليظان عن يمين ثغرة النحر ويسارها . قال : الوريدان ينبضان أبداً من الانسان ، وكل عرق ينبض فهو من الأوردة التي فيها مجرى الحياة . والوريد من العروق ما جرى فيه النفَس ولم يجر فيه الدم ، والجداول التي فيها الدماء كالأكحل والصافن وهي العروق التي تفصد . أبو زيد : في العنق الوريدان وهما عرقان بين الأوداج وبين اللبّتين وهما من البعير الودجان وفيه الأوداج وهي ما أحاط بالحلقوم من العروق ، قال الأزهـري والقول في الوريدين ما قال أبو الهيثم . غيره : والوريدان عرقان في العنق والجمع أوردة وورود ، ويقال في الغضبان قد انتفخ وريده . الجوهري : حبل الوريد عرق تزعم العرب أنه من الوتين ، قال : وهما وريدان مكتنفا صفقي العنق مما يلي مقدمه غليظان . وفي حديث المغيرة منتفخة الوريد هو العرق الذي في صفحة العنق ينتفخ عند الغضب وهما وريدان .

وفي القاموس الوريدان عرقان في العنق ، ج أوردة ووُرُود ، ولم يخرج صاحب التاج عما أورده اللسان .

وفي المخصص : الوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق وفي مقدّمه متصلان بالوتين يردان من الرأس اليه .

وفي أقرب الموارد : الوريد عرق في العنق يقال له حبل الوريد وهما وريدان ج أوردة ووُرُود ووُرُد ، كبريد وبُرُد . وقيـل الوريد هو الوَدَج ، وقيل بجنبه ، وقال الفراء عرق بين الحلقوم وبين العلباوين ، وهو ينبض أبداً ، فهو من الأوردة التي فيها الحياة ولا يجري فيها دم من مجاري النفس .

العلية ، لاضطراب الكثير من تلك الألفاظ ، ولعدم تحديد المعاجم لمدلولاتها .

وسبق لأستاذنا خاطر أن استعمل كلمات سُهام وخَرَع وهَرَع ترجمة لـ (Tabes) و (Rachitisme) و (Hystérie) ، فلم تعد اللجنة النظر في هذه الكلمات ، ولا فيما كان على شاكلتها فأقرتها ، أما أنا فقد درجت على تعريب هذه الألفاظ الثلاثة بتابس ورخيطس وهيستريا للأسباب التالية :

ان كلمة (Tabes) معناها اللغوي الأصلي هو الذبول والتلف . وحسناً فعلت لجنة مجمع اللغة العربية بترجمتها بالضنى ، فهو أقرب الى المعنى المقصود ، بينما كلمة سُهام قد عنى بها الأستاذ خاطر أحد مظاهر الداء المعروف ، وهو الألم الذي ينتاب العليل بالعلة المذكورة على هيئة طعنة السهم ، وليس من أعراض الداء الملازمة بل يظهر حيناً ويغيب أحياناً ، والأفضل أن يخصص السُهام (١) بأحد أشكال آلام الداء ، وهو المعروف بالألم السهمي (Douleur lancinante) فقط . هذا وقد اتسع نطاق مدلول العلة حتى اذا نظرنا في مادة (Tabes) في المعجمات الطبية الحديثة المعوّل عليها نرى أن لفظة تابس لم تعد مقتصرة على الداء العصبي الأصلي الذي مرده الى الداء الافرنجي والذي ينجم عن تصلب الحبلين الخلفيين للنخاع الشوكي ، بل قد أطلق التابس أيضاً على الحالات الآتية التي لا تمت بصلة الى الداء الافرنجي ولا الى علة عصبية أو ألم اطلاقاً . واليكم ما جاء في معجم (Blakiston) : (Diabetic tabes) التهاب الأعصاب المحيطة في السكريين (Optic T.) ضمور العصب البصري بالداء الافرنجي ، (Spastic T.) التصلب المشترك للحبلين الجنبيين والخلفيين من النخاع الشوكي الذي يحدث عدم الانتظام وتقفعاً في الطرفين السفليين ، (T. coxaria) الضمور من جراء علة الورك ،

(١) السادان في التاج السُهام داء يأخذ الإبل يقال بعير مسهوم وبه سُهام .

(T. diuretica) الداء السكري ، (T. dorsalis) وهو الداء الأصلي الذي ألمعنا اليه آنفاً ، و (T. ergotica) انسمام دموي من استعمال الأرغوت « دابرة الشيلم » ، و (T. mesenterica) الالتهاب السلي للعقد اللمفاوية المساريقية · وزاد (Dorland) في الطبعة العشرين من معجمه الطبي على ما تقدم : (Interstitial T.) تكثف الدبق العصبي البدئي من جراء كثافة عروق الحبلين الخلفيين ، و (Peripheral T.) التهاب الأعصاب المحيطية أو التابس الكاذب وغيرهما ، وحيال هذه الكثرة في استعمال كلمة تابس وعدم انحصار مدلولها على الألم وحده لا أرى مسوغاً لاستعمال سُهام في ترجمتها لذلك درجت على تعريبها وبخاصة لأن الكلمة المعربة خفيفة سمعاً ولفظاً ·

ووافقت اللجنة على كلمة خَرَع في ترجمة (Rachitisme) · وهو علة تبدو في الأحداث تمتاز بتشوه العظام ، وارتباك الهضم ، ومردها الى سوء التغذية والحرمان من أشعة الشمس ، ولا أظن أن العرب في بواديهم ، ولا في حواضرهم ، قد عرفوا هذه العلة ، وترجمت لجنة مجمع اللغة العربية اللفظة بكُساحة بينما أثبتت لجنة معجمنا هذه الكلمة ترجمة للفظ (Paraplégie) الذي اعتدنا أن نترجمه بالشلل النصفي السفلي · ولم أعثر على أي نص لاستعمال الخَرَع لعلة تشبه ما تعنيه الكلمة الفرنجية[1] لذا أرجح تعريبها ·

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

(١) في اللسان تخرّع واخترع : استرخى وضعف ولان وضعف الخوّار ، والخرّع لين المفاصل وشفة خريع لينة ، الى أن قال : وانخرعت كتفه اذا في انخلعت ، وانخرعت أعضاء البعير وتخرعت زالت عن موضعها .
أما الكساحة ، ففي القصص الأكسح المقعد وهو من به داء يقعده . وفي اللسان الكساح الزمانة في اليدين والرجلين وأكثر ما يستعمل في الرجلين . الأزهري : الكسح ثقل في احدى الرجلين اذا مشى جرّها جراً . وكسح كسحاً وهو أكسح وكسحان وكسيح ومكسح ، وقيل : الأكسح الأعرج والمقعد أيضاً .
أقول ولا يعد كسيحاً كل مصاب بالشلل النصفي السفلي .

مختارات مما لم ينشر

من شعر البحتري

لا يزال الكثير من أعلام الأدب العربي إلى اليوم في حاجة إلى دراسات مفصّلة عنهم، تنير تاريخ الأدب وتعين على فهم تياراته وتطوّرها خلال العصور؛ غير أن مثل هذه الدراسات تظل قصيرة اليد ضيّقة الأفق ما لم يسبقها نشر عليّ نقدي لآثار هؤلاء الأعلام، وهذا هو الأساس القويم لكل دراسة علية منهجية. ومن خير الأدب أن يدرك العالم العربي هذه الحقيقة، فيتجه باهتمامه إلى نشر المخطوطات القديمة نشراً علمياً حديثاً يستعير أساليب من سبقنا من المستشرقين في هذا المضمار، وينهج نهجهم، وكان أن ظهرت أكثر دواوين الشعراء الفحول في طبعات علمية أنفق ناشروها المحققون فيها من الجهود ما لا يمكن تجديده، ولكن البحتريّ لا يزال إلى اليوم يشكو إهماله ..

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لديوان البحتري ثلاث طبعات:

١ — طبعة القسطنطينية (الجوائب) عام ١٨٨٢، وهي أقدم الطبعات وأصحها، وعليها المعوّل إلى اليوم.

٢ — طبعة القاهرة عام ١٩١١، وهي كثيرة التحريف والتصحيف وإن كانت أكمل من طبعة الجوائب، ذلك أن فيها شعراً كثيراً ليس في تلك الطبعة.

٣ — طبعة بيروت عام ١٩١١ أيضاً وهي طبعة مشكولة، شرح فيها الناشر بعض الألفاظ وحذف ما لم يرضه من الشعر المخل بالأخلاق والأدب.

وهذه الطبعات الثلاث - بالجملة - تجارية، غاية في السوء، وهي - إلى ذلك - لا تحوي جميع إنتاج البحتري الشعري، ذلك أن هنالك جانباً ضخماً من شعر

البحتري يقرب من ثلاثة آلاف بيت لما يزل مخطوطاً ، وبعضه من جيّد شعره ، وأكثره يلقي أضواء نافعة على مراحل كانت غامضة من حياة الشاعر وفنه .

وعندما كنت في باريس ، قبل ثماني سنوات ، وافقت جامعة السربون على أن يكون موضوع رسالتي الأولى للدكتوراه البحث في حياة البحتري وفنه ، وعرضتُ آنذاك أن يكون موضوع الرسالة الثانية المكمّلة تهيئة طبعة علمية لديوان البحتري ، وكادت الموافقة تتم لولا أن أحد الأساتذة المستشرقين العائدين من مصر أعلن أن طبعة نقدية علمية للديوان ستصدرها دار المعارف في القاهرة في سلسلتها المعروفة (ذخائر العرب) ، وأن ظهور الجزء الأول لن يتأخر أسابيع قليلة !

أما أنا فاخترت مخطوطة أندلسية للرسالة الثانية ، وأما ديوان البحتري فقد مرّت الأسابيع والشهور والسنوات ولا نزال ننتظر الطبعة الجديدة منه .

ومنذ أيام كنت أبسط لمعالي الأستاذ الرئيس خليل مردم بك طرفاً من هذا الحديث ، فأخبرني بأنه عزم مرة على طبع ديوان البحتري ، كاملاً محققاً ، وبدأ العمل مدة ثم تركه عندما علم أن مصر تهيأت لطبع الديوان ، وانصرف إلى أعمال أخرى ، ولكن الديوان الموعود لا يزال أملاً حلواً يعيش في قلوب المنتظرين ...

وإلى أن يصدر الديوان ، وينشر فيه ما لم ير النور إلى اليوم من شعر البحتري ، رأيتُ أن أقدّم مختارات منه في مجلة المجمع العلمي العربي إلى القراء ، ليسمعوا منها أنغاماً جديدة لشاعر كبير ملأ آذان الأجيال العربية إيقاعاً جميلاً وموسيقى ساحرة . وسنوالي تقديم هذه المختارات إلى أن تفي مصر بما وعدت ، وتحقق آمال المنتظرين .

* * *

- ١ -

قال البحتري [1] يمدح أبا الجيش خُمارَوَيْه [2] بنَ أحمد بن طولون :

يكاد عاذلُنا في الحب يُغرينا فما لجاجُكَ في لوم المحبّينا
نُلحى على الوجد من ظُلْمٍ فدَيْدَنُنا [3] وجْدٌ نُعانيه أوْ لاحٍ يُعنّينا

(١) القصيدة من البسيط ، عدد أبياتها ٣٩ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم ٣٠٨٦) الورقة : ٣٩٨ و — ٣٩٩ و ؛ وقد وردت بعض أبيات منها في الكتب المخطوطة والمطبوعة ، مما يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري : فالكندي في كتاب الولاة وكتاب القضاة (طبعة بيروت ١٩٠٨) ص ٢٣٩ يذكر الأبيات : ٢٤ و ٢٥ و ٢١ و ٢٢ ، والشريف المرتضى يذكر في طيف الخيال (مخطوطة) الورقة ٤٧ ظ البيتين : ٣ و ٤ ، والمعري في عبث الوليد (مطبعة الترقي بدمشق ١٩٣٦) ص : ٢٢٥ — ٢٢٦ يذكر الشطر الأول من المطلع والبيتين : ١٦ و ٢٩ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مخطوطة الظاهرية) الجزء ١٧ الورقة ٤٢٧ يورد البيتين : ٢٤ و ٢٥ ، وكذلك يوردهما ابن العديم في زبدة الحلب من تاريخ حلب (بتحقيق الدكتور سامي الدهان) : ج ١ ص ٨٣ .

(٢) خُمارويه (٢٥٠ — ٢٨٢ هـ) صاحب مصر ، وليها بعد وفاة أبيه واتسع ملك الطولونية في أيامه من الفرات إلى بلاد النوبة ، ومات مقتولاً في دمشق (ابن خلكان — طبعة محيي الدين عبد الحميد : ٣/ ٢٠ — ٢٢) .

(٣) في الأصل : قد بدنثا ، والفضل في تصويب قراءتها لأستاذنا الرئيس خليل مردم بك .

إذا زَرُودُ (١) دنت منّا صرائمُها (٢) فلا محالةَ من زَوْرٍ (٣) يُوافينا
بتنا جُنوحاً على كُثْبِ اللوى (٤) فأبى خيالُ (٥) ظَمْياء (٦) إلاّ أن يُحيّينا
وفي زرودَ تَبيعٌ (٧) ليسَ يُمهلُنا تقاضياً وغريمٌ (٨) ليس يَقضينا
منازلٌ لم نُذمَّمْ عهد مُغْرَمِنا فيها ولا ذُمّ يوماً عهدُها فينا
تجرَّمَتْ (٩) عنده أيامُنا حِجَجاً معدودةً، وخَلَتْ (١٠) فيها ليالينا

(١) زرود : رمالٌ بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة (ياقوت معجم البلدان طبعة بيروت ٣/١٣٩) .

(٢) جمع صريمة وهي القطعة من الأرض الرملية أو الأرض المحصود زرعها .

(٣) الطيف والخيال يُرى في النوم .

(٤) كُثْب اللوى والأصل كُثُب جمع كثيب وهو التل من الرمل ، وسكّن الوسط لضرورة الوزن ، واللوى في الأصل منقطع الرمل ، وهو اسم لواد من أودية بني سليم (معجم البلدان ٥/٣٣) .

(٥) في طيف الخيال : طيفُ لظمياء .

(٦) اسم امرأة يذكره البحتري في نسيب قصيدة أخرى يمدح بها خمارويه :

سرى الطيفُ من ظمياء وَهناً فرحبا وأهلاً بمسرى طيف ظمياء من مسرى

(الديوان — طبعة مصر ١/١٢) .

(٧) التبيع : الذي يتبعك بحق يطالبك به .

(٨) الغريم : الدائن والمدين ، والمراد هنا الثاني .

(٩) تجرّمت الحجج : انقضت الأعوام بتمامها ، والحول المجرّم : التام .

(١٠) في الأصل : دخلت .

إنّ الغواني غداةَ الجزعِ مِنْ إضمٍ (١) ... تَيَّمْنَ قلباً مُعَنَّى اللُّبِّ محزونا

إذا قَسَتْ غِلْظَةً أكبادُها جَمَّاتْ ... تَزْدادُ أعطافُها من نعمةٍ لِينا

يلومُنا في الهوى من ليس يَعْذِرُنا ... فيه ويُسخِطُنا من ليس يُرْضِينا

وما ظننتُ هوى ظمياءَ مُنْزِلَنا ... إلى مُواتاةِ خِلٍّ لا يُواتينا

لقد بعثتُ عتاق الخيل ساريةً (٢) ... مثلَ القطا الجُونِ (٣) يَتْبَعْنَ القطا الجُونا

يُكْثِرنَ عن دَيْرِ مُرّانَ (٤) السؤالَ وقد ... عارَضْنَ أبنيةً في دير مارونا (٥)

---

(١) وادٍ بجبال تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة (معجم البلدان ١/ ٢١٤) .

(٢) في الأصل : شاربةً ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٣) القطا ضربان : كُدْرِيٌّ وجُونِيٌّ ، والجَوْن : الأسود .

(٤) ديرٌ بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع ورياض حسنة ، يذكر ياقوت أنه كان ديراً كبيراً عامراً بالرهبان ، وينقل بعض شعر الصنوبري في وصفه (معجم البلدان ٢/ ٥٢٣ — ٥٣٤) ، وليس في المطبوع من الديارات للشابشتي شيء عن هذا الدير ، وكان لخمارويه قصرٌ بدير مرّان ، ويذكر ابن عساكر أن خمارويه « بعد نزوله القصر وفد إليه الملوك ، وانتجعته العرب ، وقصدته الشعراء من جميع الأمصار ، وقصده البحتري الشاعر فأنشده قصيدته » هذه . (انظر تاريخ دمشق ـ مخطوطة الظاهرية : ١٧/ ٤٢٧) وفي هذا القصر قُتل خمارويه سنة ٢٨٢ هـ (انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران : ج ٥ ص ١٧٨) .

(٥) دير القديس مارون : دير كان في مدينة الرستن ، أو فيما يجاورها ، على ضفة العاصي ، بين حمص وحماة ، وهو دير مشهور يقول فيه المسعودي : « دير مارون بنيان عظيم حوله أكثر من ثلثمائة صومعة ، فيها رهبان ، وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم ، فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن » انظر مقالة ليوسف اليان سركيس في مجلة المقتطف (المجلد ٣٣ السنة ١٩٠٨ ص : ١١٣ ـ ١١٥) .

يَنْشُدْنَ في إِرَمٍ (١) والبحرُ في إِرَمٍ غنىً على سَيِّدِ الساداتِ مضمونا
يُلفى الندى منه مَلموساً ومُدَّرَكاً وكانَ يُنْهَد موهوماً ومظنونا
بادٍ بأنعُمِه (٢) العافينَ يَزْلِفُهم (٣) على الأشقاء (٤) فيها والقرابينا (٥)
نَيلٌ يُحكِّمُ فيه المجتدون إذا شِئْنا أخذنا احتكاماً فيه ماشينا (٦)
ومُمْلِقين من الإحسان يَنْجَعُهم ساهين عن كرم الأفعالِ لاهينا
إن لم يكن في جَداهُمْ نَزْرُ عارفةٍ تكفّنا كانَ عُذرٌ منه يكفينا
وغابنٌ إنْ شرى حمداً بمَرْغَبَةٍ رآه فيها بخيلُ القوم مَغْبُونا
مظفرٌ لم تَزلْ تلقى (٧) بطلْعتِه كواكبَ السعدِ والطيرَ الميامينا
يُمسي (٨) قريباً من الأعداء لو وقفوا بالصِّين في بُعدها ما استبْعَدَ الصينا

---

(١) إرم : اسم مدينة ، ويُريد بها البحتري دمشق (معجم البلدان ١/١٥٥) .

(٢) في عبث الوليد : بأنصفق .

(٣) زَلَفَ الشيء : قرّبه والمعنى أنه يقرّب السائلين على إخوته وجلسائه .

(٤) في الأصل : الأشقيا ، والتصويب عن (عبث الوليد) .

(٥) القرابين : جمع قربان ، وهو جليس الملك ، ويرى المعري أن البحتري واهم في نصب القرابين ، وحقه الخفض (عبث الوليد ٢٢٦) .

(٦) الأصل : شئنا وسهّلت الهمزة .

(٧) في كتاب الولاة والقضاة : لم يزل يلقى .

(٨) في كتاب الولاة والقضاة جاء هذا البيت كما يأتي :

يمشي قريباً من الأعداء لو وقفوا بالصين من بعدها ما استبعد الصينا

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

تَشمير يقظانَ ما انفكَّتْ عزيمتُه تزيدُ أعداءه ذُلاً وتوهينا
إنّي رأيتُ(١) جيوشَ النصر مُنزَلةً على جيوش أبي الجيش بنِ طولونا
يومَ الثَّنِيَّةِ(٢) إذ يَثني(٣) بكَرّتِه في الرَّوْعِ خمسين ألفاً أو يزيدونا
والحربُ مُشعَلةٌ تَغلي مراجلُها حيناً ويُضرَمُ ذاكي جمرها حِينا
يغدو الورى وهُمُ غاشو(٤) سُرادقِهِ صِنفَيْنِ من مُضمِري خوفٍ وراجينا
والناسُ بين أخي سَبْقٍ يَبينُ به وفاترينَ من الغاياتِ وانينا

(١) في (كتاب الولاة) و (تاريخ دمشق) : وقد رأيتُ ، وفي (تاريخ حلب) : وقد تدلَّتْ جيوشُ ...

(٢) المراد ثنيَّة العُقاب وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص (معجم البلدان : ٢/ ٨٥) والبحتري يشير إلى المعركة التي جرت هناك سنة ٢٧٤ هـ بين خمارويه ومحمد بن ديوداذ بن أبي الساج المعروف بالأفشين ، بعد أن نكث عهده معه (ابن العديم : ١/ ٨٢ — ٨٣ ، وانظر ابن الأثير - طبعة مصر ١٣٥٣ هـ - : ٦/ ٦٣ في حوادث سنة ٢٧٥ هـ) وانتهت المعركة بهزيمة ابن أبي الساج وانتصار خمارويه .

(٣) في (تاريخ حلب) :

. . . . ثنى بكرته خمسين ألفاً رجالاً أو يزيدونا

وفي (كتاب الولاة) و (تاريخ دمشق) :

. . . . ثنى بكرته في النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا

(٤) جمع (غاشٍ) جمع المذكر السالم ، وغَشِيَه : أتاه وقصده .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما رأيتَ الثلاثاءاتِ (١) واطئةً ... من التخلُّفِ أعقابَ الأثانِينا (٢)
عمَّرَكَ اللهُ للعلياءِ تعمُرُها ... وزادكَ اللهُ إعزازاً وتمكينا
ما انفكّتِ الرومُ من همٍّ يُحَيِّرُها ... مذ جاورتْ عندكَ العزّاءَ (٣) واللِّينا
تدنو إذا بعدوا عند اشتطاطِهِمُ (٤) ... كَيْداً وتَبْعُدُ إنْ كانوا قريبينا
حتى تركتَ لهم يوماً نسختَ به ... ما يأثُرُ الناسُ من أخبارِ صِفّينا (٥)
مصارعٌ كُتِبَتْ في بطنِ لؤلؤةٍ (٦) ... من ظهرِ أنقِرَةَ (٧) القُصوى وطِمِّينا (٨)

(١) جمع الثلاثاء ، والحق أن يقول الثلاثاوات ، لأن الثلاثاء عندهم ـ كما يقول المعري في عبث الوليد ص ٢٢٦ ـ مؤنث ، وحُكي في اللسان عن ثعلب : مضت الثلاثاء بما فيها ، فأنّث ، ولم يحك سيبويه حمراءات في جمع حمراء وقد حكاه الكسائي ، فيجوز على هذه الحكاية .

(٢) يقول المعري : حكاها بعض الناس في جمع الاثنين ، وحُكيت أيضاً (الأثاني) بغير نون (انظر عبث الوليد ص ٢٢٦) .

(٣) العزّاء : السنة الشديدة ، وقيل هي الشدّة (اللسان) .

(٤) اشتطاطهم : جورهم وبعدهم عن الحق .

(٥) موضع بقرب الرّقة على شاطئ الفرات ، وفيه جرت الوقعة بين علي ومعاوية سنة ٣٧هـ ، وقتل فيها سبعون ألفاً ، ودامت المعركة مائة يوم وعشرة أيام وكانت الوقائع تسعين وقعة . (معجم البلدان ٣/٤١٤ وانظر الطبري حوادث سنتي ٣٦ و ٣٧هـ) .

(٦) لؤلؤة : قلعة قُرب طرسوس ، غزاها المأمون وفتحها (معجم البلدان ٥/٢٦) وفي سنة ٢٨٠هـ دخل أحمد بن أبا طرسوس للغزاة من قبل خمارويه بن احمد بن طولون (ابن الأثير : ٦/٧٧) وفي سنة ٢٨١هـ دخلها طغج بن جف لغزو الصائفة من قبل خمارويه فبلغ طرابزون (ابن الأثير : ٦/٧٨) .

(٧) أنقرة : مدينة في الثغور ، كان المعتصم قد فتحها وهو في طريقه إلى عمورية سنة ٢٢٣هـ (معجم البلدان ١/٢٧٢ وانظر حوادث سنة ٢٢٣ في الطبري) .

٨) طِمِّين : موضع ببلاد الروم (معجم البلدان ٤/٤١ .

فأسلم لتجهدهم غزواً وتنزيهم ... جيشاً (١) وتُتبعهُ الأمولَ هاروناً (٢)
أمّا الحسينُ (٣) فما آلاكَ مجتهداً ... وليس تألوه تفخيماً وتزييناً
ترضى به حين لا يُرضيك مُدبِرُهم ... مباركاً صادقَ الإقبالِ ميمونا
أدّى الأمانةَ في مالِ الشآمِ فما ... تلقاه إلاّ أمينَ الغيبِ مأمونا
تسمو إلى الرتبةِ العُليا محاسنُه ... فما ترى وَسَطاً منها ولا دُونا

(١) يريد ابنه جيش بن خمارويه ، وقد ولي مكان أبيه بعد قتله عام ٢٨٢ هـ وعزله القواد بعد تسعة أشهر من ولايته (ابن العديم ١/ ٨٦ وابن الأثير ٦/ ٨٢) .

(٢) هارون بن خمارويه ، ولاه الجند بعد عزلهم أخاه جيشاً سنة ٢٨٣ هـ ، وبقتله سنة ٢٩٢ انقرض ملك الطولونية (ابن الأثير ٦/ ١١٠) .

(٣) هو الحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور من رجال دولة خمارويه ، يسميه البحتري وزيراً (مخطوطة باريس الورقة ١٧٨) والمؤرخون يسمون ابن أخيه : محمد بن علي بن أحمد المادرائي وزيراً لخمارويه (تاريخ بغداد ٣/ ٧٩) ، ويجمع الصابي بينهما ويذكر أنهما « دبرا أمور بني طولون في المال والرجال ، ولهما في الكتابة قدم وبالتدبير دربة » (انظر تاريخ الوزراء للصابي طبعة بيروت ص ٣٤٧ – ٣٤٨) ، والأشبه أن يكون الحسين وزيراً لخمارويه مكلفاً بتدبير أمور دولته المالية في الشام ، والبحتري يثني على أمانته في مال الشام وحرصه . وقد لعب الحسين دوراً في إعادة مصر إلى الحكم العباسي (تاريخ الوزراء للصابي ص : ٩٢) وأصبح عاملاً على مصر في خلافة المقتدر ، وأشير على المقتدر أن يستوزره لولا معارضة نصر الحاجب (المصدر السابق ٣١٥) .

ملاحظات ونظرات في القصيدة :

١ — هذه القصيدة واحدة من أربع ، مدح بها البحتري خمارويه بن أحمد ابن طولون ، وهي كلها لا تزال إلى اليوم مخطوطة ، إلا واحدة منها نجدها في طبعة القاهرة (ج ١ ص ١٢) ولم يلتفت الباحثون إليها لورود اسم خمارويه في التقديم لها مصحفاً إلى (حمادويه) ، ومن هنا ظلت فترة اتصال البحتري بالطولونيين مجهولة لدى كل من يدرس الشاعر وفنه من ديوانه المطبوع ، ولا تصل يده إلى المخطوطات الكاملة للديوان .

٢ — نظمت هذه القصيدة بعد سنة ٢٧٩ هـ ، في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، ففي هذه السنة يرثي البحتري الموفق ويمدح المعتضد بعد أن بويع بالخلافة بقصيدة لا تزال مخطوطة (مخطوطة الديوان باريس الورقة ٣٩٥ ظ — ٣٩٦ و) ويسأل الشاعر فيها أبا العباس المعتضد أن يقدمه إلى خمارويه بكتاب توصية منه :

أموجهي أنت إيصاء وتقدمة يزكو بها سببي عند ابن طولونا

وكان النزاع بين العباسيين والطولونية قد انتهى باعتراف خمارويه بسلطة الخليفة المعتضد ، وتزويجه من ابنته قطر الندى ، وإرساله الهدايا العظيمة من مصر إليه (انظر الطبري وابن الأثير : حوادث سنة ٢٧٩ هـ) .

٣ — من حسن حظ البحتري أن خمارويه لم يبلغه هجاء الشاعر لأبيه أحمد ابن طولون ، قبل أكثر من عشر سنوات ، ذلك الهجاء المقذع ، إذ يتهمه بأنه ابن سفاح ، يعزى لأبوين : طولون ويلبخ :

إذا ما طلبنا خطة النصف ردها علينا ابن خبث فاحش وفسوق

وعاهرة أدت إلى شر عاهر مشابه كلب في الكلاب عريق

ليلبخ أو طولون يعزى فقد حوت على اثنين : زوج منعما وعشيق

(انظر الديوان — الجوائب : ٢ / ٧٩ وانظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي : ٣/٣) ولو عرف خمارويه موقف البحتري هذا من أبيه لما وجد الشاعر لديه عطاءً ولا إكراماً .

٤ — تُلاحظ في القصيدة أقسام ثلاثة متميّزة :

ا — النسيب : ويشغل الأبيات (١ — ١١) وعلى الرغم من أنه غزل تقليدي ففيه حرارة قلب متقّد لم تطفئ شعلته شيخوخة جاوزت السبعين !

ب — مدح خمارويه : ويشغل الأبيات (١٢ — ٣٥) وهو أهم أجزاء القصيدة ، وفيه يصف الشاعر إقباله على دمشق ، ينشد الغنى المضمون لدى بحر جواد يقرّب السائلين المجتدين ويحكّمهم في ماله ليأخذوا ما يشاؤون ، فهو يشتري الحمد بالعطاء ، وهو مظفّر ميمون الطلعة شجاع غير هيّاب ، ينال من أعدائه مها يبعدوا ، ويزيدهم إذلالاً وإضعافاً . ويمجّد الشاعر انتصار ممدوحه في معركة (ثنية العُقاب) فالملائكة كانت تؤيد جيشه وتشد أزره ، فيهزم ابن أبي الساج وخمسين ألفاً من رجاله أو يزيدون ، في حرب حامية تغلي مراجلها ويضرم جمرها . ويصف البحتري أمل الناس في ممدوحه وهيبة بعضهم له ، فهم بين راج وخائف ، والناس يتفاوتون بالهمم ، فمنهم السبّاقون إلى الغايات ومنهم المتخلّفون الذين يجيئون في الأعقاب ، كما تجيء أيام الثلاثاء في أعقاب أيام الاثنين . ثم يدعو الشاعر للممدوح بطول العمر والزيادة في الإعزاز والمجد والتمكين ، ويتحدث عن بطولاته في جهاده للروم عند ثغر لؤلؤة ، ويسأل له دوام السلامة ليُرسل ولديه جيشاً وهاروناً غازيين للروم ، يقودان كتائب الجهاد في الثغور .

ج — مدح وزير خمارويه الحسين بن أحمد : ويشغل بقية أبيات القصيدة (٣٦ — ٣٩) ويصف الشاعر هنا أمانة الوزير في حفظ أموال الشام ، واجتهادَه في إرضاء سيّده خمارويه .

٥ – انتقل البحتري من النسيب إلى المديح انتقالاً مفاجئاً ، ولم يحسن التخلّص ، وغالباً ما يفعل البحتري ذلك في قصائده ، وقد أهمل الشاعر في مديح خمارويه التعرض إلى رفعة النسب ، وقصر مديحه له على تمجيد كرمه وشجاعته ، ولعلّ الحديث عن النسب يصل بالشاعر إلى والد خمارويه ، أحمد ابن طولون ، وموقف البحتري منه موقفه كما ذكرنا منذ قليل ! وأما الجمع في المديح بين الأمير ووزيره فمن دأب البحتري أن يفعل ذلك في قصائد كثيرة من شعره ، ليملك قلب الوزير (في بعض أماديحه للمتوكل يمدح الفتح بن خاقان الديوان – الجوائب ١/٣ ، ويعرض لمدح الوزير أبي صالح ابن يزداد في مديحه للمستعين : ١/٧٥ ، ويمدح وصيفاً في مديحه للمعتز : ٢٤٨/٢ كما يمدح الوزير عبيد الله بن يحيى في مديحه للمعتمد : ١٠٦/١) ولا ضير من الإشارة إلى ما ينتظره البحتري من وراء تمجيده لوزير مالية خمارويه في الشام ، فهناك خراج أملاكه الواسعة في منبج ، وقد حرص الشاعر طوال حياته على دفع الوزراء والكتاب إلى إسقاط خراجه أو جانب منه !

٦ – هذه القصيدة لا تتأخر عن الطبقة الجيدة من شعر البحتري ، وهي خير دليل على أن شاعرية البحتري ظلّت الى آخر مراحل حيـاته تمتاز بالقوة والخصب ، ويكفينا عند تقويم هذه القصيدة أن نذكر أنها هي المنوال الذي نسج عليه بحتريّ الأندلس ابن زيدون قصيدته النونية في التشوق إلى ولادة بنت المستكفي (ديوان ابن زيدون – شرح كيلاني وخليفة : ٤ – ٨) :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا

وأن نذكر أن الشعراء سيوالون معارضتها (ديوان ابن زيدون : ٤٠١) إلى نونية شوقي في العصر الحديث : (الشوقيات ١٢٧/٢ – ١٣٣) :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

(يتبع) الدكتور صالح الأشتر

كتاب النفس

لابن باجة الأندلسي (*)

- ٥ -

وقد يكون امتزاج وقد لا يكون [١] ، فإن الاسطقس البارد قد يكون من القلة في القوة بحيث لا يحرك الآخر الحار فيحركه الحار أو يحيله مثله . فيكون هذا تكوّنا [٢] لا امتزاجا [٣] وقد يكون بحيث [٤] يحرك كل واحد منها صاحبه غير انه لا يكون أبداً على نسبة واحدة فيحدث عن <ذلك> أنواع من الامتزاج . فلذلك متى كان الأمر جاريا على النظام احتيج ضرورة الى محرك من خارج ، وهو من التحريك هو تدبير فضرورة يحتاج الى مدبّر .

وفي هذا الصنف فيدخل الامتزاج الصناعي وهذا النحو من الامتزاج إنما يصير به أبداً الممتزج وسطا في القوة بين ما امتزج منه . لأن المازج المحرك

(*) تتمة الفصل الثالث : « القول في القوى الحسّاسة » المنشور في الجزء الرابع من المجلد الثالث والثلاثين (ص ٦٠٩ – ٦٣٢) من هذه المجلة .

(١) قارن ابن باجة ، ورقة ٨٢ ب : وكل فاعل ومنفعل وهيولاهما مشتركة فهما متضادان ضرورة فلذلك كل واحد منهما يحرك صاحبه وهو يتحرك ، فالفعل والانفعال لا يكون حتى يماس ، وقد يكون اختلاط وقد لا يكون ، راجع أرسطو : De Gen. Cor, I. 6. 322 b 22; 10. 327 b 23 sq.

(٢) المخطوطة : تكوّن .

(٣) قد فرّق ابن باجة بين « التكون » و « الامتزاج » وقال : ورقة ٧٦ ب : « ان كل متكون فهو من اسطقس أو من أكثر من اسطقس ، فان الاسطقس الواحد انما يتكون عنه اسطقس غيره كالنار تتولد منه سائر الثلاثة كما قيل في كتاب الكون والفساد ، وأما من اثنين فقد يكون منهما اسطقس آخر كما قيل في كتاب الكون ، وذلك اذا فسد المجتمع بفساد قوة كل واحد منهما أو فساد قوة أحدهما ، وأمّا اذا فسدت النهايات وبقيت القوى بالفعل لكن ليست خالصة بل حدث فيها قوة مركبة متوسطة وذلك ما داما مختلطين فعند ذلك يحدث عنها موجود آخر وصورة أخرى ويمكن أن يحدث في هذه صور كثيرة بضروب من التركيب وضروب من الاستحالة تتبعها ضروب من التكونات .

(٤) المخطوطة : بحسب .

للممتزج على هذه الصفة إنما يوقف الممتزج في أحد المتوسطات ، وإنما يصير الممتزج أشياء متوسطة مجانسة للاسطقسات ٠

فأما المازج اذا كان الذي يمزج به حرارة فانها ان كانت مجانسة لحرارة الاسطقسات فانه يكون عنه شيء شبيه بالطبخ فيعرض عنه الأجسام المعدنية [1] ، إذا اتفقت المادة ملايمة [2] للشيء المنطبخ ٠ وهذا النحو من الامتزاج يشبه الامتزاج الصناعي الذي يستعمل النار ، مثل الجزء الممتزج من الأرض والماء ٠ في هذا الامتزاج يظهر أشياء ليست الاسطقسات كالتماسك والانطراق [3] ، كما يعرض ذلك في الذهب ، وفي مثل هذا العرض الأرابيح والطعوم والألوان المختلفة ، وبالجملة ، فالأحوال الجسمانية وهي التي توجد شايعة في الجسم ، وتنقسم بانقسامه ٠ وهذا يلزم ضرورة أن تكون متشابهة الأجزاء فإن الطبخ في هذه قد يكون ٠ وهذا نوع من الامتزاج ليس كالأول ٠ ولذلك لا يوجد عن الحركة المستديرة جسم معدني [4] ، وبالجملة جسم متشابه الأجزاء إلا في مواضع مخصوصة بها فان <الأجسام> المعدنية لا توجد <إلا> عن المعدن ٠ والمعدن هو مكان في جوف الأرض يتكون فيه جسم متشابه الأجزاء من بخار ودخان ينحصر فيه ليكاثف ذلك الجزء من الأرض فينضج بالحرارة الموجودة في ذلك الجزء بعينه [5] ٠ ولذلك لا يكون في المواضع الثلاثة المعدودة في كتاب الآثار العلوية جسم آلي أصلا ٠

فالأشياء الحادثة عن الامتزاج الموجودة بهذا (ورقة ١٥٢ الف) النحو من التعفن إنما توجد متباينة الاسطقسات [6] ٠ وكل هذه إما صورة طبيعية أو اعراض في أجسام طبيعية وتوجد في حدود المحرك القريب ٠

---

(١) قارن أرسطو : Arist : Meteo. III. 6. 378 a 18 sq. ٠

(٢) المخطوطة : الملايمة .

(٣) راجع النص ورقة ١٥٢ ب : كالانطراق والصبر على النار .

(٤) المخطوطة : معدنى .

(٥) قارن أرسطو : Arist. : Meteo. : IV. 10. 388 a 13 sq. ٠

(٦) ارسطو : Arist. : Meteo. I. 379 b 5 ٠

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمّا المؤتلف من الاسطقسات الذي يكون المحرك فيه الأجرام السماوية ، وبالجملة فالمحرك فيما يتحرك بحركة المكان فيعرض عنه الالتقاء ، فالمحرك القريب والبعيد فيه واحدٌ وهو الجرم المستدير لما يحرّك بالطبع وبالذات . وأمّا في الموجود عن النضج فالمحرك القريب فيه هو الحرارة التي بها وقع النضج ، والبعيد هو الجرم المتحرك دورا . فلذلك يوجد في الموجود عن نضج المحرك القريب من الاسطقسات ، إمّا واحد منها ، وهو النار ، وإمّا مؤتلف من نار . وهذه كلها محسوسات ، إمّا أولٌ فكالألوان ، وإمّا ثوان ، فكالأطوال والأشكال وصور الجواهر الطبيعية . وهذه كلها أشياء موجودة في المواد ، واذا وجدت في المواد صارت هي والمواد واحدة بالعدد متغايرة بالقوة على ما قلنا قبل[1] .

وليس لشيء من هذه أن تكون حسّاسة . والمادة الأولى هي كل واحدة من هذه بالقوة . وكل ما يصير مع المادة واحداً فهو لها إمّا أولاً وإمّا ثانياً وإمّا ثالثاً . والتي لها بالذات فتلك الصور هي جواهر ضرورة لأن سائر ما يوجد منها فانما هي تابعة لصور الجواهر ولذلك احتاجت عند الكون الى الاستحالة . فان المادة ليست شيئاً أصلاً بالفعل[2] . والمتغير فهو ضرورة موجودة بالفعل شيئاً ما ، فلذلك كان بالضرورة عندما يتحرك موجوداً فيحتاج الى الصورة[3] ويتغير في العرض وهو موجود بالصورة التي <هي> فيه . ويعرض عن ذلك التغير في الصورة كما يعرض في الحركة في المكان تبدل الأوضاع . فان الحركة لم تكن في الوضع لكن عرض عنها الوضع . ولو تحرك في الصورة لكانت المادة هي المتحركة بذاتها[4] فكانت تكون شيئاً ما . وأمّا

ARCHIVE

---

(١) راجع النص ورقة ١٤٧ ب ، .... ويتغايران بالقوة ؛ ارسطو : Arist. ; Met.. 9 IX. 1050 a 15 .

(٢) فالمادة في كل جسم تضطر الى صورة لوجودها ، راجع النص ورقة ١٤٧ ب : فالمادة في كل جسم يحتاج الخ .

(٣) فان الصورة تتغير ضرورة بالعرض ، راجع النص ورقة ١٤٧ ب : ... الا انها غير بالضرورة ؛ ورقة ١٥٣ الف : فتغير الصورة لذلك بالعرض .

(٤) فان المادة نفسها ذات الصورة أو موضوعها .

في الاستحالة فان المادة تتحرك بالعرض .

وكل ما يوجد في الأجسام الطبيعية اسطقساً كان أو معدنياً فكله هيولانية [١] متحدة بها كما قلنا . وأمّا في النبات والحيوان فانها توجد فيها [٢] الأحوال الهيولانية [٣] التي للاسطقسات كالأحوال [٤] الهيولانية التي هي من نضج . وهذه الأحوال توجد [٥] المتشابه الأجزاء التي منها . وتوجد لها أحوال أخر ليست للاسطقسات ولا من نضج بكون عن الاسطقسات . وهي الخلقة وذلك بين في أكثر النباتات ، وهو في الحيوان أبين ، فوجودها أجزاء متشابهة عن وجودها آلات .

والمحرك لمادة هذا التحريك وهو الذي يفيد الخلقة جنس آخر من الحركات . وهذا ظاهر بأيسر (ورقة ١٥٢ ب) التأمل . وليس ذلك المحرك هو الحركة المستديرة وإن لم يحرك خلواً عنها كما يبين في ثامنة السماع [٦] . لكن انما يطلب المحرك المتحرك الذاتي الأخص وهو القريب .

ARCHIVE http://archive.sakhrit.com

---

(١) المخطوطة : هيولانة .
(٢) المخطوطة : فيا .
(٣) والأحوال الهيولانية أشير اليها في أقوال ارسطو في مواضع : Meteo. IV. 2- 379 b 12 : « the conextion is due to heat; its species are ripening, boiling, broiling ... » ; Ibid, 25 : « In some cases of concoction the end of the process is the nature of the thing nature, that is, in the sense of the formal cause and essence ... » .
(٤) المخطوطة : لاحوال .
(٥) المخطوطة : توجب ، وبالهامش توجد .
(٦) ويظهر أن أرسطو لم يقل واضحاً في الثامنة من السماع ان المحرك لا يخلو عن الحركة المستديرة ، ولكنه أثبت حركة متصلة لا تنتهي ، وقال انها حركة مستديرة ، راجع Phys. : VIII, 8 . وقد أشار ابن باجة الى هذه الحركة (المستديرة) المتصلة في شرحه لثامنة وقال : ورقة ٦٣ ب : والحركة التي يذكرها أرسطو في هذه المقالة الثامنة حين يقول : الا أن بعض هذه توجد في الحركة السماوية وهي الحركة بالعرض من غير . قارن أرسطو : Arist., De Caelo. I. 2. 269 a 7 .

فهذا المحرك ليس هو الحرارة المنضجة ، ولكن الحرارة المنضجة هي آلته ، ولذلك تتبع هذه الأجسام الطعوم والأراييح وسائر الأعراض اللاحقة عن النضج . وأما كيف تلحق عنها فقد تبين في الرابعة من الآثار العلوية[١] فهذه ضرورة تفيد الخلاقة .

وما له مثل هذا المبدأ عندما يتحرك[٢] فالمحرك فيه يلزم ضرورة أن يكون عقلا . لكن هذا القول أليق بتكون ذوات الأنفس وقد تلخص في السابعة عشر من كتاب الحيوان[٣] .

وما له هذا المبدأ جنسان : جنس تقترن به آلته التي[٤] بها يحرك مثل الحيوان المتناسل . وهذا يكون بزرا ، فإن البزر هو جسم مكوّن لذي النفس . وبيّن ان حرارته فيه التي بها يفعل . ومنه صنف آلته التي بها يحرّك في غيره . وهذا يكون للحيوانات التي يقال لها أنها تتكون من تلقائها . والآلة التي لمثل هذا هي حرارة العفونة أو حرارة غيرها . وهذا يشبه الصناعة الفاعلة بوجه ما ، إذ كانت آلات الصناعة خارجة عن الجسم الذي توجد له الصناعة . فلذلك يحرك بتحريك الاسطقسات ويمزج .

ولا يزال هذا الحار يحرك الأرض الممتزجة بالماء حتى اذا بلغت الجملة الى الحال التي بها تقبل تلك الصورة قبلتها عند ذلك . وظاهر أن عند بدء الحركة تبدأ قبول الصورة ، وان القبول والتحرك يتشاوقان . والنفس اذا كل قبل صورة الممتزج فقبلها بالمزاج الذي له .

---

(١) قارن أرسطو : Arist : Meteo. IV. 2. 379 b 18 .

(٢) بالهامش : يتكون .

(٣) راجع أرسطو : Phys. VII. 3. 227 b 1 ; De An. I. 3. 407 a 33 . ايضـا ، De Gen. An. II. 3. 736 b 22 sq. ; 737 a 9 .

(٤) المخطوطة : والتي .

والصورة التي تقبلها الممتزجات إمّا ان لا تحرّك شيئاً بالذات بل تقبل وذلك مثل صور المعدنيات . وهذه أيضاً تتقدم في الهيولى ما يوجد فيها عنهـا مثل الأحوال التي تخص الذهب من جهة أنه ذهب كالانطراق والصبر على النار . ومنها ما يتحرك بها الجسم الذي هي فيه حركة تخصه كنفس النبات . فان المادة متى قبلت صورة المسدود حركت ذلك الجسم معا ، فها هنا ضرورة قوى هيولانية بعضها بعيدة كقوة الاسطقسات . وبعضها قريبة كقوة الممتزج وقوة هذه إنما توجد أبداً مقترنة بالصورة ، فهي أبداً موضوعة . ولذلك ليس لذي النفس مقابل ، إذ ليس لها عدم خاص . وإنما يوجد عدم تلك الصورة كأنك قلت «صورة النخلة» . منها <ما> يوجد فيه الهيولى البعيدة كما يقال في الماء «الأحمر» .

فأمّا القوة القريبة فليست[1] توجد خلوًا من الصورة لأنها موضوع أبداً ولا تفارق أصلاً . ولذلك يشبه (ورقة ١٥٣ الف) أن تكون صور المعدنية في موادها إذ لم تكن لها أضداد ولا أعدام مقابلة كمقابلة العدم للملكة .

ففي أمثال هذه تكون صورة المزاج هي ماهية ذلك الجسم كالذهب مثلا . فإن الممتزج هو مادة والوجود لها هو ذلك النوع من التماسك . وظاهر أن ذلك التماسك هو في هيولى قريبة وهي موجودة في الممتزج كالصورة للمزاج . ثم قبلت تلك الهيولى ذلك التماسك لكنه لما لم توجد الهيولى مفارقةً لتلك الصورة أصلاً كان أبداً المجموع منها كشيء واحد ، والهيولى إنما ظهر وجودها عند التغير . وكل هذه هي صور في الهيولى يصير بها المجتمع شيئاً واحدا ، لأن هذا هو معنى قبول الهيولى للصور الحادثة فيها[2] فأما اذا كانت[3] الصورة

---

(١) المخطوطة : فليس .

(٢) والا" فالمادة هي صورة محضة غير مدركة ، أو مادة لم تتصور بالفعل ، انظر زيلر : Zeller : Arist. II. p. 339

(٣) المخطوطة : كان .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد غايرت وذلك إنما هو بأن تفارق نحواً من المفارقة فحينئذ تكون مغايرة للهيولى .

فإن كانت هذه المغايرة مما يحدث فيلزم ضرورة أن يكون عن تغير متقدم إما فيها وإما في موضوع آخر [١] على ما تبين في ثامنة السماع [٢] .

لكن الصورة لا يمكن أن تتغير إذ كل متغير منقسم [٣] ، وهي غير ذات أجزاء [٤] ، وليست بجسم . فلذلك [٥] بتغير شيء آخر . فتصير بذلك التغير من تلك الصورة على نسبة محدودة . فتتغير الصورة لذلك بالعرض [٦] ، ويكون تغيرها في الآن كما يعرض لما هو مضاف . فإن آبَ إن لم يكن ضعفاً لجَ دَ وكان أكبر ، فإن جَ دَ إذن إنما صار نصفاً ، وصار آبَ ضعفاً من غير أن يتغير آبَ في نفسه ، بل يبقى على حاله التي كان <عليها> ، لكن يتغير من نسبة الى نسبة .

وكل تغير على ما تبين في الثامنة [٧] فهو إما في الكم وإما في الكيف أو في الأين أو بتابع [٨] لأحد هذه . لكن متى غايرت الصورة المادة فقد وجدت بالفعل تلك الصورة وهي ما هي متحازة بوجود يخصها [٩] ، وهي غير

---

(١) راجع النص ورقة ١٤٩ ب : ... أو كان لها موضوع – ....

(٢) قارن ابن باجة : ورقة ٦٤ الف : والتغير سيتبعه تغير إذ ينزل هذا التغير منزلة التغير المفروض . أيضاً ورقة ٥٧ الف : فيكون قبل كل تغير مفروض تغير يتقدم من ذلك النوع . وراجع أرسطو : Arist. : Phys. VIII. 2. 252 b 9 .

(٣) قال أرسطو : كل ما يتغير ينقسم . راجع : Arist. : Phys. VI. 4. 234 b 10 .

(٤) راجع النص ورقة ١٤٧ ب : لأنها غير منقسمة ....

(٥) المخطوطة : فكذلك .

(٦) أيضاً ، ورقة ١٤٩ الف : .... كان لها التغير بالعرض ؛ ورقة ١٥٢ الف : ويتغير في العرض .

(٧) أيضاً ، ورقة ١٤٣ الف : كما بين ذلك في الثامنة الخ .

(٨) المخطوطة : مانع .

(٩) أيضاً ، آخر ورقة ١٤٦ الف : متمازة بنفسها الخ . ورقة ١٥٠ ب : وجود الصورة التي يخصها .. .

ما كانت عند وجودها في المادة القابلة لها . فان كانت موجودة (١) لم تتكون لزم عن ذلك محال ، وهو أن تكون صورة المشار اليه قبل وجوده ، إماً في الحس والتخيل وذلك غير ممكن ، وإماً في العقل فقد يظن أن ذلك ممكن ، لكن سنبين هذا عندما نفحص عن القوة الناطقة .

فبينٌ أن الإحساس حادث . وكل حادث فهو بالقوة قبل أن يحدث . فكيف يمكن أن يكون الإحساس صورة مفارقة ويكون حادثةً ، لأن الحدوث إنما هو من قبل الهيولى ؟

فنقول : إن قولنا « هيولى » في القوة النفسانية وفي قوى الجسم باشتراك ، فإن الهيولى وجودها في الأجسام على أنها تتشكل بتلك الصورة ويصيران (ورقة ١٥٣) شيئاً واحداً يستقبل الفعل الذي في طباع ذلك الموجود ان يفعله كما تبين قبل هذا . وقولنا هنا « هيولى » إنما نعني به قبول المعنى وهو الذي يكون به الجسم الذي له مثل هذه القوة حساساً ، فإن القوة الهيولانية والقوة التي هي نفس ، كلاهما يقبلان اللون ، واللون في الهيولى هو صورة ، وهو والهيولى شيء واحد ، لا وجود لذلك اللون محضةً أصلاً . واللون في القوة الحساسة موجود بما يخصه . قد فارق هيولاه وصار شيئاً مشاراً اليه . ولذلك لم يمكن ان يقبل الهيولى المتضادين كالبياض والسواد المتغايرين فانهما (٢) لو قبلتها (٣) لكانا فيها متغايرين ، ولا تغاير بينهما أصلا ، وهما متغايران ذاتا (٤) ، فانها صورتان في ذات أحدهما ، أو كلتاهما (٥) مغايرة إحداهما للأخرى ، فلذلك

(١) أيضاً ، ورقة ١٥٠ ب : فان وجدت الخ .
(٢) المخطوطة : فانها .
(٣) المخطوطة : قبلها .
(٤) المخطوطة : ذاتا .
(٥) المخطوطة : كلاهما .

لا يمكن وجودهما[١] الا على نحوين . أما في موضوعين ، فإن ذلك ممكن ، وأما أن كانا في موضوع واحد ففي وقتين من غير أن يجتمعا معاً في موضوع واحد . ولما كانا في القوة الحسّاسة موجودين مفارقين لم يمتنع وجودهما معا ، وانما يستحيل وجودهما في موضوع واحد معا ، وليس انما يوجدان معاً في الجنس ، وبالجملة ففي قوى النفس ، بل قد يوجد ذلك في الهيولى في الألوان فقط . فإن الهواء الواحد بعينه الكائن بين الأبيض والأسود معا ، وذلك ان صورهما ليست في الهواء على ما هي الصورة في المادة بل بنحو متوسط بين القبول الهيولاني وبين قبول القوة النفسانية .

ولما كانت القوى إنما تحد بنسب الموضوع الى الملكة وبذلك تتميز قوة قوة في ذاتها ، فالقوة الحساسة هي الاستعداد الذي في الحاسة ، الذي يصير معنى ذلك المدرَك . والفرق بين المعنى والصورة[٢] ان الصورة تصير مع الهيولى شيئاً واحدا ولا يكون هنالك مغايرة . ومعنى المدرك هو صورة منفردة عن المادة[٣] . فالمعنى هو الصورة المنفردة عن المادة . فقبول[٤] قوة[٥] النفس معنى يجب أن يكون قبولاً له وهو معنىً فالقابل هو معنى ما بالقوة . وكذلك

(١) المخطوطة : وجود ما .

(٢) وابن سينا ميّز بين الصورة والمعنى فقال : (شفا ، ورقة ١٨٢ ب ١١) : وقد جردت المادة بأن يسمى مدرك الحس صورة ومدرك الوهم معنى .

(٣) وأوضح ابن سينا معنى الإدراك فقال (شفا ، ورقة ١٦٣ ب ٩) : « يشبه أن يكون كل إدراك هو أخذ صورة المدرك بنحو من الأنحاء ، فان كان الإدراك ادراكاً لشيء مادي فهو أخذ صورته مجردة عن المادة تجريداً ما ، إلا ان أصناف التجريد مختلفة ، ومراتبها متفاوتة ، فان الصورة المادية يعرض لها بسبب المادة احوال وأمور ليست هي لها بذاتها من جهة ما هي تلك الصورة ، فتارة يكون النزع عن المادة نزعاً مع تلك العلايق كلها أو بعضها ، وتارة يكون النزع نزعاً كاملا وذلك بأن يجرد المعنى عن المادة وعن اللواحق التي لها من جهة المادة » .

(٤) المخطوطة : فتناول .

(٥) المخطوطة : قوى ، وبالهامش ، قوة .

ليس إدراك النفس انفعالاً بوجه . وأما هل يكون بانفعال فسنبين بعد هذا . فالمنفعل قد يظن به أنه يقبل الصورة فقط ، وأن الحار بالقوة إذا صار حاراً بالفعل فلم يقبل معنى الكاين في المحرك ، والأشياء منه على ما قلناه قبل [١] . وإنما قبل حراً آخر فصار حاراً آخر شبيهاً بالأول ولا نسبة بين الحر الموجود في أحدهما الى الآخر بوجه . وانما النسبة التي بينها هي أن صورتها إذا تجردت كانت واحدة بالعدد . والمغايرة التي بين صورتيها الشخصية - إن جاز أن يقال لشخص الحر صورة - فإنه لا تغاير بينها وبين (ورقة ١٥٤ الف) الهيولى عندما يكون شخصا ، وقد لخص هذا في غير هذا الموضع [٢] . ولذلك حر أحدهما ليس معنى «حر» أن يكون مع الهيولى فيكون شخص [الحر] بعينه في النفس .

ولما كان معنى الشيء هو الشيء وكان معنى الشيء هو ما وجوده بالفعل ، ولذلك اذا حصل عندنا معنى شخص ما كان عندنا أن ذلك الشخص قد أدركناه بتلك القوى التي <هي> لنا .

وظاهر أن الإدراكات الحاصلة من الموجودات الهيولانية حادثة ، فانها إن لم تكن حادثة فهي أزلية . فإن كانت أزلية لزم من ذلك أن يكون ضرورة «زيد» قبل «زيد» ، وهذا الحار [٣] قبل هذا الحار . ولزم أيضاً أن تكون متحركة في المكان ، إلى غير ذلك من المحالات اللازمة .

(١) أي الأشياء من المحرك ، لعل ابن باجة يريد ما قال ان الصناعة من المحرك (راجع النص ورقة ١٣٩ الف ، منه أو هو الصناعة .) أو يريد ما قال : ان القوة المحركة . . . تفعل بالذات وأولا ما هو من نوعها ، وتفعل ثانياً وبالعرض شيئاً آخر (راجع النص ، ورقة ، والقوة المحركة فانها تفعل بالذات واولا الخ) والمعنى ان الأشياء من المحرك ، وإلا لم يقل ابن باجة بهـذه الألفاظ في هذا الكتاب .

(٢) الظاهر ان المصنف أشار الى ما قال ان المادة غير متحازة بالفعل عن الصور كما ان الصورة غير متحازة عن المادة بالفعل (النص ورقة ١٤٦ الف) .

(٣) المخطوطة : الحر .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأيضاً فمن الأمور الذائعة ان الاحساسات حادثة وهو متيقن عندما تأمل أيسر تأمل . وكل حادث فقد كان ممكناً وجوده قبل أن يوجد ، والإمكان والقوة على ما قلنا قبل[1] متلازمان . فهذه القوة هي في هيولى ضرورة ، وهذه الهيولى هي هيولى لمثل هذا الوجود . وقد جرت العادة أن تسمى روحانيا[2] [3] وغير جسماني وما أشبه هذه الألفاظ من الدلالة ولذلك لا تصير مع الادراك جسما ، لأن الجسم إنما يكون متى كانت الصورة غير مغايرة أصلاً ، وذلك أن تكون موجودة غير مجردة .

وقد يسأل سائل عن الإدراكات فيقول : هل هي في الهيولى التي لها مغايرة لها . فإن كان ذلك فالهيولى موجودة بالفعل وليست هيولى . وكيف يتصل ما ليس بجسم بما هو جسم الأ بأن تكون صورة فيه . وإن لم يكن مغايرة ما والأمر فيها مثل وجودها في الهيولى لم تكن مجردة .

ARCHIVE

فنقول : أما ان الادراكات في موضوع فذلك بيّن . لأنه لو لم تكن في موضوع لما كانت كائنة . وامّا انها والموضوع شيء واحد فذلك أنها كذلك ، وبذلك صار الإدراك شخصاً . فإنها لو كانت غير الموضوع جملةً لكانت نوعاً أو عقلاً . وسنبين ذلك إذا صرنا إلى القول في القوة الناطقة ، لأن القول هنا هو في النفس وقواها .

وامّا ان الصورة يلزم عمّا وضع أن تكون غير موجودة مغايرة للهيولى

---

(١) راجع النص ، ورقة ١٤٣ الف : فلذلك تلازما الخ .

(٢) « الروحاني » عند المتفلسفين منسوب الى الروح ، ويدلّون به على الجواهر الساكنة المحركة لسواها ، وهذه ضرورة ليست أجساما ، بل هي صور لأجسام ، وشكل هذه اللفظة غير عربي وهي دخيلة في لسان العرب في الصنف الذي جاء على غير قياس عند نحويّ العرب ، فان القيسة عندهم أن يقال روحي .... تدبير المتوحد ، نشر آسين ، ص ١٨ .

(٣) المخطوطة : روحاني .

فذلك غير لازم عما وضع . لكن يقتضي التشكيك أن يجري للوجود فيها [١] تغير وذلك ان الهيولى كما قلنا قبل انما هي موجودة بالنسبة الى ما هي هيولى له . والقوة على الإدراك هي قبول الصورة مخازة بوجود يخصها . فهيولى الإدراك مطبوعة على قبول معاني المدركات ، ومحركها المدرك من جهة ما هو مدرك . فإن هذه <الصور> الهيولانية بيّنٌ من أمرها أن لها في ذواتها وهي هيولانية هذه القوة ، وهذا التحريك هو لها من أجل وجودها الخاص . ولذلك توجد هذه في الفاعلة منها كالحرارة والبرودة (ورقة ١٥٤ ب) وفي المنفعلة كالصلابة واللين . وانّ ما يحرك الحركة المنسوبة الى الانفعال فانما يحركه أيضاً وهو في موضوع ويحرك هيولى أخرى من نوع الهيولى التي هي فيه . ونسبتها إلى ذلك المعنى نسبة الهيولى التي في ذلك المحرك الى الصورة بعينها في النوع . وهيولى الإدراك نسبتها الى الصورة نسبة أخرى تخصها ، فلذلك هي هيولى باشتراك الاسم . وهيولى المدركات يقال لها هيولى بالتقديم وانما يقال لهذه هيولى بالتأخير ، وعلى طريق النسبة بالمحسوس المحرك كالحار والبارد .

فله أوّلاً نوعان من التحريك لصنفين من الهيولى أحدهما [٢] للهيولى [٣] من نوع هيولاه ، والآخر لهذه الهيولى التي بها يكون محسوسا . وهذا التحريك هو لذي الجسم لا من حيث أنه ذلك الجسم . ولذلك [٤] إدراك الجسم الصغير والكبير واحد [٥] لا سيّما التخيل ، وسنبين لِمَ كان ذلك فيما بعد .

---

(١) المخطوطة : ممنا .

(٢) المخطوطة : احداهما .

(٣) المخطوطة : الهيول .

(٤) المخطوطة : وكذلك .

(٥) وهذا ما سرده ابن رشد (كتاب النفس ، الأهواني ، ص ٧٤ وحيدراباد ، ص ٦٩) : وتخص الصورة الحسية انها منقسمة بانقسام الهيولى بالمعنى الذي به تنقسم الصور المزاجية ، ولذلك أمكن فيها ان تقبل المتضادين معاً . والصغير والكبير على حالة واحدة .

ARCHIVE http://ArchiveBeta.Sakhrit.com

وإنما يتفاضل الإدراك من جهة أنه شديد أو ضعيف .

فقد قلنا ما القوة المدركة في الجملة . وهذه القوة هي نفس موجودة في الجسم المتنفس وهي [١] صورة مزاج المتنفس . والجسم الممتزج الذي له هذه القوة هو متنفس وحيّ .

ولما كان كلّ تكوّن فهو امّا تغير أو تابع لتغير على ما تبين في السماع [٢] وجب أن يكون الإدراك كذلك . ولما كان كل متغير فهو ينقسم [٣] ، وهذا ليس منقسم لزم ضرورة أن تكون هذه القوة مقترنة بجسم إمّا بنفسها أو بتوسط مقترن .

والادراكات النفسانية جنسان — حس وتخيل . ولا يمكن أن يتخيل ما لم يحسّ ولذلك [٤] لا يمكن أن يتخيل اللون ، فالحس يتقدم بالطبع التخيلَ لأنه كالمادة للتخيل . فالحس هو أول إدراك مقترن بالجسم فواجب ضرورة أن لا يكون حس دون تخيل ، إلاّ ان التغير ليس في المحسوس . والتغير صورة الحاس فالحاس ضرورة جسم صورته القوة الحاسة . فالحس بالجملة هو قوة لجسم ينفعل عن المحسوس يقترن بكماله كال القوة النفسانية التي <هي> فيه . ولذلك يلزم ضرورة أن يكون المحسوس مخيّلًا والحاس متخيلا [٥] . فلذلك الحر والبرد محسوسان بأنفسهما [٦] وأوّلا . وأمّا الصلابة واللين والخشونة والملاسة فستبين أمرها في القول على القوة اللمسية ، فهذا هو القول في الحس بالجملة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) المخطوطة : هو .

(٢) وابن باجة بيّن معنى « تابع لتغير » بألفاظه في السماع ، ورقة ٢٩ ب : « ويكون النسب تغير تابع لتغير فلذلك يكون في الآن وكذلك فسادها » .

(٣) قارن أرسطو : Arist. : Phys. VI. 4. 234 b 10 .

(٤) المخطوطة : وكذلك .

(٥) المخطوطة : مستحيلا .

(٦) المخطوطة : بأنفسها .

ولما[1] كان ليس كل قوة تحرك كل جسم ، وكانت الحركات كثيرة كانت الحواس كثيرة معادّة لحركات . ولما كان التحريك الذي به الحس إنما هو من أجل المعنى . والمعنى قوامه من أشياء كثيرة ، لذلك لزم ضرورة أن ترتسم (ورقه ١٥٥ الف) في الحس تلك المعاني غير منفصلة بعضها من بعض .

ولما كان ما به قوام الشيء إما مشتركة وامّا خاصة [2] . فالخاصة إنما تدرك بحاسة واحدة ، والمشتركة تدرك بالحواس التي يلحقها ذلك الأمر المشترك . فلذلك هو محسوس غير أوّل وهذا هو كالأطوال والأشكال .

ولما كان المعنى تلحقه أشياء أخر بالعرض لذلك لا ترتسم في الحاسة تلك الأشياء . هي محسوسة بالعرض كاللون فانه يقترن به أنه في الكاتب . فلذلك يقال ان الكاتب مبصر بالعرض . في هذه يغلط الحيوان الحاس [3] كثيراً . فأما وجود هذه القوة في الحيوان ، فقد قيل كيف ذلك في القول في تكوّن الحيوان وذلك في السادسة عشر من كتاب الحيوان [4] .

فهذا في الحس بالجملة .

والمحسوسات بالجملة كما قيل منها مشتركة ومنها خاصة . فالخاصة كما تبين ما انفعل عنها الحاسة . والعام [5] ما لم ينفعل عنه الحاسة . وإنما حصل بقوة عند حصول المعنى . ولذلك قيل ان المحسوسات المشتركة انما يدركها الحس المشترك

---

(١) المخطوطة : وكما .

(٢) أيضاً : Arist. : De An. II. 7. 418 a 15 sq. ؛ ابن رشد : كتاب النفس ص ٢٧ ، حيدراباد ص ٢٣ .

(٣) بالهامش : الحاس .

(٤) أيضاً : Arist. : De Gen. An. I. 23. 731 a 30 sq.

(٥) المخطوطة : العالم .

إذ لا تنفعل عنها الحاسة . إنما هي لتلك القوة <لا> لأنها هي مقترنة بالحاسة بل من أجل انها بالفعل . فان القوة اذا انفردت عن الحاسة كانت هي الحس المشترك . وانما تنفرد عن الحاسة اذا صارت شيئاً ما . وذلك بأن تدرك محسوساً ما . فالحاسة ضرورة الوجود في الحس على ما تبين قبل [١] . ولذلك لا يمكن أن تخلو [٢] هذه القوة من المحسوسات جملةً . لأنها موجودة في الجسم . وانما المحال بأن توجد هذه مفارقة لا تقترن بجسم ، وهذا هو أحد المحالات التي لزمها التشكك المكتوب قبل هذا .

فلنقل في أصناف الحس .

(يتبع) محمد صغير حسن المعصومي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) راجع النص ورقة ١٥٠ الف ؛ ووجوده محركاً ظاهر بنفسه والمتحرك هو الحاسة الخ .

(٢) المخطوطة : تخلوا .

التعريف والنقد

ديوان ابن الخياط

تحقيق الأستاذ الرئيس خليل مردم بك

طبعة المجمع العلمي العربي، بدمشق ١٩٥٨ في ٣٤٨ صفحة + ٤٩ صفحة للمقدمة ، مع عشرة ألواح مصورة

سعى المجمع العلمي العربي بدمشق ، منذ نشأته ، إلى حماية اللغة العربية ، والعمل لإحياء آثارها ، فكتب أعضاؤه في مجلتهم مقالات ضافية في التبصير بها ، والتعريف ببلاغتها ، وتنقيح مفرداتها ، واختراع كلمات أو مشتقات لما يعرض على المجمع ، أصبحت كلها مرجع العلماء والدارسين . وعمل الأعضاء كذلك على نشر الذخائر العربية في ميادين الشعر والفلسفة والتاريخ والآثار نشراً يحمده العارفون ويشيدون بأيادي المجمع في السعي له على اخلاص ووفاء .

ولرئيس المجمع العلمي العربي الأستاذ خليل مردم بك يد طولى في إخراج التراث العربي وتحقيقه ودراسته . فقد ألف رسائل في أدباء العرب وشعرائهم وخص شعراء الشام بعنايته وحبه ، يريد أن يصور هذه الحلقة البارعة منذ القرن الرابع إلى سقوط الشعر في عصر الانحطاط ، و ن يسجل تطور الشعر في هذه البلاد ، وأن يصف أعلامه ، لأن الدراسات المعاصرة لتاريخ الأدب ظلت أكثر هؤلاء الشعراء ، فلم ترسم أثرهم ولم تحدث عن دواوينهم ، وكاد شبابنا يجهلون كل شيء عن هذه الحقبة من أدبنا ، وأصبح كثير منهم يتهم ثروتنا الفكرية والأدبية ، وينصرف عنها إلى غيرها من الآداب الغربية المنظمة المبوبة الميسرة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد قام الأستاذ مردم بك بهذه المهمة ليسدّ هذه الثغرة ، في أناة وصبر ودقة ، فأجال النظر في الدواوين ، وأطال البحث في عرضها وضبطها ، والتقديم لها بدراسات دقيقة مفصلة ، فأخرج دواوين عليّ بن الجهم وابن حيّوس وابن الخياط وابن عنين ، وهو في سبيل إخراج ابن القيسراني . والدواوين الأربعة الأخيرة حلقة متكاملة تمثل شعر الشام من أواخر القرن الرابع الهجري إلى أواسط القرن السابع ، أي منذ (سنة ٣٩٤ هـ — إلى سنة ٦٣٠ هـ) خلال ما يزيد على قرنين .

وهؤلاء الشعراء أمسكوا بزمام الشعر في دمشق بعد الحمدانيين في حلب ، وأصبحت هذه الحاضرة العربية على وشك أن تعيد لهذه الربوع مجدها القديم في الأدب . فلمع ابن حيّوس (٣٩٤ — ٤٧٣) ، وابن الخياط (٤٥٠ — ٥١٧) وابن القيسراني (٤٧٨ — ٥٤٨) وابن عنين (٥٤٩ — ٦٣٠) كما لمع ابن منير الطرابلسي والغزي وابن الساعاتي ، وحملوا الراية عن أساتيذهم وأسلموها إلى أبنائهم ، كما يفعل القادة في الحرب سعياً وراء النصر والرفعة والمجد .

والأدباء النقاد شكروا يد الأستاذ مردم بك في نشر ابن عنين وابن حيّوس ، ورأوا في جمعه المخطوطات من أطراف الأرض لها ، وصبره الطويل في تصيّد أخبارهما ، وجمع أشعارهما من المصادر المخطوطة والمطبوعة صبراً وسعياً يستحقان الحمد والثناء . وسيشكرون له هذه اليد الجديدة في إكمال هذه السلسلة ، والسير قدماً بانجازها في اخراجه ديوان ابن الخياط ، فقد أخذ ابن الخياط عن ابن حيّوس ، وخلفه في ميدان الشعر وسدّ مكانه ، وفاقه في نواح كثيرة . وكان عليه أن يعمل له كما عمل لأستاذه ، فصبر وسعى خلال سنوات عدة ، حتى إذا استكمل العدة ، استجلب نسخه المصوّرة من أطراف العالم ، لجمع النسخ من المغرب ومدريد وكوبنهاغ ودمشق

والمدينة المنورة والقاهرة حتى بلغت ثماني نسخ هامة ، نُقِل جلّها عن الشاعر نفسه على يد تلميذه ابن القيسراني . فقد أملى عليه شعره واختاره له ، وأسقط منه ما أراد ، فكأنه أشرف بنفسه على طبعه ونشره بين الناس لهذا العصر .

فديوان ابن الخياط بلغ مرحلة من النسب والرواية والتواتر لم تبلغها إلاّ القلة من الدواوين ، أملاه الشاعر ورواه التلميذ وحققه المحقق على ما تواتر ، فجاء على ثقة ودقة قلما يصل اليها كتاب أو ديوان إلاّ في الندرة بعد الندرة .

وهذا نصر كبير في إخراج النصوص وتحقيقها ، يطمئن إليه العلماء ، ويثق به الأدباء والرواة ، ويركن اليه الدارسون المؤرخون ، فكأنه كما يقول الفريبون «طبعة نهائية» عن وثائق ومخطوطات قيمة قديمة ترقى الى عهد الشاعر في القرن السادس ، لم يختلف إليها دس أو إضافة إلاّ ما كان من عمل النساخ والقراء ، وقد صوّر المحقق في حواشي الديوان هذا الاختلاف في أمانة بالغة ، ليرمم ما طرأ على النسخ من أمور طفيفة ، لا تكاد تؤثر في جوهر الشعر ، تقع للشاعر نفسه حين يستبدل حرفاً بحرف أو لفظاً بلفظ أو يستحسن تبديل كلمة بكلمة ، كما نفعل حين نؤلف أو ننظم .

فالديوان على هذا صورة لما تركه الشاعر وأراده ، بل انه صورة فوق ما كان يحلم بها الشاعر من طباعة جميلة ، وترقيم واضح ، وفهرسة قريبة ، كأنه لشاعر معاصر في العرض والاخراج ، أضاف اليه المحقق مقدمة في العصر والرجل جهد فيها ما استطاع ، فوقف دون كثير من أمور حياته وعيشه لأنه بلغ إلى الديوان فحسب ، ولم يبلغ إلى ترجمة له بقلم تلميذه أو تعليق عليه أو شرح له وتفسير ، كما فعل ابن جني للمتنبي ، وابن خالويه لأبي فراس الحمداني ؛ بل إنه لم يصل إلى مكتوبات ابن الخياط في النثر فقد ضاعت .

والشعر في الديوان لا ينير كل شيء ولا يعين على المطالب كلها ، والمترجمون بعده لم يفيضوا في أمر حياته ، لأنهم كانوا يسعون الى الايجاز فيترجمون للأعلام في سطور ، وهمهم أن يجمعوا عدداً كبيراً من التراجم . ومن همنا اليوم أن نسأل عن كل شيء ممن نترجم لهم ونعنى بهم ؛ وكل يسعى الى سبيله ويمضي إلى غايته . لهذا جهد الأستاذ المحقق جهداً كبيراً ، فاستنتج من الشعر ، واستنطق المصادر إلى حدّ بعيد ليخرج من ذلك بدراسة جميلة كانت كأحسن ما يستطيع محقق أن يفعل .

قصّ حياة ابن الخياط منذ الصبا حتى الوفاة . عرفنا منها أن ابن الخياط عاش صغيراً في باب الجابية بدمشق ، وكانت داره على مقربة من دار الأمير أبي الفتيان ابن حيوس . وكان عليه أن يتعلم صنعة أبيه ، فيكون خياطاً مثله . ولكن الأقدار لفتت الغلام إلى حياة ابن حيوس ، ودفعته إلى أن يعجب بموقعه من السلطان والجاه والمال ، وأن يجلي في قرارة نفسه أن يكون مثله وأن يقع من قومه موقعه ، فأصبح الفتى يقرأ من شعر القدماء ويحفظ من أقوالهم وأخبارهم حتى انقلب عن صنعة أبيه إلى صنعة كانت تدر على أصحابها الألقاب والأموال والمناصب . وظل كذلك حتى أتقن صناعة الكتابة والنظم ، وأصبح معنياً بها يسعى إلى وظيفة عند الأمراء . فلما قامت الفتن في دمشق ، ووقعت فيها الحرائق والنهب وغلبت المجاعة هجر كثير من أهليها المدينة ، وانتشروا في الأرض ، فأصبح عدد السكان بدمشق سنة ٤٦٩ ثلاثة آلاف نسمة ، بعد أن كانوا خمسمائة ألف . وهاجر الشعراء والكتاب فيمن هاجر ، فنزح ابن حيوس إلى أمراء حلب ، ونزل ابن الخياط بحماة فعمل كاتباً لأمير فيها وظل عاكفاً على الشعر يقرضه وينشره بين الناس . ثم خطر له أن يزور جاره القديم ابن حيوس في حلب ،

سافر اليه وعرض عليه شعره ، فأعجب به ، ووصله بمال ، ونصحه أن يقصد بني عمار في طرابلس الشام .

فلما بلغ السادسة والعشرين من سنيه ، سافر إلى طرابلس عملاً بوصية جاره وأستاذه ، ولبث فيها عشر سنوات ، يفيد من خزائنها العامرة وأساتيذها وعلمائها ، حتى تمكن لسانه وقوي بيانه واستدّ ساعده ، فعاد إلى دمشق ولزم وزيرها الأصفهاني ، وصحبه إلى الريّ وخراسان ، وقفل راجعاً سنة ٤٨٧ وهو في السابعة والثلاثين . وظل في إنشاد الشعر وملازمة الرؤساء والأمراء يعيش بقلمه وشعره حتى مرض ، وقضى في السابعة والستين من عمره ، بدمشق ٥١٧ هـ . ودفن في الأرض التي أحبها وتعلق بها ، وظل مشوقاً اليها في رحلاته ، وقد طارت شهرته وعلت مكانته ، وحلّ من قومه محلّ الفحول ، فكان شاعر الشام لعصره كما تمنى وأراد .

ولعلنا أسرفنا ولكننا أردنا أن نرسم هذه الخطوط الكبرى عن المقدمة في حياة شاعر تنقل في البلاد ، فزار حماة وصور وحلب وطرابلس والريّ وخراسان . وعرف الناس وطبائعهم ، وسمع اللهجات واللغات ، ورأى ما رأى وسمع ما سمع ، فخلف مكتوبات في النثر وقصائد في الشعر ، قلنا إن الأولى ضاعت وسلمت الثانية ، فكانت من أجود الشعر ، تملك صاحبها ناصية الديباجة ، واستوى مع الفحول ، فحاكاهم في استعاراته وكناياته ، وبذ كثيراً منهم برقته وسلاسته حتى قال فيه ابن عساكر : « ختم بابن الخياط ديوان الشعر بدمشق » . وقد استطاع على اضطراب بلده وقلق عيشه ورقة حاله وتنقله في الأمصار وراء العيش أن يكون شاعراً مطبوعاً ، فصيحاً ، جزلاً من غير إغراب ، عليه طلاوة المحدثين وحلاوة المجيدين ، فله بين الشعراء مرتبة ، تعيد إلى دمشق صولجان الشعر ، وتنافس مدرسة الحمدانيين في حلب ، يدل على ذلك قوله :

والمرء من شنّ في الأيام غارته فبادر العيش باللذات وانتهبا
من شاء [1] فليتخذ أيامه فرصاً فليس يوم بمردود إذا ذهبا
هل الصبي غير محبوب ظفرت به لم أقض من حبه قبل النوى أربا
إني لأحسد من طاح الغرام به وجاذبتـه حبال الشوق فانجذبا
والعجز أن أترك الأوطار مقبلةً حتى إذا أدبرت حاولتها طلبا

فهي ألصق بالجيل من الشعر المعاصر في سلاستها . وله في الديوان كثير من المرقص المطرب لا يحصيه مقال في النقد مهما طال .

هذا هو الشاعر ، وهذا هو الشعر الذي نهض له الأستاذ خليل مردم بك يجود في تحقيقه وإخراجه ، وجوّد في مقدمته ودراسته ، وأفاض حين وقف له ينقد لغته ، ويتناول هناته في الاشتقاق والاستعمال حتى حسبنا أن الدراسة لعالم لغوي في القرن الرابع الهجري وقف ينكر على رصيفه المعاصر ألفاظاً ترد عن العرب في المعاني التي استعملها ، ويأخذ عليه تجوزه في النحو واللغة والبيان ، فيعدّد أمثلة من شعره فيها كلمات : « هناء ، وخراد ، والأخمص ، والأقمص ، والنضاج ، والركاز ، الخ . . . » وصحيحها : « هناءة ، وخرائد ، وخميص ، وقمص ، والنضج ، والركز » . وليس هـذا كلّ ما أخذ عليه ، وانما ساق أمثلة كثيرة نحيل القارئ فيها إلى المقدمة الممتعة ، ليرى معنا أيّ جهد ساق المحقق ، وأيّ عناء قاسى ، وأيّ سهر نهض له في الدراسة الجديّة التي نراها أقوى ما خرج من قلم الأستاذ خليل مردم بك في صدور دواوينه .

ولو جمعت هـذه الدراسة في ابن الخياط إلى دراساته في ابن حيوس

(١) اختار المحقق : « ما شاء » ؛ فخالف سبع نسخ ، ولعلنا نطرب لهذه الصيغة التقليدية أكثر من طربنا لما وضع وفضل .

وابن عنين وغيرهما ، وطبعت جميعها في كتاب مستقل لكانت تأريخاً للأدب العربي في دمشق خلال تلك الحقبة ؛ ترسم للأدباء والعلماء والمؤرخين سبيل البحث ، وتسد ثغرة كبيرة في أدبنا العربي . فاذا جمعت الى قريناتها مما قد يصنع زملاؤه بالعراق ومصر لشعرائهم كانت كتاباً ضخماً في تاريخ أدبنا ، تظهره على حقيقته ، وتنير جوانبه الخفية ، وتمكن لآدابنا بين آداب الأمم ؛ فقد وقفنا أنفسنا على دراسة عدد محدود من أدبائنا الفحول حتى ظن الناس أنهم وحدهم أدباؤنا وأن عصورنا الأخرى عقمت عن قول الشعر ، والغرب لا يقف عند شكسبير وغوته وهوغو ؛ وانما يتعداهم إلى غيرهم ليصور العصور الأدبية كلها . وأظن أننا شرعنا نفعل لدراساتنا كما فعل الغربيون لدراساتهم ، فانطلق جيلهم إلى الجديد كما ينطلق جيلنا إلى الجديد ، لأن البناء الشامخ يقوم على القواعد والأسس ، والشجر السامق يعتمد على انتشار جذوره في الأرض ، وذلك يعين الدراسة الأدبية في جامعاتنا ، حين يتم دور النشوء وتبلغ إلى دور الارتقاء والعمل الخصب الصحيح .

الدكتور سامي الدهان

الثقافة الإسلامية في الهند

«عوارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف»

تأليف : السيد عبد الحي الحسني «١٢٨٦ - ١٣٤١ هـ»

(من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م)

هذا الكتاب النفيس غزير المادة ، واضح البيان ، ألفه العلامة الكبير السيد عبد الحي الحسني ، والد صديقنا الأستاذ أبي الحسن السيد محمد علي الحسني الندوي الشهير ، وطبعه مجمعنا العلمي العربي له ، ووقف على طبعه السيد رضوان الندوي ، من تلامذة الأستاذ أبي الحسن ، وفي طليعة الكتاب ترجمة

لمؤلفه كتبها ابنه الأستاذ أبو الحسن ، وأوضح فيها حسبه ونسبه ، وأساتذته ، وعلومه ، ومصنفاته الكثيرة ، وجاءت بعدها مقدمة المؤلف التي أوجز فيها مجمل هذا الكتاب ، وقد كان ألف قبله كتابين في موضوعه : (الأول) في ثماني مجلدات ، ذكر فيه حملة الأخبار ، ونقلة السير والآثار ، والفقهاء والحكماء ، وذوي النحل والآراء من أهل الإسلام ، ممن ولد أو مات في أرض الهند (قبل التقسيم) ، (والثاني) في الجغرافية والتاريخ ، والخطط والآثار . وهذا الكتاب الذي عني المجمع بطبعه يقع في (٣٥٠) صفحة ، ولكنه — على اختصاره — بحر لا يتطلى ثبجه ، ولا تحصى فوائده وفرائده ؛ فقد ذكر فيه أنواع العلوم والفنون ، والمعارف البشرية ، وذكر ما لعلماء الهند في كل منها من مصنفات من بعد أن سرد ما لغيرهم فيها ، وأودع مؤلفه هذا تاريخ نظام الدرس في الهند جيلاً بعد جيل ، وتاريخ الفنون الأدبية ، فتاريخ العلوم الشرعية الدينية ، ثم تاريخ الفنون النظرية كالمنطق ، وعلمي الطبيعيات والإلهيات ، والحكمة العملية ، والفنون الرياضية ، وفي الصناعة الطبية على اختلاف العصور ، إلى القرن الرابع عشر ، مع ذكر المصنفين ، وما عرف من تاريخ وفياتهم ، وكانت خاتمة هذا الكتاب الجليل في أسماء بعض الكتب العلمية المنقولة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جمع المصنف رحمه الله كتابه هذا في أربعة أبواب ، الأول منها في علوم اللغة والأدب والتاريخ ، والثاني في العلوم الشرعية والدينية ، والثالث في العلوم العقلية والفنون النظرية ، والرابع في الشعر والشعراء من أهل الهند . وداخل كل باب فصول كثيرة ، وهو يخص كل فصل منها بعلم من تلك العلوم ، ويسمي الكتب المؤلفة فيه قديماً وحديثاً ، ويذكر مصنفات علماء الهند المسلمين (سنة وشيعة) وغير المسلمين ، وما ألف أو ترجم في اللغات العربية والفارسية والأوردو والإنكليزية ، وكثير من علمائهم يؤلفون بالانكليزية أو ينقلون عنها ، وينقلون عن الفرنسية أيضاً .

وكتابه هذا يفضل في ترتيبه مثل (كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون) ، فإن مؤلف (الكشف) رحمه الله قد رتب علومه على حروف الهجاء ، بحيث تذكر الألف مع الباء ، ثم مع التاء الخ ... ، فاضطر أن يذكر فصولاً يفرّق فيها ما حقُّه أن يكون مجتمعاً . فقد ذكر في أول علوم القرآن مثلاً (ص ١٢٠) علم إعجاز القرآن وإعرابه ، ثم أورد علوماً كثيرة في حرف الألف مع الغين والفاء والقاف والكاف واللام ، كعلم الآلات الحربية والرصدية ، ثم عاد فذكر في حرف التاء علم التجويد (ص ٢٥٥) وفي التاء مع الشين علم تشبيه القرآن واستعاراته ، (ص ٢٨٦) وبينها فنون مختلفة .

مما يلاحظ – في عرض نماذج من الشعر الهندي في مختلف العصور – أبيات فيها من سؤال المخلوق ، ما لا يقدر عليه إلا الخالق سبحانه ، وما يحرم طلبه من غيره .

ويلاحظ في «تراجم القرآن الكريم» أنها كثيرة بالأوردو ، وقليلة بالانكليزية ، «ومنها ما هو ترجمة حرفية» ص ١٦٩ .

وأقول : إن المعقول أن تبلغ دعوة الإسلام إلى كل أمة بلغتها ، وتدرس الخاصَّة القرآن والعلوم الدينية ، والفنون العربية والأدبية بلغة القرآن ، ليتذوقوا إيجازه وإعجازه ، أما الترجمة الحرفية ، فهي متعذرة في كثير من كلماته ، لا سيما أسماء الله تعالى وصفاته ، وكنت كتبت في مجلة المجمع العلمي : لأن العربية انتشرت – تبعاً للإسلام – في قارات الأرض الثلاث : آسية وإفريقية وأوربة ، ودخلت أمم كثيرة في العروبة والإسلام ، فهل كانت تلاوة القرآن ودراسته بلغته إلا هدى ورحمة ، وإحساناً وتوفيقاً ، «تآخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدنية كانت زينة الأرض ، وضياء ونوراً لأهلها» . ومؤلفات الأعاجم في لغة العرب تبلغ الألوف الكثيرة ، وحسبك ما أورده المؤلف منها في كل علم وفن .

وقد رأينا في لاهور عام المؤتمر (سنة ١٩٥٧) وفي العاصمتين كراتشي ودلهي من علماء الهند الأجلاء من يلتزمون العربية الفصحى قولاً وكتابة وخطابة ، وهي لغتهم في يومهم ومجتمعهم .

ثم نقل المؤلف فصلاً في تاريخ التصوف ونشأته عن مقدمة ابن خلدون ، وآخر في تاريخ الفرق الإسلامية ، كالإمامية ، والجهمية ، والمعتزلة ، والمجسمة ، والقرامطة ، وفي المأمون ، وفتنة المعتزلة ، وأبي الحسن الأشعري ومذهبه وأئمته ، والماتريدي ، وكل ذلك مأخوذ من كتاب « الخطط والآثار » للمقريزي ، ثم مذهب الشيعة الإمامية ، وكيف ظهر وانتشر في الهند في القرن الثامن ، على يد الشيخ علي الحيدري ، وكيف تشيع الملوك والأمراء ، وأكره عدداً من غير المسلمين على التشيع ، حتى قبل إن (٣٤) ألفاً من الهنادك تشيعوا ، ثم تسلسل ذلك في الدعاة والسلاطين والرعايا ، وتشيع نظام شاه (٩٤٤ هـ) على يد الشيخ طاهر بن الرضي الهمداني ، ولقنه الولاء والبراء ، وتشيع معه ثلاثة آلاف نفس من رجاله ، وأخرج أسماء الخلفاء الثلاثة من الخطبة ، ووظف اللاعنين عليهم في جميع بلاد الدكن (ص : ٢١٧ — ٢١٨) . ثم تفرق الإمامية في بلاد الهند ، وجمع دعاتهم الناس على الصلوات الخمس ، ورضي ولاتهم في ذلك (في ١٣ رجب سنة ١٢٠٠ هـ) وكان آصف الدولة وأخلافه يبذلون العطايا وأقطاع الأرض على المتشيعين ، فتشيع كثير من الناس طوعاً وكرهاً ، وكانت فتنة عظيمة ، ثم صنف الشيخ عبد العزيز بن ولي الله المحدث الدهلوي كتابه المشهور (تحفة اثنا عشرية) ، وصنف الشيعة في الرد عليه عدة كتب ، وتصدى أئمة السنة لها ، وألفوا كتباً كثيرة في الرد عليها ، وفي « الثقافة الإسلامية » أسماء هذه النقود والردود . ثم الكلام بين النصارى والإسلام ، وبين الإسلام والهنادك ، وديانة القادياني والردود عليها ، ومذهب

التيجريين (الطبيعيين)، والمراد بهم أتباع أحمد بن محمد الدهلوي المتوفى (سنة ١٣١٥ هـ)، والردود على تأويلاته العجيبة الغريبة، ورسائل في السنة والبدعة، والتوحيد والشرك.

ثم علم المناظر (ص ٢٧٢) الذي قال فيه المؤلف رحمه الله: (ومن يريد أن يقف على صنائع أهل الهند، فله أن يذهب إلى اگر، ودهلي، ويقرأ الكتابات في الجوامع والمقابر، وأن يرى القباب والمنارات، لا سيما في روضة (تاج كنج) (ضريح التاج محل) ببلدة اگره، لعله يتحير منها، ويطير عقله ولبه من حسن الصنعة). وأقول:

قد زرنا تلك الأماكن، ورأينا ما يأخذ بالألباب، وأعجبنا بها كل الإعجاب.

وهذه النبذة اليسيرة لا تغني عن مراجعة هذا الكتاب، الذي أثبت فيه مؤلفه فضلاً كبيراً لأهل الهند في كل علم، لا سيما في علم الصحة والطب، والكتب في أنواع الأمراض وعلاجها، والاكتشافات الطبية لأهل الإسلام، ممن وقف على هذا وغيره ـ بعد وقوفه على مثل الفهرست لابن النديم، وكشف الظنون، وما زاده المتأخرون كصديق حسن خان (والمؤلف ينقل عنهما وعن غيرها) ـ يرى إلى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة علوماً وكتباً واسعة، وفصولاً مهمة بارعة، وما ذكرته قليل من كثير، ولا يغني عن مطالعة هذا السفر الجليل، فرحم الله المؤلف، وأثابه عليه أجزل الثواب، وجزى مجمعنا العلمي الذي قام بطبعه خير الجزاء.

ديوان السيد موسى الطالقاني ١٢٣٠ ـ ١٢٩٨ هـ

تحقيق واعتناء : محمد حسن آل طالقاني

مطبعة الغري الحديثة ـ النجف

الشعر مادة الأدب ، وديوان العرب ، فهو مرآة أخبارهم ، ومجلى آثارهم ، ومحط رحالهم ، وقد قال قائلهم :

إن لم تقل إن نظم الشعر مكرمة فأي مكرمة أبقيت للعرب
بان الكرام فلا عين ولا أثر إلا أساطير قد سطّرن في الكتب

وأمامنا الآن ديوان الشاعر الناثر العلامة السيد موسى الطالقاني النجفي ، وديوانه هذا كبير الحجم ، مؤلف من (٤٣٤) صفحة بالقطع المتوسط ، ماعدا الفهارس المتنوعة ، وقد بلغت نحو أربعين صفحة ، منها تسع للمقدمة ، وها هي ذي : فهرس المواضيع ، والقوافي ، والأعلام ، والقبائل ، والأسر ، والبيوت ، والبلدان ، والأمكنة والبقاع . ومثلها فهارس الديوان ؛ وفي أوله تقريظ للعلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، فكلمة إهداء من محققه وناشره الأستاذ الأديب السيد محمد حسن الطالقاني النجفي إلى أستاذه البحاثة المؤرخ الجليل الشيخ آغا بزرك الطهراني ، وقد زيّن كلمته بصورة شيخه ، ثم أتبعها بنشر صورته ، ووصفها ببيتين من شعره .

وفي صدر الديوان وصف لأسرة الطالقاني ، وكلمات موجزة في تراجم أجداد ناشر الديوان منذ هاجر جدهم الأعلى من طالقان (بلدة في إيران) إلى النجف (من سنة ٩٣٥ إلى عصرنا ١٣٧٦هـ) ، وفيه نبذة من ترجمة السيد محمد حسن الطالقاني ، وهذه التراجم بقلم شيخه العلاّمة الطهراني ، وتلي ذلك حياة الشاعر الكبير السيد موسى بقلم المحقق السيد محمد حسن ، مهّد لها بكلمة في الشعر

والأدب في البقاع والبلدان ، وخص أدب العراق بما فيه من طيب الأرض، وحسن المنبت ، ونوه بفضل النجف في ذلك على غيره ، ثم أتى على ترجمة صاحب الديوان ، فذكر نسبه وأسرته ، ونشأته ، وأساتذته ، ومكانته العلمية ، ومنزلته الاجتماعية ، وأخلاقه وصفاته ، وشاعريته القوية ، وآثاره ، وأولاده وأحفاده ، وأقوال العلماء والأدباء فيه ، وختمها بوصف النسخ التي قوبل بها الديوان ، وظروف نشره .

قسم ناشر الديوان هذه المجموعة الكبرى التي اشتملت على نحو ستة آلاف بيت ، والتي عانى في جمعها السيد الحسن ما عانى ، قسمها ووزعها على المدائح والمراثي ، والوجدانيات ، والتهاني ، والموشحات ، والحماسيات ، والتخميس والتشطير ، والمراسلات ، والإخوانيات ، وختمها بالمتفرقات ، وفي هذه الأبواب كلها إبداع وإمتاع ، وشعر يفيض رقة وشعورا ، وفخراً وحماسة ، وشمماً وإباءاً ، وعزة وعلاءاً ، وعلاوة على كون مؤلفه من فحول رجال القريض ، فهو من شيوخ العلم الأجلاء .

وقد ازدان الديوان بما ذيّله به ناشره من تعليقاته المفيدة ، وآرائه السديدة ، واستدراكاته العديدة ، وقد جاء بحمد الله كما قال : « كتاب تاريخ كما هو ديوان أدب ، حوى كثيراً من التراجم والسِّيَر ، والأمثال والحكم ، والشواهد والفوائد ، ومثل هذا اللون هو المطلوب لدى رجال البحث والتحقيق ، ومؤرخي الأدب » . وقد استفدنا من فوائد هذه التعليقات أضعاف ما استفدنا من الأصل ، لا سيما تاريخ الأسر العلمية في النجف ، وكثير من أعلامها ، وقد ذكر المراجع الخطية والمطبوعة منها ، وأشار إلى أجزائها ورقم صفحاتها ، وألمع إلى من سبق المؤلف إلى بعض المعاني البديعة في شعره ، وأورد الشواهد على ذلك من كتب الشعر والأدب والتراجم .

وقد ذكر الأستاذ الناشر طائفة من أقوال العلماء، وآراء المؤلفين والأدباء في صاحب الديوان وشعره، وفضله وعلمه، وأقول: لا شك في أن شعره يشف عن سلامة ذوقه، وسمو روحه، وكرم عاطفته، ونزاهة قصده، وعفته وزهده بما في أيدي الناس، فقد كان رحمه الله واسع الحال، موفور الحظ، غنياً عما في أيدي الناس بما أسبغ المولى عليه من نعمه، فقد كان ملاً كا له نخيل وضياع، تغدق عليه من خيراتها ما يكفل له أطيب عيشة، كما ذكر في ترجمته: «ولذلك نجد معظم شعره الغزل الذي كان يؤنس به نفسه، ويفرح قلبه، ويبث أشواقه، ولم يكن ليفكر بالنظم في غيره، وقد خلق شاعراً بطبعه لأنه يكره مدح الناس»[1].

وتجد الجواب بعد هذا في المقدمة عن مدحه لقريب أو صديق، أو ذي شان وسلطان، قال:

شهد المجد أنني لست ممن ... باع درّ الأشعار بالأثمان
لا ولم أهده لغير حبيبٍ ... ذي ودادٍ في السرّ والإعلان
أو لريمٍ يرمي القلوب بطرفٍ ... ناعسٍ يوقظ الهوى يقظان
بات رهن الحسان قلبي وياضيـ ... ـمة قلب يبيت رهن الحسان

وقد استغرقت قصائده الغزلية التي سميت بـ «الوجدانيات» مائة وأربعين صفحة من ديوانه، وحسبي أن أورد شواهد منها تدل على سائرها، قال (ص ١٠٠):

أسرتني ذات السوار ولا مَنْ ... ن لديها ولم أجد من فداء
عقد زنارها يحل قوى الصبر (م) ويوهي - إي والهوى - أعضائي

وقال (ص ١٠٥):

لقد أصبحت ذا كلف طروبا ... وكم منيت نفسي أن أتوبا

---

(١) ص ٥٧ من المقدمة.

ولاح الشيب وهو وقار غيري   وطفل الشوق لا يرعى المشيبا
فدع عنك النسك واسقنيها   لعلي أن أحسّ لها دبيبا
عقاراً مثل خدّ الحب لونا   أرى بين الضلوع لها لهيبا
لئن سبت العقول فكم أزلنا   بها عنا الوساوس والكروبا

وقال (ص ١٠٧) :

كفته عن الحراس ليلاً ذوائبه   وأغنته عن حمل السلاح حواجبه
نبي إلى العشاق أرسل هاديا   إلى الحب يدعو والقلوب تجاوبه
فسفك الدما والتيه ، والصدّ والجفا   ونقض عهود العاشقين مذاهبه
ألا فاسقني من سلسبيل رضابه   فياربما يُطفي من القلب لاهبه

وكنت أرجو ألا أجد في ديوان هذا الشاعر المبدع ما ينأى عن شعره القومي ، وقصده السوي ، وكان له في أبواب الديوان ما يغنيه عن وصف بنت الحان والألحان ، وعن الغواني الخرّد الحسان ، وسائر ما يغري بوصفه المستعدين من الشبان ، ولكنها سنة كثير من شعراء العلماء ، فهم ينهون عن احتساء الصهباء في كتبهم الدينية ، وينأون عنها ، وتراهم يغرون بها في قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية ، وكان لهم من مشاهد الكون ومن آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس ، ما يدعو الناشئين إلى الجد في العمل ، ويغني مقلدي شعر الجاهلية عن وصف الطلل ، والوقوف « بسقط اللوى بين الدخول فحومل » .

ويلاحظ في أمر المديح والاطراء ما هو أدخل في الإغراء ، وأخطر في باب الدعاء ، بدعاء من لا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وطلب ما لا يطلب إلا من الغني القوي القادر ، القائل : « ادعُوني أستجب لكم » « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » . وهذه الأبيات المفردة تدل على قصائدها ، وعلى ما هو في معناها مما استُشهد به من شعر غيره . قال مخاطباً أمير المؤمنين عليًا عليه السلام :

أنت الوجود وفيك قد وُجد الورى ولأنت منظر ربنا والمسمع
(ص ٩)

كَرْبٌ أَلَمَّتْ بالفؤاد وعندها صدري يضيق
ولأنتَ ياغوث الصريخ بكشفها عني حقيق
(ص ١٠)

وقال مستغيثاً بالمهدي المنتظر :

رام الزمان هواني واستصغر الدهر شاني
فقلت مهلاً سأشكو إلى إمام زماني
(ص ١٣)

وقال مخاطباً الإمام موسى بن جعفر (ع م) :

تَمَنَّتْ منك أن تُقضى ديوني وأرجو أن تبلّغها مناها
(ص ١٣)

لا تخف هول نكير في غد أو منكر لا، ولا تخش عذاب الله يوم المحشر
(ص ٦٢)

هو عين الله فينا والصراط المستقيم وهو للجنة والنيران ـ في الحشر ـ قسيم
(ص ٦٣)

لم يكن آدم لولاه ونوح في الوجود لا، ولم تؤمر له الأملاك يوماً بالسجود
(ص ٦٣)

لم يكن لولا عليٌّ مَلِك أو ملَك لم تكن لولاه تسري فلكها والفلك
(ص ٦٣)

وصي المصطفى حقاً قسيم النار والجنهْ

(ص ٣٤١) أحد بيتين عزاهما للشافعي .

والجواب عن هذه الأبيات الشعرية وما ماثلها في قوله تعالى خطاباً لخاتم رسله وأفضل خلقه : « قل إني لا أملك لكم ضرّاً ولا رَشَداً ، قل إني لن يجيرني

من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً » وقال سبحانه « أم مَن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » . وقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وقال : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » فأين تقع هذه الدعاوي الشعرية من هذه الآيات الكريمة القطعية الثبوت والدلالة على معانيها وأين هذا الاغترار بقسمة الجنة والنار ، من قوله تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإنْ كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » . وما حقّ أهل العلم والإيمان أن يجاروا العامة في مثل هذه الأمور . وإخواننا الشيعة يدرسون تاريخ الإسلام ، وسيرة الصحابة لا سيما أئمة آل البيت عليهم السلام ، وهم يعلمون أنّ الصحابة تناظروا بعد وفاة النبي (ﷺ) في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجَمَل وصِفّين ، والنهروان والحَرّة ، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستفتوا سيّد الخلق ، في هذه الشدائد ، ولا استفتوه في شيء منها بعد وفاته ، كما كانوا يفعلون في حياته ، وكلّ هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحسّ والوجدان بالبداهة ، فيجب ردّ ما يتجدد من الوقائع والحوادث الى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الأول . وجدير بالعلماء العاملين في كل مكان ، أن يتخذوا شذرات من سير الأئمة ملائمة لروح المجتمعين ، مغذية لعقولهم ، باعثة على حسن الاستماع والاتباع .

جاء في سيرة السلطان أحمد شاه (ص ٣ — ٧ من الديوان) أنه هو الذي ذهّب المنارات والقباب ، على ضرائح الأئمة ، ونَهَب أموال الأمة ، وأوغل في الفسق والفجور ، وكان الوالي من قبل الدولة العثمانية آنذاك مدحت باشا ، وهو خير مَن ولي العراق من آل عثمان (ص ٣٣٩) وسجل له التاريخ كثيراً من الآثار . (قال) : ويؤخذ عليه اهتمامه الكثير وعزمه الشديد على الاستيلاء على خزانة الإمام علي عليه السلام وبيعها ، واستعمال المال في مشاريعه ، .وقد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أخفق ولله الحمد اه . أقول : ليت الإمام عليًا كان حيًا لما أهديت إليه هذه الخزانة ، إذاً لرأيته أزهد الزهّاد بما فيها ، وأسرعهم في إنفاقها على مستحقيها ، فما هو ممن يكنزون الذهب والفضة .

وفي رحلتنا إلى العراق في وفد علمي (في ١٨/ ٤/ ١٣٧٨ = ١/١١/١٩٥٨) أسعدنا التوفيق بزيارة أئمة آل البيت عليهم السلام ، وشاهدنا المنارات والقباب والأضرحة في كربلاء والكوفة والحلة والنجف ، وكلها مطلية بالفضة الخالصة ، ومشأة بالذهب وفيها النفائس . ومن حولها الفقراء والضعفاء يذكروننا بقول حافظ ابراهيم رحمه الله :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات
مَن لي بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات ؟

اعتذر الناشر الكريم عما وقع في الديوان من أغلاط مطبعية وإملائية وفي ضبط بعض حركات الإعراب ، — على بذله في تصحيحه جهداً مضنياً بلمسه الأدباء وأهل الفن كما قال : «والحق أننا لسنا الأمرين معًا : الخطأ الكثير في الأنواع الثلاثة الأولى ، والإجادة في تصحيح كلمات الديوان نثراً وشعراً ونرجو أن يصحّح الخطأ كله في طبعة ثانية إن شاء الله تعالى .

أضيف إلى جدول الخطأ والصواب ما يأتي :

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
٤٩ م	١٥	توجدا	توجدان
٥٠	٢٢	القَبَس	المُقتبس
٥٢	٤	كان . . فيض نفسي	فيضاً نفسيًا
٢٠ في الحاشية ٢		أو يوم ذي مسغبة	«أوْ إطْعَامٌ في يَوْمٍ» الآية

وفي الختام نشكر الأديب الكبير الأستاذ السيد محمد حسن آل الطالقاني على تحقيقه لهذا الديوان ، وعنايته بنشره .

محمد بهجة البيطار

انتخاب عضو جديد

انتخب المجمع العلمي العربي في جلسته المنعقدة في يوم ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩٥٨ برئاسة الأستاذ الرئيس السيد خليل مردم بك الدكتور محمد كامل عياد عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي مكان المرحوم الرئيس محمد كردعلي .

وقد صدر عن رياسة الجمهورية قرار بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٣٧٨ و ٣ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٨ رقمه ١٥٤١ لسنة ١٩٥٨ يقر هذا الانتخاب .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيدي الزميل (١)

يطيب لي أن أستقبلك اليوم في مجمعنا لا للتعريف بك ، بل لأقول لك ما أمسكته عنك وطويته زماناً طويلاً على قرب الدار ، وكثرة الاتصال بيني وبينك . وما حداني على التصدّي لاستقبالك إلا ما أمثله من تشوقك الى معرفة ما يقال فيك . فماذا أقول ، وأنت تعلم أنّ ما أشعر به من الميل اليك ، على قربك ونأيك ، لشعور يجعلني كثير الارتباك ، في وصف شمائلك ومزاياك ، هذا مع ما أجده في نفسي من انعقاد اللسان ، وجمود الخاطر ، وذهاب البيان . ولكني سأحاول أن أفيَ لك بما لم أفِ به حتى الآن ، على أن يكون لك الفضل عليّ فيما سمحتَ لي به من حرية القول ، على النحو الذي مررتَ عليه في كلامك على مؤرخ الشام ، أستاذنا ورئيسنا المرحوم محمد كرد علي . لقد كان رحمه الله أجلّ الناس في زمانه ، وأكرمهم في وقته ، وأعلمهم بتراثنا العربي القديم ، فإذا كان المجمع قد دعاك اليوم الى المكان الذي خلا بوفاته ، فهو إنما يدعو مؤرخاً فيلسوفاً الى احتلال كرسيّ كاتبٍ كبير ، وعالمٍ مؤرخ .

كان مولدك ، يا سيدي ، فيما أخبرتني عن نفسك في مدينة طرابلس الغرب ، وكان والدك الشيخ (علي عياد) أول من مال من أمرتكم الى العلم ، فأتعب نفسه في تحصيله حتى بلغ منه مناه . أما والدتك فكانت من بني المسعودي ، وهم بيت مشهور من أهل طرابلس الغرب ، أدباء وفقهاء ، يتوارثون الفضل كابراً عن كابر ، وتالياً عن غابر ، وقد سمّاك أبوك (كاملاً) على اسم صديقه (كامل الأسعد) تيمّناً بما يُشير اليه هذا الاسم من تقدم وارتقاء . ولعلّ ذلك أن يكون من أسباب إطلاقه اسم (الترقي) على الجريدة التي أصدرها وقتئذ

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور جميل صليبا في جلسة استقبال العضو العامل الجديد الدكتور محمد كامل عياد في ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٥٨ .

للدعوة الى ما كان يرغب فيه من تقدم واصلاح ، على النحو الذي سار عليه رجال الدولة العثمانية في الآستانة بعد إعلان الدستور . فلما أغار الايطاليون على طرابلس الغرب اضطر والدك الى الهرب الى (استنبول) على ظهر باخرة ألمانية ، فعينته الدولة العثمانية حاكماً على (مرجعيون)، ثم رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية في (حلب) ، ولم يزل يتقلب في مناصب القضاء بعد جلاء الأتراك عن سورية حتى أصبح عضواً في محكمة التمييز في دمشق .

إن هذه الاشارة السريعة الى حياة والدك تكفي لإبراز ما تعاقب على نشأتك من أحداث ، وما طرأ على حياتك في زمن حداثتك من تغير ، فقد تلقيت علومك الابتدائية في مدارس طرابلس الغرب ، ثم رحلت مع والدك الى (استنبول) ، فانتسبت الى المدرسة الرشدية في مدينة (بورصة) ، ثم إلى المدرسة السلطانية في مدينة (حلب) ، ورأى والدك بعد ذلك أن يرسلك الى المدرسة الصلاحية التي أنشأها الأتراك في مدينة (القدس) لإعداد الدعاة ، فانتسبتَ اليها وتوّجت رأسك بالعمامة خلال أربعة أشهر ، ثم جلوت عن القدس مع من جلا عنها في أواخر الحرب العالمية الأولى ، وعدت الى المدرسة السلطانية في حلب لإتمام دراستك الثانوية ، فلما حزت شهادتها تذكرت الباخرة الألمانية التي نقلتك مع والدك الى استنبول ، فرحلت الى المانيا ، ودخلت جامعة برلين ، فما من علمٍ اجتماعي أو فلسفي إلاّ وقد أخذت منه هناك بأوفر نصيب ، وحصلت منه على أعلى ذروة .

سألتك مرةً عن العلم الذي كنت تميل اليه في المدرسة الثانوية فقلت لي : العلم الرياضي ، فلم أجد سبباً لتحوّلك عن هذا العلم الى الفلسفة إلاّ ما يجده بعض علماء النفس من علاقة بين الاستعداد للرياضيات ، والاستعداد للفلسفة . وربما كان من نقائض حياتك أن تهوى بعد ذلك دراسة التاريخ ، لأن موضوع التاريخ الحوادث الجزئية ، وموضوع الفلسفة الحقائق الكلية . وكم من فيلسوف

أنكر دراسة التاريخ لاعتقاده أنّ العلوم التي تستند الى الذاكرة لا تبلغ من الضبط العلميّ ما تبلغه علوم العقل . ولكنك ياسيدي لم تقنع من دراسة التاريخ بوصف الواقعات وذكر الأعداد ، والجيوش والمعارك ، بل تعمقت في بواطن الأمور ، وبحثت عن العوامل الطبيعية والنفسية والاقتصادية المؤثرة في التطور ، شأنك في ذلك شأن فلاسفة التاريخ الذين يبحثون عن القوانين الكلية المحيطة بالحوادث الجزئية .

ويسرُّني أن أقول لك الآن إنّ كتاب فلسفة ابن خلدون الذي ألفته بالألمانية ، قد تضمن الكثير من فلسفة التاريخ التي أخذت بهـا فيما بعد . فقد ذكرت في هذا الكتاب أنّ ابن خلدون أراد أن يربط علم التاريخ بعلم الاجتماع ، فحدَّد موضوع هذا العلم ، وطريقة بحثه ، وبيّن أنّ الحوادث التاريخية والاجتماعية خاضعة لمبدأ السببية ، ثم تصدَّيتَ بعد ذلك لبحث فلسفة ابن خلدون في التاريخ والاجتماع والتطور ، فأشرت الى العوامل المؤثرة في التاريخ ، والى أسس الحياة الاجتماعية ، فذكرت منها الميل الغريزي الى الاجتماع ، والميل الى التقليد ، وختمتَ بحثك هذا بالكلام على المنظمات الاجتماعية كالأسرة والقبيلة والدولة وغيرها . ولعلك أردت من بحث فلسفة ابن خلدون الاجتماعية أن ترضي من حاجات نفسك حاجتين ، وأن تحقق بذلك غايتين : الأولى هي ميلك الى تعليل الواقعات التاريخية بالعوامل المؤثرة فيها ، والثانية هي اعتزازك بقوميتك ورغبتك في تعريف قراء الألمانية بأساطين الفكر العربي . وقد تمّ لك هذا فكان كتابك في الألمانية عمدة المستشرقين ، ومرجعاً من مراجع العلماء والباحثين .

ويشاء القدر بعد إنهاء دراستك في ألمانيا أن تعود الى سورية في أشد أيام الاستعمار قسوةً ، وأكثرها ظلاماً واضطرابا ، فتحاول أن تعمل في الصحافة ، فتجد الصحافة مقيدة ، وتحاول أن تنخرط في سلك الموظفين ، فتجد الأبواب موصدة في وجه الذين تلقوا علومهم في ألمانيا ، ولكنّ حاجتك الى كسب الرزق

بعد إحالة والدك على التقاعد اضطرتك الى طرق أبواب التعليم في شروط قاسية ، فلما فتحت أمامك أبواب المدارس الثانوية أظهرت من البراعة في التعليم ما دلّ على استعدادك القديم له . لقد كنت تعتقد إذ ذاك أنك صاحب رسالة ، وأن خير وسيلة لتأدية رسالتك تعليم النشء ، وتثقيف أبناء الشعب ، ولا أزال أذكر حتى الآن اجتماعنا في مدرسة التجهيز في دمشق ، يوم كنا نعقد الحلقات للمذاكرة والمسامرة ، ونتداول الكتب والمجلات للمطالعة والمناقشة ، ونتبادل وجوه النظر في المناهج التربوية ، والأحداث السياسية والاجتماعية .

ليس في صفاتك ياسيدي ، صفة أدلُّ على محبتك من حبك للتعليم ، إنك تحب تعليم الصغار كما تحب تعليم الكبار ، ولم أرَ بين إخواني المعلمين مَن أحب تلاميذه أكثر منك ، إنك تحبهم لبراءتهم وطهارتهم وضعفهم وقلة تجاربهم ، وهم يحبونك لعلمك وإخلاصك وجرأتك وتفانيك في خدمتهم ، أنت معلم ومرب معاً ، لم تزل تعلم أبناء هذا الجيل حتى أصبحت لهم والداً ، ولئن كان الله لم يمن عليك بعد بولدٍ من صلبك ، لقد كان لك من أبناء هذا الجيل طلابٌ كثيرون أحبوك كما يحب الأولاد والديهم ، لقد علمت الفلسفة والتربية والتاريخ في مدارس دمشق الثانوية ، وفي دار المعلمين العالية في بغداد ، وفي كليتي التربية والآداب في جامعة دمشق خلال ربع قرن ، فتخرّج على يديك الكثيرون من قادة هذا الجيل ، واذا كان يسرُّك الآن أن يسير بعض هؤلاء التلاميذ على خطتك ويحققوا ما دعوتَ اليه كل أيام حياتك من مبادئ سامية ، فإنه ليحزنك أن ينكر بعضهم تعليمك وإرشادك ، ويضع في دولاب التطور عصاً تمنعه من الدوران . ومهما يكن من أمرٍ فان تبعة ذلك لا تقع عليك ، لأن السحاب الذي يجود بالغيث على الأرض لا يُسأل عن إنباتها الشوك والحنظل ، وأنت كذلك لا تسأل عما يتصف به بعض هؤلاء من فطانة بتراء ، وكياسة خرقاء .

وهل أنت يا سيدي إلاّ من عنصر أولئك العلماء الذين قرنوا العلم بالعمل ، تعلمت العلم وعلّمته ، ثم ألفت فيه عدة تصانيف ، اشتركت معي في تأليف أحد كتب المنطق ، وفي نشر بعض النصوص الفلسفية ، واشتركت مع الدكتور جورج حداد ، والدكتور نظيم الموصلي في تأليف بعض كتب التاريخ للمدارس الثانوية ، وانفردت بتأليف كتاب الأخلاق ، وبترجمة رسالةٍ عنوانها كتب التاريخ والتفاهم الدولي ، ولك تصانيف أخرى لم تُطبع بعدُ ، ككتاب تاريخ اليونان ، وتاريخ التربية ، وغيرهما . واذا ذكرتُ الآن هذه التصانيف ، ذكرتُ معها ما كان من حرصك على جعلها للطلاب ، فأنت لم تؤلف كتبك لطلب الشهرة والمثالة ، ولا لعقد الرياسة بين الناس ، أو مدّ الجاه عندهم ، بل ألفتها لتقرّ عينك بانتفاع الطلاب بها ، وكأني بك تقول في نفسك إن العلماء لا يُدركون السعادة إلاّ بنشر العلم ، فان احتاجوا الى العلم في خاصة أنفسهم فهذا من فضل الله ، وان احتاجوا اليه الناس فهذا خيرٌ وأبقى ، ولو علمت أن الناس لا يمكنهم الانتفاع بكتبك ، لكساد سوق العلم ، لأحرقتها لقلة جدواها كما فعل أبو حيان قبلك ، ولكنك تعتقدُ لحسن الحظ أنّ الحقيقة يجب أن تذاع بين الناس ، وأنّ من كان قابضاً على الحقيقة ، ولم يعمل على نشرها لم يكن عالماً حقيقياً ، فلا غرو اذا عملتَ على نشر الحقيقة بتعليم الطلاب وتأليف الكتب لهم ، ولولا اضطراب حياتك وكثرة العوائق المحيطة بك لأنجزت من التصانيف ما يعجز الكثيرون عن انجازه ، ولكنك يا سيدي لم تجد في المجتمع الذي تعيش فيه أي مشجع لك على بلوغ غايتك ، فقاومتَ ما استطعت المقاومة ، وجاهدت ما استطعت الجهاد . رأيت مرة أن تلتحق بالإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، لتوسيع نطاق عملك ، فلم تلق فيها ما هو مؤمّل منها ، فأورثك ذلك يأساً من الإصلاح ، حبب اليك العزلة والبعد عن الناس ، قلت لي في كتاب بعثت إليّ به من القاهرة : « ليس عندي من جديد أذكره

عن حياتي هنا ، فقد طابت لي العزلة التي وجدت نفسي فيها ، ولذلك تراني أتحاشى كل ما يمكن أن يفسدها» ، ولكن أنى لك أن تلقي عصا الترحال وتستريح الى عزلتك ، وفي نفسك ما فيها من حب العمل والنضال والاصلاح ، ألم تعد بعد ذلك إلى دمشق لمتابعة نضالك في الحقل الاجتماعي ؟ ألم تستأنف محاضراتك ومقالاتك التي كنا نتشوّق اليها في زمان عزلتك ؟ . وهل لرجل مثلك أن يشعر بأمراض المجتمع ولا يعمل على شفائه منها ؟ لقد دعوت كل أيام حياتك الى حرية الفكر ، والعدل الاجتماعي ، ودعوت الى السلام والصداقة ، ودافعت عن النظام الديموقراطي ، وناديت بالاشتراكية والتعاون ، فكنت في كلّ ما دعوت اليه إماماً يقتدى به ، ويهتدى بهديه .

لم أر قط بين أقرانك من أحب الكتب والعلوم أكثر منك ، فانه لم يقع بين يديك كتاب إلا استوفيت قراءته كائناً ما كان ، وما دخلتُ عليك مرة إلا رأيتك تنظر في كتاب أو تقرأ مجلة أو صحيفة يومية . وسبب ذلك أنك تحب الاطلاع على كل ما يكتب في زماننا من آراء ، وما ينشر فيه من مذاهب ، وما يحدث فيه من واقعات ، وقد وهبك الله ميلاً الى استطلاع الأخبار ، واستقصاء الحقائق والآثار ، لأنك مؤرخ وصحافي معاً . وهذا الميل الى الصحافة يوضح لنا الكثير من مراحل حياتك ، فقد عملت في جريدة الشرق ، باشراف رئيسنا المرحوم محمد كرد علي ، وزملائنا المرحومين الأمير شكيب أرسلان ، والشيخ عبد القادر المغربي ، والشيخ بدر الدين النعساني ، وعملت بعد ذلك في جريدة (العرب) التي أصدرها الأستاذ سامي السراج في حلب ، ثم سافرت الى طرابلس الغرب ، فأصدرت باسم والدك جريدة اللواء الطرابلسي ، ثم أصدرت في ألمانيا مع بعض الزملاء مجلة الحمامة ، وجريدة صدى الاسلام ، فنشرت فيها عدة مقالات فلسفية واجتماعية وسياسية ، وكنت خلال إقامتك في ألمانيا تراسل جريدة (المقتبس) ، فلما عدت إلى سورية أسهمت

في تحرير جريدة فتى العرب ، وجريدة الأيام ، فكنت فيها من أحسن المحررين والمترجمين ، ثم أصدرت معي ومع الزميل عز الدين التنوخي ، وبعض الزملاء مجلة المعلمين والمعلمات ، واشتركت معي ومع أستاذنا الرئيس خليل مردم بك والدكتور كاظم الداغستاني في إصدار مجلة الثقافة ، وأسهمت مع بعض الأدباء في اصدار مجلة الطليعة في دمشق ، ومجلة الطريق في بيروت ، و كتبت في مجلة المعلم الجديد ، ومجلة المعلم العربي عدة مقالات تربوية ، وتوليت بعد ذلك تحرير مجلة كلية التربية ، ولا تزال حتى الآن تنشر في صحف دمشق اليومية والأسبوعية آراءك الاجتماعية والسياسية ، فهذا كله يدل على أنك خلقت صحافياً ومعلماً ، لم تقتصر على نشر أفكارك بواسطة التعليم في المدارس ، بل عممت أيضاً على نشرها بواسطة الصحافة .

أنت يا سيدي ممتع المحاضرة ، الا أنك لا تتصدى للارتجال ، فلا تتكلم في موضوع إلا إذا هيأته ، وهذا فيما أعتقد خير من ارتجال الكلام بغير ترتيب ، إن كلامك في محاضراتك كثير الحلاوة ، مفعم بالطلاوة ، لأنك تتفرد بموضوعات لا يتناولها غيرك ، فتجعل معانيك قريبة من الأذهان بما تضمنها إياه من النوادر اللطيفة ، والاشارات الطريفة ، ولا يكاد أحد يراك في كلامك جافاً ، جامد الفكر ، وإنما أنت في جميع محاضراتك مستوف فنون القول ، كأنك موج لجة ، أو سيل منحدر . لقد حوت محاضراتك من أصناف العلم أحسنه ، ومن فنون الثقافة أجودها ، وإذا كان من الصعب عليّ الآن أن أذكر جميع الموضوعات التي حاضرت فيها ، فانه لن يفوتني ذكر محاضراتك التي ألقيتها في جمعية المقاصد الخيرية والجامعة الاميركية في بيروت ، ودار الكتب الوطنية في حلب ، عن الانسان الحديث ، ومستقبل الثقافة ، ورسالة الجامعة .

قلت في محاضرتك عن الإنسان الحديث : « إنه محصول تطور تاريخي طويل ، فقد تقلبت عليه حوادث كثيرة واجتاز مراحل عديدة ، وتعرّض

لأزمات متنوعة ، وكان من أثر ذلك أن كثرت عناصر شخصيته وتضاربت وأصبحت نفسيته كما نشاهدها اليوم في منتهى التعقيد والاضطراب» .

فالإنسان الحديث في نظرك هو الإنسان الذي يحاول أن يخضع الواقع لسيطرة العقل ، وهو يختلف عن الإنسان القديم باتجاهه الدنيوي المطلق ، وبجمعه أفكاره وعواطفه وأعماله في الحياة الواقعية ، وكأني بك عندما تصف هذا الانسان ، وتبين تطوره ، تدعونا الى النسج على منواله ، لأنك تقول إننا لا نستطيع أن نبني لأنفسنا حضارة مستقلة إلاّ اذا عرفنا الإنسان الحديث حق المعرفة ، ودرسنا تطوره الفكري ومنازعه العلمية . ومع أنك تجد في أفعال هذا الانسان ما يدعو الى الخجل والاشمئزاز ، وما يثير الشفقة والخوف ، فانك تعتقد أن الأزمة التي تعانيها الحضارة الحديثة ستنتهي لا محالة ، كالطفل الذي يجتاز عهد المراهقة ، فيعاني أزمة حادة ، ثم ينتقل بعدها إلى حالة الاستقرار والطمأنينة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فأنت ترى إذن أن الحضارة الحديثة تقوم على العلم والبحث العلمي ، وأن العلم الحديث المستند الى المشاهدة والتجربة والتأمل العقلي، هو السبب في الازدهار الاقتصادي ، والتقدم الاجتماعي . واذا كان هنالك ، في الحياة الحديثة مشكلات ، فإن هذه المشكلات لم تنشأ عن طبيعة الانسان وأنانيته ، بل نشأت عن فساد الأوضاع الاجتماعية التي لا تلائم طرق التفكير العلمي الحديث ، ولا طرق الانتاج العصرية .

وقلت في محاضرتك عن مستقبل الثقافة : «لاحظ العرب منذ أوائل القرن التاسع عشر ما تمتاز به الحضارة الغربية من وسائل القوة المادية ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا مقاومة الاستعمار الغربي إلاّ باصطناع الوسائل ذاتها . من هنا قامت الدعوة في البلاد العربية الى ضرورة اقتباس الثقافة الحديثة ، لأنها أساس

النهضة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية» (ص ٥) وقلت أيضاً: «إنّ الحضارة الحديثة هي التي تسيطر اليوم على العالم، ولا سبيل لأيّ شعب أن يحافظ على كيانه دون مجاراة هذه الحضارة» (ص ٣٢). وقلت أخيراً: «هناك فئة تسمي نفسها بالمعتدلة، تريد أن يقتصر الاقتباس على محاسن الحضارة الغربية، وعلى تلك النواحي من ثقافتها التي تتلاءم مع خصائصنا وتقاليدنا وعاداتنا. ونقطة الضعف في هذا الرأي هي الصعوبة في تحديد الصفات والتقاليد والعادات التي تختص بها والتي يجب أن نحافظ عليها، ثم الاختلاف حول المعيار الذي يميز المحاسن من المساوئ». لقد اجتاحت حضارة الغرب بلادنا بصناعتها وأنظمتها ومذاهبها، وليست المشكلة الآن أن نبحث ونناقش في هذا التطور، هل هو خير أم شر، وأن نقابله بالاستحسان أو الاستهجان، ولكنّ المشكلة هي أن نعلم ماذا يجب أن نعمل للسيطرة على الأوضاع الجديدة، وجوابك على ذلك أنّ من واجبنا في الظروف الحاضرة أن نعمل على زيادة الانتاج، وتنمية الثروة العامة، وتلبية حاجات الحضارة، وهذا كله يحتاج الى الأخذ بأسباب العلم الحديث وطرق بحثه. اننا نفاخر ونعتز بما اتصفت به الثقافة العربية في عهود ازدهارها من المرونة، والقدرة على التكيف، واتساع الآفاق، ومجاراة التطور، فلماذا لا ننسج اليوم على منوال أجدادنا في اقتباس الحضارات والثقافات الأجنبية. لقد سارع أجدادنا الى الاقتباس عن جميع الأمم على أوسع مقياس، ومن واجبنا في العصر الحاضر أن نعمل على اقتباس الثقافات الأجنبية كما فعل أجدادنا في الماضي، وأهم ما نحتاج اليه من هذه الثقافات التفكير العلمي، والنظر العقلي، لا التفكير الصوفي أو الروحي الذي يريده لنا المستعمرون، ولا يكفي في نظرك أن تتبنى النخبة الممتازة في بلادنا ثقافة الغرب وحضارته، بل ينبغي كذلك أن تنتشر هذه الثقافة في الجماهير الكادحة

من عمال وفلاحين ، لأنه لا فائدة من تجهيز الفلاحين بالآلات الزراعية إذا هم لم يتعلموا قبل ذلك كيف يحسنون استخدامها ويحافظون عليها .

وليس ما قلته يا سيدي عن اقتباس الثقافة الغربية بخافٍ على الناس ، ولكنّ أكثرهم لا يجرؤون على التصريح به كما فعلت . ومع أنك تدعو الى الأخذ بثقافة الغرب ، وأسباب حضارته ، فانك لا تهمل تراثنا الثقافي القديم . إنّ محاسن هذا التراث بادية لعينيك ، بارزة في دروسك ومحاضراتك ، ولكنك لا تريد أن تأخذ منها إلاّ الأعمدة القوية ، والعناصر المتينة الصالحة للبناء الجديد .

ومما قلته في كلامك على رسالة الجامعة : « ليس البحث العلمي مجرد فعالية فكرية مستقلة عن الزمان والمكان ، والدراسة الجامعية تظل عقيمة وتصبح عبئاً ثقيلاً اذا هي لم تجهز الشباب بالوسائل اللازمة لفهم العالم الذي يعيشون فيه ، وتفسير الحوادث التي تجري حولهم » . فاذا اقتصرت الجامعة على البحث النظريّ المجرد لم تقم بوظيفتها الاجتماعية ، واذا طلب العلم لذاته ، دون أن يتخذ وسيلة لإصلاح المجتمع والسيطرة على الطبيعة ، كان عبئاً ثقيلاً ، لانقطاع الصلة بينه وبين الحياة الواقعية .

نعم إنّ مفهوم الجامعة يتضمن في نظرك الإخلاص للعلم والحقيقة ، وإنّ الجامعة لا تبلغ غايتها « إلا إذا تدرّب طلابها على طريقة البحث العلمي وتعودوا النقد الصريح ، وشعروا بالمسؤولية ، واحترموا حرية الفكر والقول ، واتصفوا بالتسامح » ، ولكنّ الجامعة التي لا تخرج من عزلتها ، ولا تشارك في الحياة العامة مشاركةً فعّالة ، ولا تنشر العلم بين الناس ، ليست جامعةً كاملة ، فأهداف الجامعة في نظرك اذن هي التعليمُ والبحث العلمي ، والإعداد المهني ، والتدريب المسلكي ، وتربية الشخصية وتثقيفها ، ونشرُ الثقافة في جمهور الشعب .

ذلك بعض ما جاء في محاضراتك من إشاراتٍ صادقةٍ وأقوالٍ نافعة ،

وأنى لي أن أحيط الآن بجميع ما تضمنته محاضراتك وأحاديثك من دعوة إلى الإصلاح . فقد حملت على ما في واقعنا الأليم من فساد ، ودعوت إلى إصلاح هذا الفساد بالتعليم والتربية والإرشاد ، ولما بدا لك أن الاصلاح بطريق التربية يحتاج الى زمان طويل ، عمدت إلى نشر أفكارك في الجماهير بطريق الصحافة ، ثم عملت بعد ذلك على تأسيس الجمعيات العلمية والفنية والأدبية فاتخذتها متنفساً لمنازعك الاجتماعية والانسانية ، ولو لم تجد إلا في هذه الجمعيات متنفساً لنشاطك الثقافي لكفى ، فكيف بك وقد سافرت في رحلات ثقافية إلى ألمانيا ، والاتحاد السوفياتي ، ورومانيا ، وبولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وفرنسة ، وايطاليا ، واسبانيا ، وسويسرة ، اطلعت فيها على ما جد من المسائل العلمية والاتجاهات الفكرية ، ونقلته إلى طلابك ومريديك ليعملوا به ، فالعلم كما تقول إنما يراد للعمل ، فاذا كان العمل قاصراً عن العلم ، كان العلم مصيبة على الفرد والمجتمع .

لذلك رأيت يا سيدي أن تقرن العلم بالعمل ، وأن تتولى التوجيه والارشاد ، فكنت عالماً ومعلماً ، مؤلفاً وصحافياً ، عالماً وكاتباً ، فيلسوفاً ومؤرخاً معاً ، وما نشرته حتى الآن من الكتب والمقالات والمحاضرات يكفي لرفعك الى الدرجات العلى بين مفكري العرب المعاصرين ، فكيف بك وقد عزمت على إتمام رسالتك العلمية والأدبية بانضمامك الى مجمعنا ؟ .

إن في أسلوبك يا سيدي تموجاً يشبه تموج أفكارك ، جعله متموجاً ليدل على ما في تفكيرك من حياة ، وعلى ما في حياتك من قوة ، ولو شئت أن تكون جامداً كالجبل المشرف على أمواج البحر ، لما عجزت عن رصف أفكارك رصفاً هندسياً محكماً . ولكنك أبيت أن تكون كاملاً فأشبهت معبد الفلسفة الذي أنشئ بالقرب من ضريح (جان جاك روسو) ، وترك أحد أجنحته ناقصاً للاستدلال به على أن عمل الفلسفة لم يتم بعد . ألم تؤلف كتاباً في الأخلاق

شبيهاً بهذا المعبد الفلسفي ، ألم تتكلم فيه على الوجدان، والحق ، والواجب ، والشفقة ، والاحسان ، والتضامن، والتعاون، والحرية، والكرامة ، والتقدم، والصدق، والصراحة والنزاهة ، والأسرة ، والعمل ، والاقتصاد ، دون أن تتمم فيه كلامك على الحياة السياسية ، والعلاقات الدولية ، فكأني بك ، وقد رأيت ما يعتور العلاقات الدولية من اضطراب وتبدل ، لم تشأ أن تحكم عليها حكماً نهائياً فاصلاً ، تاركاً لغيرك من المتأخرين أن يتمموا ما بدأت به من أحكام مربعة صادقة ، وتنبيهات نافعة محكمة .

أنت يا سيدي كثير العلم والاستقصاء ، محقق في الخبر والأثر ، فاذا أردت تقرير الحجة في عقول الجماهير ، وتخفيف المؤنة على المستمعين ، عمدت الى الأمثال الحسية ، والنكات اللطيفة ، والأفكار المقبولة في الأذهان ، فاخترت لها أسهل الألفاظ ، وصغتها في قالب محبب الى النفس ، بعيد عن التكلف ، ولا تزال تزداد من هذه السهولة والعذوبة حتى تجيء ألفاظك في وزن اشاراتك ، ومعانيك في طبقة ألفاظك ، وأنا ما قرأت لك كلاماً إلا وجدت ألفاظك أسرع الى ذهني ، من معانيك إلى قلبي ، لأنك تطلق لقلمك العنان ، في غير خطل ولا إملال ، فتبلغ بسهولة اللفظ ، وحرية القول ما لا يبلغه غيرك بالفصاحة والبلاغة ، واذا قيل ان في أسلوبك انعطافاً يشبه تماطفك في مشيتك ، فعذرك في ذلك أنك مطبوع على البساطة والصراحة ، بعيد عن التكلف ، تفضل جوهر القول على صورته ، وحقيقته على لفظه .

أنت يا سيدي لا تشتهي أن تعيش في نظام كالنظام الذي فرضه الفيلسوف (كانت) على نفسه ، ولا تحب أن تكون مقيداً بقيود العادات والتقاليد . أنت تعتقد أن كل شيء في الحياة يتبدل ويتغير ويرتقي من حال الى حال ، فكم من كربة فادحة صبرت عليها لعلمك أنها زائلة ، وكم من مشكلة تغلبت عليها

باستغنائك بها ، ولعل ذلك أن يكون من نتائج الثقافة التاريخية التي ملأت بها نفسك ، لقد ثقفت التاريخ ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع ، فأورثك ذلك مرونة فكرية حببت اليك النظر الى الأشياء من جهات مختلفة . وأنت يا سيدي عجيب الفراسة ملهم ، صادق الحدس نقاب ، رقيق المسلك فطن ، قد رزقك الله من قوة التحليل ، وكثرة الاستقصاء والتعليل ما جعلك نقاداً ، تشك في كل فكرة ، وتبحث عن نقاط الضعف في كل مذهب . ولكنك مع ذلك لا تتعصب لأمر ولا تفرط في رأي ، وهذا يا سيدي تأويل حبي لك ، إني أحبك لشكك وتسامحك واختلاف وجوه نظرك . وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك في النقد والدعوة الى الحق فوق مرتبتك في التسامح . وقد كان لك علي بانتصارك للحق نعمة أذاقتني طعم العز ، ألم تستقل من وظائف التدريس احتجاجاً على نقلي من وزارة المعارف ، ألم ترحل الى العراق احتجاجاً على تعسف المستشار الفرنسي ، ألم تجهر بالحق لما مسخ الله أخلاق زماننا فلم يترك فيها مشابه من الأخلاق . انك تؤثر أن تعيش حراً كريماً ، ولا أعلم صفة أجمع لمزاياك من العزة والكرامة .

هذا يا سيدي بعض ما بدا لي أن أقوله في يوم دخولك مجمعنا ، فاذا قصرت في وصف مزاياك وتحليل سجيتك ، فعذري أنني أعرفك كما أعرف نفسي ، ومن الصعب على الإنسان أن يتجرد من العاطفة في وصف نفسه . وهبني استطعت أن أتجرد من العاطفة وأن أقف منك موقف العالم من الشيء الخارجي ، فانني لن أستطيع أن أوفيك حقك من الوصف في خطاب واحد . وما ذنبي اذا أغفلت كثيراً من صفاتك هرباً من الإطالة ، أو صيانة للقلم من رسم ما لا حاجة الى التحدث به . ان الشيء اذا استعلن استخفى ، والشمس اذا نفذ شعاعها الى العين دفعة واحدة أعشاها .

ومن حسن حظي يا سيدي أن يشرفني المجمع بتقديمك في هذا المساء ، فما توخيتُ من هذا التقديم إلا التعريف بفضلك ، وإلاّ الإشارة الى ما يختلج في صدرك من حب العلم والأدب . واذا كنت قد أنسيت في حديثي عنك الكثير من جوانب حياتك الغنية بالفضائل ، فانه لن يفوتني التنويه بما انطوت عليه نفسك من كرم وإباء ، وصدق ووفاء ، وإيمان بالعروبة والإنسانية .

ويسرني الآن أن أقول لك انني متفائل باستقبالك في مجمعنا بين عهدين ، عهد المجمع العلمي العربي الذي انتخبت عضواً فيه ، وعهد المجمع العربيّ لجمهورية العربية المتحدة . ففي انضمامك الى مجمعنا ربح لنا ، وفي انضمامنا إلى إخواننا في القاهرة لتأليف مجمع واحد ربح للغة العربية ، والقومية العربيــة ، فأنت آخر السابقين وأول اللاحقين ، وكم من تقدم أحرزناه بانضمام اللاحقين الى السابقين الخالدين ! وأنا أقترح عليك الآن أن تكتب لنا تاريخاً تضمنه كفاح الشعوب العربية الحديثة في سبيل استقلالها ووحدتها ، ونضالها في سبيل لغتها وثقافتها ، لأنك يا سيدي مؤرخ وفيلسوف معاً ، أحببت التاريخ كابن خلدون لعلمك أن التاريخ ، وهو علم العبر ، يذكر الأمم بماضيهـا ويدعوها الى الاعتزاز بتراثها ، واحببت الفلسفة كما أحبها سقراط لعلمك أن الفلسفة تعرّف الإنسان بنفسه ، وتكشف له عن حقيقته وغايته .

جميل صليبا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

سادتي الأفاضل (١)

يعجز لساني عن التعبير عن عواطف الشكر والامتنان التي أشعر بها لما أوليتموني من شرف الانتساب الى مجمعكم الكريم . ويقيني أنكم تعلمون تقصيري في ميادين الفصاحة والبلاغة وأنكم لذلك سوف تنظرون الى كلمتي هذه بما اشتهر عنكم من اللطف والتسامح .

ولا يساورني أدنى شك في أنكم لا تنتظرون مني بحثاً شاملاً عن الأستاذ الرئيس (محمد كرد علي) ، فقد عاشرتموه زمناً طويلاً وعرفتم عنه كل شيء . وقد أجاد عضو المجمع المحترم الدكتور سامي الدهان في كلمة الذكرى التي كتبها عن الأستاذ الرئيس فأبدع في تصوير شخصيته الجذابة وتعداد مزاياه السامية ووصف حياته الحافلة والاشارة الى آثاره الجليلة . ثم أقدم عميد الأدب في الشام الأستاذ الكبير شفيق جبري على إلقاء محاضراته عن (محمد كرد علي) بمعهد الدراسات العربية العالية في القاهرة فبلغ منتهى الكمال في الاستقصاء والتحليل . وقد عادت هذه المحاضرات بالذاكرة الى العصر الذي نشأ فيه (محمد كرد علي) وكشفت عن أثر ذلك العصر في تحديد ثقافته وتوجيه تفكيره وتقرير منهجه في العمل . واستفاضت المحاضرات في بيان المعارك التي خاضها (محمد كرد علي) في سبيل الاصلاح والتقدم ، فوصفت لنا جهاده العنيف في ميدان الصحافة ودفاعه المجيد عن العرب والإسلام . وقد برهن الأستاذ شفيق جبري على براعة فائقة في تحليل تآليف (محمد كرد علي) وابراز محاسنها الكثيرة دون اخفاء عيوبها القليلة ، كما انه لم يتستر على نقائض الأستاذ الرئيس وشدة

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور محمد كامل عياد في جلسة استقباله عضواً عاملاً ، مترجماً فيها سلفه المرحوم الأستاذ الرئيس محمد كرد علي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عصبيته وصعوبة مزاجه ، لأن هذه العيوب والنقائض والاندفاعات لا تقلل من الإعجاب بنبوغه وفضله وجهاده .

أيها السادة !

لقد قيض لكم أن تعيشوا مع الأستاذ (محمد كرد علي) فوجدتم فيه رائداً وقائداً ناضل وضحى في سبيل تأسيس المجمع العلمي العربي ودافع عن كيانه وبذل جهوداً جبارة لتنظيم أعماله واعلاء شأنه .

وقد تقدمتم أشواطاً بعيدة في الطريق التي نهجها ، وكان لكم الفضل في تحقيق الكثير من الأهداف التي وجه الأفكار اليها .

وأظن أنكم انما تكرمتم بانتخابي زميلاً لكم كي أشترك معكم ، بقدر استطاعتي ، في العمل على بلوغ جزء آخر من تلك الأهداف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه المهمة تفرض علي أن أتحدث اليكم عن بعض النواحي من نشاط الأستاذ الرئيس ومباحثه التي استرعت انتباهي واستطعت الإلمام بها .

عرفت الأستاذ (محمد كرد علي) منذ سنة ١٩١٧ ، عندما كان يحرر في جريدة (الشرق) . ومن المعلوم أن هذه الجريدة كان قد أسسها القائد التركي (جمال باشا) وحشد عدداً من كبار الكتاب للاشتراك في تحريرها مثل الأستاذ (محمد كرد علي) والأمير شكيب أرسلان والشيخ عبد القادر المغربي والشيخ بدر الدين النعساني . وقد اشتغلت فيها ، وأنا تلميذ ، بترجمة الأخبار من الألمانية الى العربية . وهكذا سنحت لي الفرصة لأتدرب على الصحافة تحت إشراف الأستاذ (محمد كرد علي) . كما قمت بعد ذلك بمراسلة جريدته (المقتبس) أثناء دراستي في جامعة برلين بين سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٨ .

في غمار الصحافة :

كان الأستاذ (محمد كرد علي) صحافياً في الدرجة الأولى . ولا بد لنا من تذكر هذه الحقيقة عند البحث في تفكيره وأعماله وفي الحكم على شخصيته .

لقد مارس الصحافة منذ أول شبابه إذ أخذ يكتب المقالات في الجرائد وهو ابن ست عشرة سنة ، حسب قوله . ثم تولى ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، تحرير جريدة (الشام) ، واتصل أثناء ذلك بمجلة المقتطف ونشر فيها بعض المقالات .

وفي مصر تولى تحرير جريدة (الرائد المصري) ثم جريدة (الظاهر) وكتب في جريدة (المؤيد) المشهورة ، كما أسس مجلة (المقتبس) الشهرية .

وبعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ عاد الى دمشق ونقل اليها المجلة وأصدر الى جانبها جريدة يومية بالاسم ذاته .

رأى الأستاذ (محمد كرد علي) في الصحافة وسيلة فعالة للاصلاح . فانصرف الى هذه المهنة بكل قواه وسعى جهده الى رفع مستواها ونجح في ذلك نجاحاً باهراً .

كانت دعوته منذ بادئ الأمر تتلخص ، كما يقول ، في « حفز العرب الى العمل النافع والتذرع بالمشاريع المنتجة ، وبعث القرائح واستخدام الكفاءات ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة » . (المذكرات ، الجزء الأول صفحة ٦١) . انه كان يتصور الصحف « كمدارس سيارة تنير الأفكار وتعرف الناس معاني المدنية وتطلعهم على أحوال الأمم ونهوضها ، والدول وسياساتها ، وتحمل اليهم مجلات من العلوم والآداب » . (« أقوالنا وأفعالنا » ص : ١٧٠) .

وقد أشاد الأستاذ الرئيس بالجهود التي بذلتها الجرائد والمجلات في بلاد الشام لغرس الروح الوطنية في المجتمع وتلقين الشعب تربية سياسية صالحة ،

وقال انها علت الجماهير « استعمار المستعمرين وتدليس المدلسين ، وأن أممهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى وأنه لا حياة لأحفادها بدون الاخذ من سيرة الأجداد والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم ، وأن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربيـة ، وأن نقمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً ، كما علمتهم أن الغرب لا يريد خيراً للشرق وأن الشرق شرق والغرب غرب ... » (خطط الشام الجزء : ٤ ص : ٦٠) .

الا ان الأستاذ (محمد كردعلي) قد لاحظ أيضاً ما طرأ على الصحافة من فساد وانحراف فقال ان هناك صحفاً تضلل العقول وتزيد في ظلمة الأفكار وتدعو الى أكثر من مذهب سياسي وتتناول معونات من عدة دول حتى توهم الناس أنها آلة للتكسب والتدجيل ، لا أداة للوعظ والإرشاد والتعليم . لذلك كان ينتقد الحكومات لتساهلها في منح الطفيليين امتيازات اصدار الصحف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صفات الصحافي :

وكان يشترط في الصحافي أن يكون على علم كثير وخبرة واسعة وأن يتقن لغة أو لغتين من لغات العلم والسياسة وأن يكون من طبقة تحسن استعمال عقلها والاحتفاظ بكرامتها وممن عانى البحث والدرس وتذوق الشرائع وأحاط بتاريخ أمته واجتماعها وحياتها الاقتصادية وثوراتها وضعفها وقوتها وأوضاعها وأحزابها ونقاباتها وشركاتها .

ويصف الصحافي بأنه « قاض يتجدد على الأيام ما يعرض عليه من قضايا وتقتضيه أحكامه ذوقاً سليماً ونقداً عادلاً وأدباً غضاً » . ويرى أن الصحافي « صاحب دعوة تفسد بأقل هوى يتبعه وأنه مربي عقول ونفوس ومنشئ أمة وعمران » . ويقول عنه « انه معلم لا انتهاء لمهمته الا بانتهاء عمره ، ومهمتـه

متلون كل ساعة بلون ويطلب من صاحبها أبداً أن يطلع على قرائه كل يوم بجديد .. هو يجمع الى عمل القاضي عمل الباحث والى صنعة الفنان صنعة النقاد والى صفة الأديب صفة الاقتصادي والى مرح الأدباء حكمة الحكماء . ويحتاج الى بديهة ، والى روية ، والى سرعة ، والى أناة ، يراقب كل صاحب سلطة ويدافع عن كل مظلوم وينفذ الى أحشاء كل أمر . هو صديق الحكومات وعدوهم وخطيب القوم ولسانهم ومؤرخهم ومؤدبهم ، يلقن ذوقاً ويلقح عقلاً ويدعو الى واجب ، يردد ما يرضي وما يغضب ، لا يكتم حقاً ولا ينشر الا عرفاً» . (أقوالنا وأفعالنا ص : ١٧٥) .

ألا يخيل اليكم ، أيها السادة ، ان الأستاذ الرئيس عندما كتب هذه العبارات كان كأنما يصف نفسه ؟

كان الأستاذ (محمد كرد علي) صحافياً مثالياً مخلصاً لعمله ، شريفاً في مقاصده ، مدركاً لمسؤوليته ، صريحاً في إبداء آرائه . إلا أنه كان ، من جهة ثانية ، عاطفياً يتحمس بسرعة ويندفع بسهولة ويميل الى الشدة في نقد الفساد والانحراف ومكافحة الشر والضلال . وقد اعترف هو نفسه بأنه كان يغلو في الإنكار على المخربين حتى أصبح ذمهم ملكة مستحكمة فيه لا يستطيع الرجوع عنها ، وقال : «لا أنكر أن التيار كان يأخذني أحياناً ويشط بي القلم على غير عادتي» . (المذكرات الجزء الأول : صفحة : ٦١٣) إلا انه يستدرك قائلاً : «لكني لم ألجأ الى الطعن الشخصي بأحد» . وهو يعني بذلك انه ، عند مهاجمة الأشخاص الذين يعتقد فسادهم ، لم يكن يذكر أسماءهم . ولكن المقصودين بالنقد كانوا يعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس .

كان طبيعياً أن يتعرض الأستاذ (محمد كرد علي) بسبب هذا النقد الى الأخطار وأن يضطهده رجال الحكم ويغضب عليه أعوانهم . إلا أنه من جهة

أخرى نال شهرة واسعة ومكانة مرموقة في المجتمع لما اتصف به من صراحة في القول وجرأة في النقد وحماسة في سبيل الاصلاح ...

من المؤسف أن الأستاذ (محمد كرد علي) قد انتهى به الأمر بعد الحرب العالمية الأولى الى كره الصحافة والى إغلاق جريدته (المقتبس) لأسباب سياسية ذكرها في مذكراته . (الجزء الأول صفحة : ٦٢ — ٦٣) .

ومهما كان الأمر فان اشتغال الأستاذ (محمد كرد علي) بالصحافة مدة طويلة قد ترك أثراً بالغاً في طريقة تفكيره وبحثه : انه أصبح واقعياً ، على صلة وثيقة بشؤون الحياة ومشاكل الناس ، بعيداً عن الأمور الخيالية والمفاهيم المجردة ، يميل في أسلوبه الى الوضوح والسهولة والايجاز . الا ان ممارسة الصحافة قد نجمت عنها صفات أخرى تدعو الى النقد مثل التسرع وعدم التعمق والتناقض . وقد سعى الأستاذ (محمد كرد علي) الى التحرر من هذه العيوب عندما انصرف أخيراً الى البحث العلمي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ظل الأستاذ الرئيس ، بعد الحرب العالمية الأولى ، يدعو الى الاصلاح والتقدم والى الأخذ بأسباب القوة واستمر يعمل بنشاط لا مثيل له في المجمع العلمي العربي ، يدير شؤونه ويكتب المقالات في مجلته ويلقي المحاضرات في قاعته ، كما كان في الوقت نفسه يؤلف الكتب وينشرها .

أسس الإصلاح :

إن الدعوة الى الإصلاح عند الأستاذ (محمد كرد علي) ترتكز على بضعة أسس عامة ، محدودة ، مترابطة يدور بحثه دوماً حولها في كتبه ومقالاته ومحاضراته وأحاديثه وهي : ١) إحياء تراث العرب والمسلمين ، ٢) محاربة الجمود عند المشايخ وتنقية الدين من البدع والقشور ، ٣) تهذيب الأخلاق والعادات ،

٤) اتباع العقل والاهتمام بالأمور العملية ، ٥) اقتباس كل ما ينفع عن المدنية الغربية الحديثة ...

كان للأستاذ فضل كبير في إحياء التراث العربي — الإسلامي ، فقد قام بتحقيق ونشر عدد من الكتب العربية القديمة في العلم والأدب كما شجع غيره على الاقتداء به في هذا . كذلك نشر مختارات نفيسة من مؤلفات كبار القدماء عني بشرحها وبيان قيمتها . ولا جدال في فائدة هذا العمل وضرورته . فانه لا بد لنا في نهضتنا الحديثة من الاستناد الى تقاليدنا التاريخية . الا انه لن يتيسر لنا الإفادة كما ينبغي من تراثنا القديم الا إذا أقدمنا على دراسة هذا التراث دراسة تحليلية ، انتقادية وتوصلنا الى تمييز ما هو صالح للحياة من الجامد البالي ..

الإصلاح الديني :

لم يتوقف الأستاذ (محمد كردعلي) منذ نشأته حتى آخر حياته عن مهاجمة الدجالين من رجال الدين ، وقد قال انه لا يبغض المشايخ لمجرد أنهم مشايخ ، فقد درس على نخبة منهم أمثال الشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد المبارك والشيخ سليم البخاري ، الذين أخذ عنهم واستفاد كثيراً من نصائحهم وكان دوماً يشعر نحوهم بالحب والاعجاب والاحترام . الا أنه كان يسيء الظن بالمشايخ على الإجمال ويمقت الكثيرين منهم ، وينتقد مظاهر الفساد بينهم .

وقد دافع الأستاذ بحماسة زائدة عن حركة الإصلاح التي قام بها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في مصر ثم الشيخ طاهر الجزائري في الشام ، وأشاد بذكر الإمام ابن تيمية الذي يسميه « أعظم مصلح في القرن الثامن وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده ، والذي أراد ارجاع الدين الى نضرته الأولى وتعريته من القشور التي ألصقها به الجهلة المتنمسون » . (خطط الشام جزء ٤ ص ٥٠) ويقول عنه في مكان آخر : « لو عمت دعوته .... لسلم هذا

الدين من تخويف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال » . (كنوز الأجداد ، ص : ٣٦٧) .

وذهب الأستاذ الى أن « من أعظم ما دعا الى انحطاط المسلمين غرامهم في عصور التدلي بصبغ معظم أمور الحياة بصبغة دينية » . فهو يريد فصل الشؤون الدنيوية عن الدين على نحو ما جرى في الغرب .

اصلاح الأخلاق :

لم تقتصر حملات الأستاذ (محمد كرد علي) على المفسدين من رجال الدين ، بل انه أطلق العنان لقلمه في نقد الفئات الأخرى من الأمة أيضاً . وقد أغرق في وصف مظاهر التأخر والانحطاط والتفسخ والانحراف في سلوك كثيرين من الأشخاص الذين عاشرهم أو سمع عنهم . هكذا نراه في آخر الجزء السادس من (الخطط) يعقد فصلاً طويلاً بعنوان « رأي في الأخلاق الشامية » يرسم فيه صورة مظلمة عن طبقات المجتمع كافة . وفي كتابه (أقوالنا وأفعالنا) ، ثم في (المذكرات) يروي حوادث لا تحصى عن فساد أخلاق الناس في هذا العصر ويشكو من انتشار الكذب والنفاق والحسد والغرور والمكر . وهو يعتقد أن السكوت عن العيوب عيب كبير وأنه لا سبيل الى النهضة قبل تقويم الأخلاق .

على أن الكثيرين من الذين أيدوا دعوة الأستاذ الرئيس الى تهذيب الأخلاق والعادات قد ساورتهم الشكوك في جدوى طريقته في الإصلاح القائمة على التشنيع السافر والنقد اللاذع والتقريع العنيف . بل ان بعض الباحثين يؤكدون أن أساليب الوعظ والإرشاد ، مهما اختلف مظهرها ، لا تؤدي وحدها الى إصلاح الفساد الأخلاقي ، ويقول هؤلاء ان أخلاق الأفراد انما تعكس

أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وانه لا يمكن لذلك تبديل هذه الأخلاق إلا بتغيير تلك الأوضاع .

وقد أهمل الأستاذ (محمد كرد علي) العلاقة بين الأخلاق وبين العوامل الاقتصادية والاجتماعية . لذلك لا غرابة اذا رأيناه يستسلم في آخر الأمر الى التشاؤم واليأس فيصرخ في أول كتابه (أقوالنا وأفعالنا) قائلاً :

« ليقل علماء الدين ما يقولون ، وليقرر علماء النفس ما يقررون ، وليكرر علماء الأخلاق ما يكررون ، فأنا أكره الشر ولا أقصد الآن الى مداواة صاحبه وأعشق العدل ولا أغضي عمن يهدم عموده ، وأرغب في النظم السليمة ولا أغالط النفس في استصلاح الفاسد . . . ومن يقل الصالحات استعداده ، أنت لا تخلق ما حرمته الفطرة إياه ، ولو جهدت كل جهدك » . ثم أضاف يقول : « وطال الأمد على هذه الدعوة وانقضى العمر في أمل لم يتحقق منه بعض ما كان يرتجى وصرفت في هذه السبيل جهود لم يسترد منها عشرها ، فهل من مطمع بعد هذا في أن نجعل من جذع يابس غصناً نضيراً ، ومن جسم ميت كائناً حياً ؟ » .

ولئن رأينا الأستاذ يقول في ختام هذا البحث : « ولقد كنت ، كما منيت النفس ، بأن الخير سيكون في الجيل الذي يجيء بعد الذي أنا أشكو منه ، أرى الزمان هو الزمان ، والناس هم الناس ، واذا الأبناء ينشأون على غرار الآباء ، واذا اللؤم والحسد والدناءة عسيرة العلاج . . » — ، لئن رأينا الأستاذ يقول ذلك فلا يسعنا إلا أن نخالفه وندعي بأن الإصلاح ليس مستحيلاً ، وان كان عسيراً حقاً وأن الأجيال التي تعاقبت في الفترة الأخيرة قد ازدادت تقرباً من الخير وأن مواعظ الأستاذ (محمد كردعلي) وارشاداته نفسها قد كان لها بعض الفضل في ذلك الى جانب المؤثرات الأخرى .

النزعة العقلية :

كان الأستاذ (محمد كرد علي) ، على الرغم من طبيعته العاطفية ، الانفعالية يؤمن بالعقل ويدعو الى سيطرته في حياة الفرد ونظام المجتمع . وقد جاء في كتبه بشواهد كثيرة من التاريخ تدل على أصالة هذه النزعة بين كبار المفكرين العرب والمسلمين الذين كان يريد الاقتداء بهم . فنراه مثلاً يقول عن الجاحظ انه « المعلم الأول ، يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشيء الا اذا صح في نظام العقل ويربدهم على أن تدق ملاحظتهم ويرهف حسهم ، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله : ان الدين لا يصلح بغير الدنيا وان الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى » . (أمراء البيان جزء ٢ ص ٤٢٩) .

والسبب في إعجاب الأستاذ بالمدنية الغربية الحديثة يرجع الى اعتقاده بأنها قائمة على العقل والعلم . وفي رأيه انما تجلى المدنية ، قبل كل شيء ، في السيطرة على الطبيعة وفي التقدم المادي . وقد قال : « الماديات هي السلم الموصل الى بلوغ القوة ، وأي معنويات لمن تجرد من المادة ؟ » (أقوالنا وأفعالنا ، ص : ٣١٢) .

انه كان في كل المناسبات يطالب بتوجيه الاهتمام الى الأمور المادية العملية المفيدة ، والابتعاد عن الخيالات والأوهام ، وكان يحارب المشتغلين بالمسائل الروحية والغيبية . واليك ما كتبه في الجزء الرابع من المذكرات (صفحة ١٠٤٤) بعنوان « كتب الخيالات » ، قال :

« في العهد الأخير انصرفت همم بعض من يشتغلون بالفلسفة والإلهيات من رجال الجامعات العربية الى نشر بعض كتب قدماء الفلاسفة والمتصوفة . وكانت بعض النفوس تتشوف للوقوف عليها ، يتخيلون أن فيها أسراراً لو ظهرت لكشفت من نواميس الطبيعة ما تتقدم به الإنسانية وتصفى الأرواح من كثافاتها وينجو البشر من القتل والتزوير والسرقة والكذب والظلم . ولما ظهرت أسفار المتصوفة

في حلتها الجديدة من العناية تجلى للأنظار أنها تافهة إلا من العبث الذي أحب به عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات على الأيام، فضاعت فيها أعمارهم وأضاعوا أعمار من اشتغلوا بها» .

وفي الواقع كان الأستاذ (محمد كرد علي) لا يميل الى الفلسفة ولا يستسيغ البحث في مشاكلها ، ويبدو أنه قد تأثر بالاتجاهات الفكرية التي كانت سائدة لدى الغربيين في أواخر القرن التاسع عشر والتي كان معظمها يتنكر للفلسفة والإلهيات ولا يعترف إلا بالعلوم المادية ...

الدعوة الى الاقتباس من الغرب :

ظل الأستاذ (محمد كرد علي) في جميع أدوار حياته يدعو الى الاقتباس عن المدنية الغربية الحديثة . نلاحظ اندفاعه وراء هذه الدعوة بوجه خاص في كتاب «غرائب الغرب» الذي يعتبر من أحسن مؤلفاته .

ARCHIVE

تكلم الأستاذ الرئيس في هذا الكتاب عن رحلاته الثلاث الى مختلف البلاد الأوروبية ، وعلى الأخص فرنسا وسويسرا والأندلس في سنة ١٩٠٩ ثم سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٢١ . ولم يقتصر على وصف مشاهداته الذاتية ، بل أضاف الى ذلك كثيراً من المعلومات التي نقلها من الكتب أو الأشخاص العارفين . وقد بيّن في مذكراته (الجزء الأول صفحة ١٨٤) أنه ما كان يدخل بلدة قبل أن يطالع في وصفها كتاباً أو كتباً حتى يستفيد من زيارتها استفادة حقيقية . لذلك استطاع أن يتكلم بإسهاب عن مختلف مظاهر الطبيعة والحياة البشرية في البلاد التي زارها ، على الرغم من أن مدة الإقامة فيها كانت قصيرة . فأطول فترة ، وهي التي قضاها في باريس ، لم تزد على الشهرين خلال الرحلة الأولى ثم على الشهر الواحد في سنة ١٩٢١ .

كتب الأستاذ (محمد كردعلي) في مذكراته يقول: «كانت الغاية من رحلاتي تجديد ما رث من قواي وترويض الجسم وتسلية الروح والتعرف الى مدنية الغرب ودرسها في أرضها درساً عملياً». ولا شك في أن الرغبة في الدرس والاطلاع كانت من أقوى الدوافع، كما أشار الى ذلك أيضاً في الفصل الأول من كتاب «غرائب الغرب»، إذ قال: «كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوروبا رحلة علمية أقضي فيها ردحاً من الدهر للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المتزهون والعلماء والعاملون والساسة المستعمرون والقادة والغازون والتجار والصناع والزراع والماليون، وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها».

وكانت الغاية من رحلته الثانية سنة ١٩١٣ م، على التخصيص، زيارة مكتبة المستشرق الطلياني الأمير (قايتاني) للبحث في المخطوطات التاريخية العربية التي اشتهرت بها في العالم أجمع، وقد استغرقت هذه الزيارة مدة شهر جمع الأستاذ (محمد كردعلي) خلالها مادة غنية لكتاب «خطط الشام» الذي كان يفكر دوماً في تأليفه ويستعد له منذ سنوات.

صور لنا الأستاذ الرئيس في كتاب «غرائب الغرب» مظاهر الحضارة الأوروبية التي تركت أعمق الأثر في نفسه. وقد أخذته الدهشة في الدرجة الأولى لمشاهدة (باريس)، فأرسل اليها تحية حارة تفصح عما كان يشعر به من إعجاب وتقدير. وتتضمن هذه التحية (غرائب الغرب، الجزء الأول صفحة ٤٨ — ٤٩) المبادئ العامة التي كان يؤمن بها. فتراه يسمي (باريس) «معلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين» ويقول انها «هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل»، وانه «انبعث

منها تمجيد العقل ، بل تأليهه » ، ثم يخاطبها بقوله : « يا واضعة حقوق الإنسان والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين ... يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع » .

لا بد أن تستولي الدهشة علينا ، نحن بدورنا ، عندما نقرأ اليوم هذه التحية . هل يمكن أن توصف (باريس) حقاً بأنها « مرضعة الحكمة وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ومحيية المدنية الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية » ؟ لا نعتقد أن الأستاذ الرئيس نفسه كان في السنوات الأخيرة من حياته يرضى باطلاق هذه الصفات على عاصمة الفرنسيين بعد أن تكشفت حقيقتها واتضح زيفها وتفسخها . ولكن في الوقت الذي كتبت فيه تلك العبارات ، أي قبل الحرب العالمية الأولى ، كان أكثر الناس ما زالوا يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية ويحسنون الظن بفرنسا وينتظرون انبعاث النور من باريس . ولا ننسى أن مبادئ الثورة الفرنسية كانت منبع الهام لمعظم المفكرين والمصلحين والكتاب العرب في القرن التاسع عشر . على أن الأستاذ (محمد كرد علي) قام بعد انتهاء رحلته الأولى فألقى خطاباً في المنتدى الأدبي باستانبول قال فيه انه أثناء إقامته في (باريس) سمع محاضرات وخطباً لم ير في أكثرها إلا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه . وذكر ، على وجه التخصيص ، محاضرتين : الأولى لعالم أثري كان قد عاد من التنقيب في تركستان الصينية وادعى بأن التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادي عشر وأتى على الآثار بجملتها . ويعلق الأستاذ (محمد كرد علي) على المحاضرة بقوله : ان جسمه قد تكهرب بها وتأثرت عواطفه لأنه سمع مهانة أمته بأذنيه . والمحاضرة الثانية ألقاها السيد (تارديو) ، وهو من كبار السياسيين الفرنسيين ، على طلاب مدرسة اللغات الشرقية الحية فبحث في نشأة الامتيازات الأجنبية وعلاقة فرنسا بالشرق ، وأشار الى أن فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العثمانية لمقاصدها . وأنها

لا تقصر كل حين في بتر عضو من أعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى .
وقد لاحظ الأستاذ (محمد كرد علي) بأن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال المحاضرة ثم صرخ قائلاً : « فيا إخواني ، أيسمع عثماني هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمداً وحسرة ولا تسود الدنيا في عينيه ؟ » ، (غرائب الغرب ، الجزء الأول صفحة ١٥٩) .

لم يكن الاستاذ الرئيس يجهل الأخطار التي تهددنا من الاستعمار الغربي وكان يذهب الى أننا لا نستطيع حفظ كياننا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذي يقاتلوننا به ، أي سيف العلم . ثم كان يقول : « لا يكفي أن نذكر مجدنا القديم ونورد الشواهد على أيامنا الغر المحجلة في تاريخ المدنية السعيدة ، فحضارة الغرب اليوم لا تبقي على ضعيف . لذلك يقتضي علينا أن نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا » . (غرائب الغرب ، الجزء الأول ، صفحة ١٥٨ — ١٥٩) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد وصف الأستاذ (محمد كرد علي) آثار الحضارة الغربية في التنظيم السياسي والاجتماعي وفي الصناعة والزراعة والتجارة ، واهتم على الأخص بمعاهد التربية والتعليم والمكتبات العامة والمجامع العلمية . ونراه في كل مناسبة يضرب الأمثلة على عناية الأوروبيين بالعلوم والفنون والآداب ، وعلى حبهم للعمل وعلى تضامنهم والتعاون بين حكوماتهم وشعوبهم عسى أن يكون في ذلك عبرة لبني قومه وقدوة يحتذونها .

فالأستاذ (محمد كرد علي) إنما كتب (غرائب الغرب) ليستنهض الهمم ويدعو الى الإصلاح . وهذا ما يعلل اقتصاره على وصف النواحي الجميلة من الحضارة الغربية والإشادة بمظاهر تقدمها وتفوقها . وهو يذكر لنا أن بعض أصحابه قد لامه على ذلك وأنه قد رد عليه بقوله : « إني كنت أريد أن أعرف قومي بالحسنات ينسجون على منوالها وما كنت أطمع في أن أشغل الأذهان

بأمور لا يخلو منها بلد انحط أو ارتقى ، وعندنا مما يماثلها ما لا ينفع تدوينه ونحمر خجلاً من ذكره . ومن العدل أن يقال اننا بقدر ما نرى في المدنية الحديثة من فضائل نرى فيها ما يقابلها من رذائل ، والفضائل تربو على غيرها كثيراً . فالأمثل بقومنا أن يقتبسوا الخير ويغضوا الطرف عن الشر » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ١١٣) .

آراء الأستاذ كرد علي السياسية :

كان الأستاذ (كرد علي) يدعو العرب والمسلمين الى الاقتباس عن الحضارة الحديثة لاعتقاده بأن ذلك هو السبيل الى القوة والى استعادة المجد القديم . ونرى الأستاذ لا يفصل أبداً بين العرب والإسلام ، ويتكلم في كثير من الأحيان عن الوطنية والقومية العربية . وقد اشتغل بالصحافة مدة طويلة وعالج الشؤون العامة وتولى منصب الوزارة أكثر من مرة . فما هي آراؤه السياسية ؟ كيف كان يتصور مستقبل بلاده ، وما هي الوسائل وأساليب العمل التي كان يعتقد بأنها صالحة لتحقيق الأهداف القومية ؟

من المؤكد أن آراء الأستاذ الرئيس السياسية قد تطورت مع مجرى الحوادث واختلاف الظروف وتقلب الأوضاع . وهذا أمر طبيعي . ولا شك في أن الأستاذ (محمد كرد علي) كان ، منذ أول نشأته ، على يقين من فساد الحكم التركي وتدهور الدولة العثمانية . وهو ربما يكون بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ قد اعتقد مع الكثيرين من أبناء جيله بأن الدولة العثمانية يمكن إصلاحها وبقاؤها . ولكن لم تنقض فترة من الزمن حتى أدرك أن سياسة حزب الاتحاد والترقي الحاكم سوف تؤدي الى انهيار الدولة وتقطيع أوصالها ، وقد انضم الى حزب الحرية والائتلاف المعارض الذي كان يجاهر بضرورة احترام حقوق العناصر غير التركية في الدولة ، وعلى الأخص العرب . ونراه بعد رحلته الثانية الى

الغرب يلقي خطاباً جديداً في المنتدى الأدبي في شهر شباط من سنة ١٩١٤ يدعو فيه الطلاب العرب الى التمسك بقوميتهم . قال : « إننا لا نحيا إلا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة اليوم . ولكن هذا اللفظ الجميل - لفظ القومية - لا يطابق معناه مبناه الا باتخاذ جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون ... وما يجري من منافسة محمودة بين الفالونيين والفلامنديين في البلجيك والألمانيين والفرنساويين في سويسرة » . (غرائب الغرب ، الجزء الأول ، ص ٣٢٩) فالأستاذ (محمد كردعلي) لم يكن يقصد بالقومية مفهومها السياسي ، بل أراد بها أن تتساوى مختلف الشعوب في الحقوق ويحتفظ كل منها بلغته وتقاليده ضمن الدولة العثمانية . ومن الواضح أن هذا الرأي في القومية كان يتعارض مع المفهوم الذي أخذ يتبلور إذ ذاك لدى العرب والذي يتضمن ، قبل كل شيء الانفصال عن الدولة العثمانية وتوحيد الأقطار العربية في دولة مستقلة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

نشأ الأستاذ (محمد كردعلي) في عهد انتشار الدعوة الى الجامعة الإسلامية وتأثر بآراء المدافعين عن هذه الجامعة . ولكن تفكيره الواقعي منعه من الاندفاع وراء الدعوة ، فكتب يقول : « الى عهد قريب كان بعض المتحمسين يدعون الى الجامعة الإسلامية بدون أن يعدوا لها عدتها ، ويعلقون على تأليفها أعظم الآمال . ولقد كنت ، كلما سمعت هذه النغمة استبعد تحقيق الأمنية . ولذا لم أكتب في هذه الجامعة سطراً واحداً بالتعديل ولا بالتجريح . وكيف ، لعمري ، تتحقق الجامعة الاسلامية والمسلمون تحت سلطان دول متنوعة مشتتون في ثلاث قارات ، تتباعد أصقاعهم ألوفاً من الأميال ولا يكادون يتفاهمون اذا اجتمعوا ؟ . » (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٣٣٥ — ٣٣٦) . انه كان يتمنى قيام جامعة إسلامية في شكل من الأشكال ، ولكنه يريد في

بادئ الأمر التمهيد لذلك بالدعوة الى التعارف والتآلف وتقوية الروابط المعنوية والصلات الروحية بين المسلمين .

ولم يكن الأستاذ (محمد كرد علي) يرى أي تعارض بين الإسلام والقومية العربية . فالإسلام ، حسب تعبيره ، « هو الذي جمع شمل العرب بعد تشتتهم وآخى بينهم مؤاخاة ما عهدوها وهذب نفوسهم حتى سلس قيادهم بعد شماسه ، وثقفهم ثقافة أفادوا بها ... وهو الذي جعل في العرب خاصة في أخلاقها سائقها الى العمل الصالح فوحد بين مقاصدها ووجهها الى هدف واحد » . (الإسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول صفحة ١٣٥ — ١٣٧) . ولكن لا بد من الملاحظة بأن الفكرة الإسلامية عند الأستاذ (محمد كرد علي) كانت مجردة كل التجرد عن التعصب ولا تسمح أبداً بالتفريق بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان . واختلاف الدين ، في رأيه ، لا يتنافى مع الرابطة الوطنية والقومية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كذلك فان التباين في أنظمة الحكم ومستوى الحضارة والتطور الاجتماعي لا يمنع من قيام الوحدة القومية بين أقطار عديدة اذا جمعت بينها ذكريات التاريخ ووحدة اللغة والمصالح والأهداف . وفي حديث من إذاعة القدس سنة ١٩٤٤ اعتبر الأستاذ (محمد كردعلي) تأسيس جامعة الدول العربية خطوة كبيرة في طريق الوحدة العربية . فذكر أن هذه الوحدة كانت أمنية العرب منذ عشرات السنين وان بعضهم كان يعدها حلماً من الأحلام ووهماً لن تحققه الليالي والأيام ولكن تبين أن ليس في السياسة المستحيل وأن الأمور مرهونة بأوقاتها » . ثم قال : « وعلينا ، معاشر العرب ، أن ندعو الى هذه الأمنية بالطرق العلنية نورد لمن لا يعرفنا صفحات من ماضينا وحاضرنا ليكون لنا من شعوب أوروبا وأمريكا نفسها أنصار يوافقوننا على إتمام رغائبنا التي هي رغائب البشرية » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٣٤٤) .

من هذه الأقوال يتبين لنا أن الأستاذ (محمد كرد علي) كان من أنصار الجامعة الإسلامية كرابطة روحية وأنه كان يدعو الى الوحدة العربية كفكرة قومية مدفوعاً بعاطفة الحب للعرب والإسلام دون أن يتعرض الى النضال السياسي — الشعبي ، لأنه كان دوماً يرغب في الانصراف الى الحياة الفكرية . وقد اعتقد أن أفضل وسيلة يخدم بها بلاده هي العمل على نشر المعرفة وتقدم العلوم والآداب . فاتجه بكل قواه الى العناية باللغة العربية وآدابها والى البحث في تاريخ العرب والإسلام وعلى الأخص تاريخ بلاد الشام ، وكان يؤمن بأن نهضة العرب والمسلمين تتوقف على دراسة تاريخهم واحياء تراثهم .

ليس من شأني أن أتكلم عن مؤلفات الأستاذ الرئيس في آداب اللغة العربية مثل مختاراته في كتاب «رسائل البلغاء» أو دراساته في كتاب «أمراء البيان» . انما لا بد لي من الإشادة بتأثير هذين الكتابين في تنمية الذوق الأدبي وتهذيب أساليب الكتابة لدى الناشئة العربية في هذا العصر .

انني سوف أقتصر على استعراض دراسات الأستاذ التاريخية ، ولا سيما كتاب «خطط الشام» ثم كتاب «الإسلام والحضارة العربية» .

تاريخ الشام :

يتألف كتاب «خطط الشام» من ستة أجزاء ، وهو عبارة عن موسوعة أو دائرة معارف تحيط بكل الأخبار عن تاريخ الديار الشامية وحضارتها من أقدم العصور حتى سنة ١٩٢٥ .

كان الأستاذ (محمد كرد علي) قد نشر في سنة ١٨٩٩ في مجلة المقتطف تسع مقالات عن (عمران دمشق) صادفت استحساناً لدى القراء ، فدفعه ذلك الى التفكير في أن يتوسع في هذا البحث وأن يكتب عن عمران الشام كله . ومنذ ذلك الوقت أخذ يتصفح كل ما ظفر به من المخطوطات والمطبوعات باللغات

العربية والتركية والفرنسية . وكان يقصد دور الكتب الخاصة والعامة في الشام ومصر واستانبول للتفتيش عن مصادر جديدة . ولهذه الغاية في الدرجة الأولى قام برحلاته الثلاث الى البلاد الأوروبية وزار المكتبات المشهورة فيها .

على أن الأستاذ كان كلما استكثر من المطالعة تنجلي أمامه صعوبة العمل . وقد ظل مدة من الزمن محتاراً في كيفية ترتيب الموضوع : هل يجعل التاريخ السياسي حسب السنين أم حسب الدول ، وهل يتكلم على القطر عامة أم على كل اقليم باقليمه ، ثم لما انتهى في سنة ١٩٢٥ من التأليف ، بالحاح من أصدقائه ، تردد في طبع الكتاب . وهو يقول في ذلك : «ولقد وددت ، لما تيسر وضع خطط الشام على هذه الصورة ، لو ساغ لي أن أصبر عليه زمناً آخر حتى يتم التحقيق فيه على ما يجب ، ولكن رأيت ، بعد طول التأمل ، أن من الحزم الاكتفاء بما تهيأ في هذه السنين ، والتمحيص بحر لا ساحل له ، فأبرزته . . . وأنا موقن بأن فوق ما طالعت وبحثت غايات لم يمكني الزمان والمكان من بلوغها ، وعسى أن يقوم غيري بعدي فيتم هذه الخطوط التي رسمتها من بنيان كتاب الخطط ويصلح بما يتوفر له من المواد ما ربما وقعت فيه من الغلط والشطط» . (مقدمة الخطط : صفحة ٩) .

وقد اضطر الأستاذ الى الاكتفاء بخلاصة قصيرة عن تاريخ الشام القديم لا تزيد على (١٨) صفحة وقال : «كنت أحب التوسع أكثر من ذلك لولا الخوف من الوقوع في نقل ما لم يتفق الباحثون عليه . والتعرض للمجهولات يؤدي الى سقوط في غلطات أو خيالات أو حكايات متناقضات . ولعل عناية علماء العاديات في عصرنا توصلهم الى اكتشاف ما كان مجهولاً من تاريخ هذه الديار كلما أوغلوا في حفرياتهم» . (خطط الشام ، الجزء الأول ، صفحة ١٠٤) ثم هو يعترف بأن الكلام جاء ناقصاً في بعض الأدوار المتأخرة وأن بعض مواضع مهمة ذات صلة بمدنية الشام لم تنكشف له . (انظر : الخطط ،

الجزء الأول صفحة ٧) ولما رأى الأستاذ أن وصف التطور الحديث للزراعة والتجارة والصناعة في بلاد الشام يحتاج الى دراسة اختصاصية لم يتردد في الاستعانة بالاخصائيين من أصدقائه فطلب اليهم كتابة بعض الفصول أو تزويده بالمعلومات الفنية .

إن الأستاذ الرئيس لم يذكر الصعوبات التي اعترضت طريقه ونقاط الضعف البارزة في كتابه على سبيل المباهاة واصطناع التواضع ، بل بدافع الاخلاص للعلم وحباً في الإصلاح . فهو يعرف أن مهمة المؤرخ في هذا العصر قد أصبحت عسيرة جداً لأنه يحتاج الى الاستعانة بكثير من العلوم ، مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والسياسة بالإضافة الى دراسة الوثائق والكتابات والنقود الخ . . وكان لذلك يرى ضرورة التعاون بين الاخصائيين عند كتابة التاريخ العام . كما انه لم يكن يجهل العوامل التي تدفع المؤرخين الى التحيز والتعصب والمبالغة والتحريف .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكنه كان يعتقد بأن واجب المؤرخ هو أن يتحرر من تأثير الأهواء السياسية والدينية فيسعى الى معرفة الواقع ويبسط لأمته حقائق ماضيها وحاضرها ويقفها على جلية أمر المحسن والمسيء ويروض قلبها على قبول الحق . وفي الواقع كان الأستاذ الرئيس يكره التقية ويحب الصراحة . وقد ذكر قول بعض الفقهاء « ونسكت عما شجر بينهم ، أي بين الصحابة » فوصفه بأنه « كلام من لا أرب له في غير العافية » وأضاف قائلاً ، « ولو شايعناهم على هذا الرأي لأضللنا طريق الهدى في قيام أمرنا » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٢٣٥) . كذلك فان الأستاذ قد هاجم ابن خلدون لأنه نها عن الخوض في موضوع الخلاف بين الصحابة ولا سيما بين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب فقال : « نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ ولبس ثوب الواعظ القصاص أو هو يريد أن

يتأدب أدب السياسي المهذب مع الجماعة لا يقول لصاحب الأمر ما يزعجه فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها ويحاول أن يكم أفواه الرعية لأنها اذا قالت فعلت ، وما حسب حساباً للأهواء البشرية والمطامع الدنيوية ، فكأنهم ما أخطأوا في نظره وكأنه يزعم أنهم لا دخل لإرادتهم التي خلقها الله لهم فيما قضوا وأمضوا ..» (كنوز الأجداد ، صفحة ٣٩٤) أعتقد أن الأستاذ (محمد كرد علي) قد ظلم ابن خلدون واتهمه بما هو بريء منه ، ولكن كلامه يساعدنا على معرفة نظرته الى التاريخ ويستحق ان نشير اليه . وقد تعرض الأستاذ نفسه الى سياسة الخلفاء الراشدين والى الخلاف بين علي ومعاوية فكيف عالج هو الموضوع ؟

قال الأستاذ الرئيس في كتابه « الإسلام والحضارة العربية » (الجزء الثاني صفحة ٣٨٦) : « ... وبعد فان الخلفاء الراشدين قاموا بخلافة النبوة على أكمل وجه أمكن ، واذا لاحظنا اليوم أنه وقع من بعضهم شيء فهو منهم محض اجتهاد ، والمجتهد يصيب ويخطئ ، والسياسة صعبة المراس على كل الناس ، وما كان للبشر أن تجيء أعمالهم تامة من كل الوجوه ... » فهل يختلف هذا الرأي كثيراً عن رأي ابن خلدون ؟

ثم ان الأستاذ قد نشر في آخر المجلد السادس من « خطط الشام » الملاحظات التي أبداها بعض الناقدين على كتابه ، وبين هؤلاء الأمير شكيب أرسلان والأستاذ عارف التكدي ، اللذان اتهماه بالتعصب لبني أمية .

وفي الحقيقة دافع الأستاذ (محمد كرد علي) عن إسناد الخلافة الى يزيد ابن معاوية ، كما انه وقف الى جانب الأمويين في نزاعهم مع العلويين . ولكن لا يمكننا الادعاء بأن الاستاذ قد اندفع هنا مع عواطفه وتأثر « بالنعرة الشامية » . فهو قد بحث الموضوع كما يجب أن يبحثه كل مؤرخ : انه قد ذكر جميع الروايات المنقولة والآراء المتضاربة وسعى الى الكشف عن

أسباب الوقائع ولم يصدر حكمه إلا بعد مناقشة الموضوع من كل الوجوه ، وبذلك كان مخلصاً للنظرة الموضوعية العلمية . ومما يسترعي النظر أنه قد اتفق مع ابن خلدون في تعليله لإقدام معاوية على إيثار ابنه يزيد بولاية العهد دون سواه ، إذ قال إن السبب في ذلك هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس على بني أمية أصحاب أقوى عصبية في قريش . (الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٤١) .

أما موقفه من الخلاف بين الأمويين والعلويين فيتفق أيضاً مع النظرة العلمية في التاريخ . يقول الأستاذ : « ان الخلاف بين الأمويين وخصومهم من العلويين ما يزال يقوى ويضعف ، وما هو الا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك وليس من الدين في شيء . فليس إذاً من العقل أن تتسلسل هذه الأحقاد في الأمة وتتفرق شيعاً وتظهر بمظهر التعصب والتشيع .. » ثم يزيد رأيه وضوحاً إذ يقول : « إن مسألة الخلاف بين علي ومعاوية قد مضى عليها الزمن وكان لكل منهما اجتهاده ، وهي من المسائل المؤلمة في تاريخنا يجب أن ندرسها بانصاف ... فالأمة يجب عليها أن تعرف مواطن الضعف والقوة من جسمها وتكشف حقائق ماضيها لأنها ابنة حوادث ماضية ، والواجب في البحث أن لا يثير في النفوس أحقاداً ... » (الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٦٦) .

يتبين لنا من ذلك أن الأستاذ الرئيس لم يقتصر في كتاب « خطط الشام » على جمع الكثير من الأخبار والمعلومات المتصلة بتاريخ هـذا القطر وتطوره الحديث والتي كانت مبعثرة في مئات المراجع القديمة والحديثة ، بل أقدم أيضاً على تحليل بعض الحوادث الهامة واستخلاص العبر منها . فهو انما انصرف الى البحث التاريخي لإيمانه بأن نهضتنا في الحاضر والمستقبل تتوقف على معرفة الماضي معرفة صحيحة والاستفادة من تجاربه .

الدفاع عن العرب والإسلام :

يروي الاستاذ (محمد كردعلي) في مقدمة كتابه « الإسلام والحضارة العربية » ثم في « المذكرات » (الجزء الأول ، صفحة ٣١٦) انه عندما دعي الى مؤتمر المستشرقين في (ليدن) سنة ١٩٣١ ، اقترح عليه أعضاء مجمعكم المحترمون أن يوجه الأنظار إلى ما يبديه بعض المؤلفين في الغرب من تحامل على الإسلام والعرب ومن طعن بتاريخهم وحضارتهم . وقد عدل الأستاذ بعد ذلك عن السفر ولكن موضوع الرد على خصوم العرب والإسلام كان قد استهوى فؤاده فانقطع الى دراسته وتشعبت به مسالك البحث فلم يقف عند مناقشة هؤلاء الخصوم ونقض أقوالهم ، بل أتبع ذلك بوصف مدنية العرب المدينة للإسلام بانبعاثها وحسناتها ، فتكلم عن تمثل العرب لحضارة وعنايتهم بالعلوم والآداب والفنون وعن انتشار لغتهم وقارن بين حالة العرب وحالة الغرب في القرون الوسطى وكشف عن أثر الثقافة العربية في أوروبا وعقد فصولاً خاصة لمدنية العرب في الأندلس وصقلية وبحث في الحروب الصليبية وفي غزوات المغول والأتراك ثم في غارات المستعمرين الغربيين على البلاد الإسلامية . وقد جمع هذه المباحث في الجزء الأول من كتابه « الإسلام والحضارة العربية » ، أما في الجزء الثاني الذي يؤلف وحده مجلداً ضخماً فقد ألقى الأستاذ نظرة اجمالية على العلوم والمذاهب عند المسلمين ثم استرسل في الكلام على الإدارة والسياسة في الإسلام .

ان الكثيرين من الذين طالعوا كتاب « الإسلام والحضارة العربية » قد أيدوا رأي الأمير شكيب أرسلان في أنه خير ما كتب الأستاذ (محمد كردعلي) وأنه كفى الناس مؤونة نشدان الأدلة من هنا وهناك للرد على المغالطين والمكابرين والمتجاهلين . ولا غرابة في ذلك ، فقد سلخ الأستاذ في تأليفه ثلاث سنين يعمل على التوالي وبحماسة ورجع الى أكثر من خمسمائة مصنف لجمع موادّه .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويمكن القول انه لم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها من الأخبار المتعلقة بأساليب الإدارة والسياسة عند خلفاء المسلمين وملوكهم . كذلك استقصى الأستاذ المسائل التي يرددها خصوم العرب والإسلام وكشف عن العوامل التي تدفع بعض المستشرقين الى تشويه الوقائع ومخالفة الحقائق من تعصب ديني وطمع استعماري وأوهام موروثة وجهل مقصود وقد جاء بشواهد كثيرة من مؤلفات الغربيين الذين أنصفوا الإسلام والعرب ، وفي مقدمتهم (غوستاف لوبون) لتفنيد أقوال المغرضين .

ولما كان الكثيرون من الذين يهاجمون العرب والإسلام لا يتقيدون في المناد بقواعد البحث العلمي وشروطه ولا يهتمون بالوقائع والبراهين فقد اضطر الأستاذ (محمد كرد علي) الى أن يستخدم مع هؤلاء طريقة الجدل والهجوم المعاكس . هكذا عندما رأى مؤرخاً أمريكياً اسمه (كوفن Goweu) يتهم الشريعة الإسلامية بأنها « حفظت في تضاعيفها شروراً اجتماعية تئن منها الانسانية » ، قام يرد عليه بقوله : « إن الكاتب الأمريكي ربما قال هذه الجملة وهو لم ير في حياته مسلماً ولا قرأ كتاباً معتمداً من كتب العرب ، فاها بدافع هو يعرفه أو فاه بها ليأتي بالغريب ، وأميركا مهد الغرائب . وهو ، لو أنصف لفسر هذه الشرور التي اتهم بها الإسلام وأنت منها الإنسانية . كأن الإنسانية لم تئن مثلاً من معاملة الجنس الأبيض للأسود في أميركا . . . وكأن الإنسانية لم تئن من الحروب الدينية التي أهلكت فيها الامبراطورة (تيودورا) وحدها نحو مائة ألف من المانويين في أواسط القرن التاسع . . . . وكأن الانسانية راضية عن أعمال ديوان التحقيق الديني الذي قتل في اسبانيا وحدها ، كما قال « ريناخ » نحو مائة ألف انسان على أقل تعديل . . . » (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ١٣ — ١٥) .

كان الأستاذ (محمد كرد علي) يندفع مع العاطفة ويغضب أشد الغضب اذا ما شعر بأدنى تحامل على العرب والاسلام . إلا أنه لم يكن ، من جهة ثانية ، يجهل ما يتطلبه البحث العلمي من حياد وتجرد وانصاف . وقد كان همه الأول تحري الحقيقة والدفاع عنها بحماسة وقوة . فهو يقول : « والمهم في تاريخنا أن نقلبه كل مقلب لا ندلس فيه ولا نوالس لنتعرف الحقائق في صورتها الجلية النافعة » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الثاني ، صفحة ٩٢) ثم يصرح قائلاً : « واذا أولع العرب بتاريخهم فليس معنى ذلك أنهم يدعون أنهم كانوا أول من أرخ لهم من الأمم أو أنهم كانوا البادئين بأس المدنية . وما ادعى المسلمون قط أنهم نزلوا بحضارتهم من السماء ؛ بل ادعوا وأثبتوا دعواهم أنهم أخذوا حضارات الأمم القديمة وزادوا عليها ما وسعتهم الزيادة فأوصلوها بأمانة الى أهل المدنيات الحديثة » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ٥٥) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد استحسن الأستاذ كل الاستحسان الجهود المبذولة بعد الحرب العالمية الأولى « لتوحيد التاريخ في العالم وتقليل مصادر الأحقاد بين الأمم » ، وأعرب عن اتفاقه في الرأي مع « طائفة من العقلاء في الغرب ترى نبذ كل ما يثير الحقد ويدعو الى الظنة ويفك عرى الالفة » . ثم قال : « ولن يتم قيام هذا المجتمع الحديث إلا بتعاون الشرق مع الغرب تعاوناً حقيقياً يقوم على الحرمة المتبادلة والمصلحة المشتركة والعدل الذي لا يتجزأ . والبشر اليوم مقصد أسمى من الخلافات والمناقشات التي جاءت القرون اثر القرون وما زالت بحالها لم تورث النفوس إلا اشمئزازاً . البشر بعد هذا التقارب في المواصلات والأفكار أحوج ما كانوا الى التعارف والتعاطف وانصاف بعضهم بعضاً ليقوم نظامهم على الوئام والسلام » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ١١ — ١٢) .

هذا الكلام دليل قاطع على تجرد الأستاذ من التحيز والتعصب الأعمى كما أنه يشير الى ما اتصف به من تفكير علمي وروح إنسانية ٠

سادتي الأفاضل !

إن الأجيال المختلفة لا تتعاقب فحسب ، بل هي كذلك ينبثق بعضها عن بعض ٠ فالجيل الناشئ يتلقى من الجيل السابق معظم تقاليده وعاداته ومفاهيمه وأفكاره وعقائده ، كما يرث عنه الكثير من المشاكل ٠ وتتوقف سرعة تطور المجتمع على مقدرة الجيل الناشئ في حل هذه المشاكل وتحوير تلك العادات والتقاليد ثم في ابداع عقائد وأفكار ومفاهيم خاصة تستمد عناصرها من الماضي وتتلاءم مع الحاجات والأوضاع الجديدة ٠ فالصلة بين الأجيال المتعاقبة قد تضعف أحياناً ولكنها لا يمكن أن تنقطع ما دام المجتمع قائماً ومحافظاً على كيانه ٠ ٠

كان الأستاذ (محمد كرد علي) من الأفذاذ النابغين الذين يمثلون جيلهم أحسن تمثيل ويعبرون عن مشاعره بأفصح لسان ٠ لقد أخذ عن الجيل الذي قبله خلاصة ثقافته وأضاف اليها الكثير من المعلومات والمفاهيم عن طريق المطالعة والدراسة الشخصية ٠ وقد تأثر بالتيارات السياسية والاتجاهات الفكرية التي سادت في مختلف أدوار حياته فلم يتردد في أن يخوض غمارها ويلعب دوراً هاماً فيها ٠ وبذلك كان له تأثير عميق في أبناء جيله والجيل الذي بعده ٠ ومن منا ، أيها السادة ، لم يقتبس من أنوار الأستاذ الرئيس ولم ينهل من معينه ؟

لم يكن الأستاذ (محمد كرد علي) صلة الوصل بيننا وبين الجيل الماضي ، جيل محمد عبده وطاهر الجزائري فحسب ، بل أيضاً بين عصرنا والعصور الغابرة من تاريخ العرب والإسلام التي أعادها الى الحياة في كتبه وكشف لنا عن روعتها وهدانا الى معرفة حقيقتها وجوهرها ٠

وإذا كان الأستاذ قد بدرت منه في بعض الظروف انتفاضات عنيفة واذا كان قد وقع أحياناً في تناقضات صارخة ، فذلك أمر طبيعي ، لأنه عاش في زمن كله ثورات وتناقضات وكان أولى الناس بالتعبير عن هذه الثورات والتناقضات ، شأنه في ذلك شأن كل العباقرة والنابغين الذين تتبلور فيهم حياة عصرهم وتنعكس جميع التيارات والاتجاهات . ومن حق العباقرة والنابغين أن يقتحموا لجج التناقضات لأنهم وحدهم يستطيعون التغلب عليها .

واذا كنا عاجزين عن التحليق مع الأستاذ الرئيس في الأجواء الصاخبة فما أجدرنا بأن نسترشده في متابعة الطرق التي مهدها لنا وفي تحقيق الأهداف التي رسمها .

وأقصى ما أرجوه هو أن أستطيع القيام بقسط متواضع من هذا الواجب فأكون بذلك عند حسن ظنكم والسلام عليكم .

محمد كامل عياد

الإفصاح عن أبيات مشكلة الإيضاح للفارقيّ
ولا
توجيه إعراب أبيات مُلغَزَةِ الإعراب للرُّمّانيّ

كنّا أنا والميدان عزّ الدين التنوخي وسعيد الأفغاني في يونية الماضي نتفرّج في متنزه المهاجرين بدمشق ونتجاذب أطراف أحاديث هي ألذّ من السلوى لدى كل عارف . وسألت الصديق الكريم الأفغاني عما سقط عليه من طرائف الأعلاق وضنائن الأسفار في رحلته إلى الغرب والمغرب سنة ١٩٥٦ م فأخبرني بكتاب الرمّاني هذا ولم يزدني فيه شيئاً .

إذ جاءني كتاب من معالي الأستاذ الزركلي من الرباط أخبرني فيه بصدوره من المطبع ثم لم يمض أيام إلا وكتاب الصديق ماثلٌ أمام عيني ٢٣/٩/٥٨ م دالاً على ودّه وصفائه .

ومنذ تناولت نسخته ما زالت الشكوك تخالجني والرِّيَب والأوهام تساورني . ولما تغلغلت إلى أعماقه وعرفت أن صاحب الكتاب يروي عن أبي علي الفارسيّ (م ٣٧٧ ﻫ) وأبي سعيد السيرافي (٣٦٨ ﻫ)، والرماني (٣٨٨) عصريهما[1] وفي طبقتهما ، وزاد ضِغثاً على إبّالة أنه شرح اللُمَع لابن جنّي (صاحب أبي علي الذي نبغ في آخر حياة الرماني وبُعيد وفاته) — جزمت بأنه ليس للرماني ألبتّة .

وكنت أذكر الحسن بن أسد الفارقي أبي نصر الشاعر الكاتب النحوي المقتول سنة ٤٨٧ ﻫ الذي تُرجم له في الأدباء (٣/٤٧ — ٥٤) والإنباه (١/٢٩٤ — ٢٩٨) وعنها في الفوات والشذرات وغيرهما — مؤلفاً في المعنى .

(١) وأخذ عن أبي بكر السرّاج وابن دريد كما اخذا عنها .

فراجعت جزازاتي التي كنت علقتها في رحلة سنة ١٩٣٦ وفهرست دار الكتب ومجلة المجمع فوجدت :

أن الإفصاح عن أبيات مشكلة الإيضاح للفارقي توجد منه نسخ ومعظمها أجل وأقدم من نسخة باريس . إحداها بولي الدين بايزيد برقم ٢٨١٨ بقطع صغير في ٨٥ ورقة . وأخرى بالدار (فهرس النحو ١٢٠) أولها : أطال الله بقاءك وأدام عزك ونعماءك[1] وحرس نفسك وعلاءك الخ . وهي من مقتنيات الشنقيطي في ٢٧١ ص والمسطرة ١٥ عن نسخة كتبت سنة ٦١٣ هـ . وفيها ص ١٥٨ جاء ذكر مختصر للإفصاح ممّي فيه الأصل ألغاز الإعراب في مجموعة للشنقيطي برقم ٣٦ . ولعل هذا المختصر لعز الدين الزنجاني (والريحاني تصحيف) المتوفى سنة ٦٥٤ . ومنه نسخة في خزانة بيت الجوهري بنابلس جاء ذكره في مجلة المجمع ص ٤٥٥ سنة ٢٤ م نسخ سنة ٦٦٠ . كما جاء فيه ذكر نسخة أخرى في ٥/٩٧ ولكني لست أملك هذه المجلدة .

فظهر أن هذا خطأ عظيم أخذ على الصديق عمله وحرمه المعارضة بعدة نسخ جليلة كانت منه على طرف الثمام قريبة المتناول . كما حرم الفارقي البائس المسكين مؤلفين له من أنبل ما كتبه في حياته وذكرهما كل من ترجم له فلم يبق ما يدل على حياته . هذا على أن إضافتها إلى نبت مؤلفات الرماني وهو في صفحتين مكتنزتين ما كان ليغني عنه فتيلاً . إذ لم يعرفا له ألف سنة مضت على وفاته وقد نال دونها شهرة لا يستهان بها . فلم يذكرهما له أحد ممن ترجم له . والثابت على نسخة باريس ليس بخط الأصل كما هو ظاهر . فإما أن يكون هذا الكاتب المتأخر اختلط عليه الحابل بالنابل أي الفارقي بالرماني . أو أن يكون لما وجد الكتاب غفلاً أثبت عليه اسم كتيب للرماني

(١) والأسجاع الثلاثة بالمد لا بالقصر كما في المطبوع .

في المعنى نفسه إن ثبت أنه له . وذلك أن فهرست الدار المذكورة نفسها تذكر في ص ٧٩ الألغاز النحوية للرُّماني أوله : الحمد لله على فضله وكرمه الخ ٣٠ ش مخطوطة بقلم مغربي ، وهذا كما ترى غير المطبوع ، ثم رآه بروكلمان فتبعه ولم يوفّق لاستجلاء الحقيقة وربما يكون عرف إفصاح الفارقي فذكره في كتابه ولم يفرغ للعراض فقلّده من أتى بعده ، ثم إلى اليوم هلمّ جرّا .

وهذه بعض معلّقات على المطبوع :

١ – قوله في ص ١٢ : لا يُعرف من مؤلفات الرُّماني غير ثلاثة — زد اليها رابعاً وهو شرح أصول ابن السرّاج ومنه قطعة في مجموعة برقم ١٠٧٧ بكتبخانة سليم آغا في اسكيدار من ق ٢٩٥ — ٣٢٦ . وخامساً وهو ثلاثة أجزاء من شرح الكتاب الثاني والرابع والخامس بأرقام ١٩٨٤ و ١٩٨٧ و ١٩٨٦ في ١٨١ و ١٩٧ و ٢٩٧ ورقة ولاء بكتبخانة فيض الله ، أملاه سنة ٣٦٧ هـ .

٢ – على قوله ص ٢٥ : هنا فرق كبير بين أبيات المعاني وبين الألغاز النحوية التي ألف فيها الإفصاح . وقد كان الرّماني سبقه بالتأليف فيها وتأخر عنه ابن هشام وخالد الأزهري وقد طُبع كتاباهما ولأبي سعيد بن لُبّ منظومة مشروحة طبعت في[1] الأشباه للسيوطي . ولابن عربشاه كتاب فيها الى غيرهم . ياليت صديقي كان عارض عمله بها وقارن .

٣ – قوله ص ٣٠ : يمتدّ الى مائة سنة — ولكن ذلك لا يحتاج الى امتداد في عمره وإنما ينقل كلام ثعلب كما ننقله نحن الآن من دون أن ندركه .

٤ – في ص ٧١ : ...ام ليلي تجلّى همّي

غير مثزن ولا مثمن . وهو شط روف في الكامل ٧٩ :

فنـام ليلي وتجلّى همّي

(١) ٢ / ٣٠٢ ولم يعرف لمن هي وقد عرفنا صاحبها من الخزانة ٣ / ٤٦٦ . وترى في الأشباه جزءاً كبيراً في الألغاز .

وكذا الصواب من النوم في الكلمات الآتية على ما في الأصل لا كما غيّره في المتن . والبيت برقم ٥٥ لرجل من لصوص البحرين على ما في الكامل ٧٠٠ طبعة ريط .

٥ — في ص ١٣٤ : وجه الكلام وصوابه : أنشدناه أبو اسحاق (يريد الزجّاج لا غير) [في] المصنّف لأبي عبيد . والبيت برقم ١٢٦ من معروف شعر عنترة في طبعات ديوانه وسمط اللآلي ٤٨٣ وحماسة ابن الشجري ومشروحاً في الخزانة ٣/ ٣٦٢ والعيني ٣/ ١٧٥ .

٦ — في ص ١٨٥ : في بيت الرُبيع بن ضَبُع وجاء مصحّفاً (ولا أسادوا) ولم أجد مع طول البحث المقطوعة التي منها البيت ليُعرف أهو من همزيته أو داليته اه — المقطوعة همزية معروفة وكنت نشرتها في مجلة الزهراء ٤/ ٢٣٥ عن التيجان قبل نشره وهي في طبعته هذه ١١٩ وهي في المعمرين برقم ٦ والمرتضى ١/ ٢٥٥ وشرحي أدب الكتاب لابن السيد والجواليقي ٣٦٩ و ٤٦٦ والخزانة ٣/ ٣٠٦ . والبيت منها اذا عاش الفتى ، البيت من شواهد الكتاب كتاب سيبويه .

٧ — في ص ٢٠٣ : البيت برقم ١٨٣ لطفيل الغنوي من قصيدة في ديوانه برقم ٩ ومنها ثلثة أبيات في الحماسة فريتاغ ١٣٦ وبولاق ١/ ١٤٦ .

٨ — في ص ٢١٢ : الحافظو عورة ، البيت ليس لابن الخطيم وإنما هو من كلمة في الرويّ لعمرو بن قيس الخزرجيّ وقد خرّجته في الخزانة السلفية ٤/ ٢٠٥ .

٩ — في ص ٢٣٠ البيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي عزاه إليه سيبويه ١/ ٢٠٠ . وفُتَيّة فيه مصغر فتاة ولا يجوز فِتنة فان البيت لا يتزن معه .

(كراتشي) ٢٦/٩/١٩٥٨ عبد العزيز الميمني

مستدرك

على تصويبات في الوافي بالوفيات

اطلعت في العدد الأخير من مجلة مجمعنا العلمي العربي (المجلد ٣٣ ص ٦٩٢) على الملاحظات القيمة التي أبداها السيد الأستاذ رشدي الحكيم على أوهام حصلت في الجزء الثالث من الوافي بالوفيات للصفدي، فتذكرت أني كنت علقت بهامش الجزئين المطبوعين (الثاني والثالث) من هذا الكتاب تصويبات قليلة تخص الأعلام والجغرافية، فرجعت اليها ونقلتها، وهي التي أبادر بتقديمها الى المجلة عسى أن تفيد الناشر المحقق اذا ما أعاد طبع الجزئين المتقدمين من «الوافي».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجزء الثاني :

جاء في ص ١٥ سطر ١٩ — قوله : «أنشدنا له أبو يحيى بن عريبة»،

والصواب : ابن عريبة، وهو أديب تونسي مشهور، رحل الى المشرق واجتمع بوجوه من أعلام كتابه وأدبائه، وعاد الى بلده[1].

ص ٣٩ سطر ١٤ — (في ترجمة أبي العرب الإفريقي المالكي) وقد عدّ من مصنفاته .. «فضائل مكة»،

والصواب : «فضائل مالك» بن أنس الإمام المدني صاحب المذهب.

ص ٢٥٧ سطر ١٥ — في ترجمة (محمد بن بكسوت الظاهري) قال ... «وكان كاتباً مطبقاً كتب الكثير من المجلدات والرَّبْعات الفِصاح»،

---

(١) هو عثمان بن عتيق القيسي المعروف بابن عريبة، أبو عمرو، ولد بتونس وبها توفي سنة ٦٥٩ ه (ترجمه التجاني في رحلته وكذا العبدري في تقييد رحلته).

والصواب : .. كتب الكثير من المجلدات والربعات بالفضّاح ، وهو نوع من الخط المنسوب في الأقلام السبعة التي كانت شائعة في عصر المماليك ، وقيل سمّي بذلك لأنه يفضح صاحبه اذا كتب به ولم يجده . والغريب ان في الأصل المنتسخ منه وردت الكلمة على صوابها وصححها الناشر بما تقدم ، والمعنى لا يستقيم إذ لا معنى للربعات الفصاح .

في الجزء الثالث :

ص ٤٧ سطر ٣ — (في ترجمة محمد بن خلوف) ... «من أشراف أهل ناحية القمح ورؤسائها» ،

والصواب : .. من أشراف (باجة القمح) وهي من المدائن المشهورة بالبلاد التونسية من ناحيتها الغربية ، وإنما نسبت باجة هذه الى القمح لاشتهار أرضها بانتاج هذا النوع من الحبوب ، وأيضاً للتفريق بينها وبين (باجة الزيت) بلدة صغيرة بالساحل التونسي معروفة بكثرة زيتونها وبصنع الزيت (راجع معجم البلدان لياقوت — في باجة) .

ص ٦٩ سطر ١٨ — (في ترجمة محمد بن ربيع) جاء انه من قرية تونس ، والصواب : من قرية ينونش ، وكانت موجودة بالساحل الشرقي من القطر التونسي بمقربة من بلدة الشابّة اليوم (راجع معجم البلدان — في ينونش) أما مدينة تونس وهي عاصمة البلاد فلا يصح أن يصفها الصفدي بقرية .

(تونس) حسن حسني عبد الوهاب

ملاحظات (١)

على الجزء الثالث من كتاب الوافي بالوفيات
لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي
باعتناء الأستاذ (ديدرينغ)
– ٢ –

ص ١٢١ : في ترجمة ابن حيوس أنه استُخلف من قبيل الحكام على الفرايض والتزويجات : مكان (من قِبَل الحكام) .

ص ١٢٤ : في ترجمة الحناط الرعيني الأديب الأندلسي (وكان ينادي أبا عامر بن شهيد) : والصحيح (كان يناوي) كما جاء في ترجمته في كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد . والحناط بالطاء المهملة لا بالظاء .

ص ١٢٩ : محمد بن سليمان الغاني ، والصحيح الغابي بالباء لا بالنون نسبة الى الغابة قرية من كورة اشبيلية . وله ترجمة في المغرب لابن سعيد ١ : ٢٩٥ .

ص ١٢٩ :

وكم يكيد له الذكرى هوى نفيث ... منه صبابة عهد غير معهود
بما ارتمته وما زالت تميد به ... الى التصابي عيون الخرد الغيد

لعله في البيت الأول : (وكم يعيد له الذكرى) وفي البيت الثاني : (وما زالت تميل به) باللام .

ص ١٣٥ :

أين الثنايا التي اذا ابتسمت ... أو نطقت لاح لؤلؤ نَضِدُ

وقد وضع تحت الضاد من نضد كسرة والصحيح نَضَدُ محركة .

(١) تتمة ما نشر في (المجلد ٣٣ ، الجزء ٤ ، ص ٦٩٢ – ٦٩٤) من هذه المجلة .

ص ١٥٢ :

جازتْ دُرَّي وقد نَضَّدته كلماً يروق سمع الورى دراً يتحلب

وهي مُخشلب .

ص ١٥٢ : لأن ناصر الدين شافعاً كان قد عمي بآخره رحمه الله كلاً :

والصحيح (كان قد عمي بأخرة رحم الله كلا) وأخرة محركة وبأخرة آخر كل شيء كما في القاموس ، والصلاح الصفدي يستعملها كثيراً في نكت الهميان . ورحم الله كلاً أي كلاً من ابن الوحيد وناصر الدين شافع .

ص ١٥٥ :

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه

والصحيح (ما سحّت) على ما في الأغاني وغيره .

ص ١٥٩ :

أبا حسن هل جاز في الحب قبلها لمستسلم من أن يطاح له دم

والأصح (من أن يفاح) بالفاء لا بالطاء .

ص ١٦٥ : وأضر بآخره . والأصح (وأضر بأَخَرة) .

ص ١٦٧ : قال ابن الجوزي في المرآة : والمرآة لسبط ابن الجوزي .

ص ١٩٢ : — لكنها خَطِرات من وساوسه — بكسر الطاء والصواب خَطَرات بفتحها .

ص ١٩٦ :

كأنَّ القصد من إحدا ث أزمانيَ ازماني

ربما كان الأولى (من أحداث ازماني إزماني) . أحداث جمع حدث وإزماني مصدر من أزمنه أصابه بعاهة .

ص ٢٠٤ :

أفي كل صدر منك صدر كتيبة وفي كل حرف غارة وكمين

ولعل الأولى (صدر منه) والضمير عائد للكتاب .

ص ٢١٢ : طالما كثر الأنصار يوم اليأس، والصواب (يوم البأس) بالباء .

ص ٢١٢ : والوصايا كثيرة والتقوى زمامها وإمامها، إذا تقدم كل جماعة أمامها إمامها .

أرجح ان (امامها) الأولى بضم الأول بمعنى الجامع للخير ، (وكل) بالنصب على أنه مفعول لتقدم والفاعل (امامها) الثانية .

ص ٢٣٠ س ٢٠ : سنة خمس عشر : (سنة خمس عشرة) .

ص ٢٣٩ : وتزوج بآخره : (وتزوج بأخرة) .

ص ٢٣٩ : ويكتب خطاً رداً : (رديئاً) .

ص ٢٤٣ : وسمع بقراءتي معجم الشيخ علي بن المطار . ولعله (معجم الشيخ علي ابن العطار) ، وعلى هنا حرف لا اسم .

ص ٢٤٧ : وتم تصنيف الأحكام : (وتمم أو أتم) .

ص ٢٥١ :

أنقب ظهر الأرض ناشد صادق صديق فهل من منشد فيثابا

(فيثابا) بالثاء .

ص ٢٥٣ : وله أصحاب ومريدين : (ومريدون) .

ص ٢٦٥ :

رويدك يا بدر التمام فانني أرى العيش حسرى والكواكب طلعا

ولعل الشطر : (أرى الشمس حسرى والكواكب ظلعا) بالظاء .

ص ٢٧٣ :

أم السماء أتاحتنا زواهرها أم محدق الروض قد أهدى لناز هره

لعل الصواب (أباحتنا) .

ص ٢٧٦ :

والجد قل عابد الرحمن لا ألفٌ من قبل باء وسكن بابه تصب

(وسكن باءه) فاذا حذفنا الألف من عابد الرحمن وسكنا الباء يخرج معنا حاصل الضرب والطرح عبد الرحمن اسم جده .

ص ٢٧٩ : خرجنا نبتغي مكة حجاجاً وعمارا
فلما بلغ الحيرة حادى جملي حارا
فصادفنا بها ديراً ورهباناً وخمارا

هذه الأبيات الثلاثة أثبتت نثراً في حين كان ينبغي أن تثبت شعراً .

ص ٢٨٠ :

لا تيأسنّ اذا حويت فضيلة من العلم من نيل المرام الأبعد

والصواب (في العلم) ليستقيم البيت .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ص ٢٩٣ :

ووجد أناخت بالبواد ركايب له حين زمت للحبيب ركاب

والصواب (بالفؤاد) بالفاء ولعلها خطأ مطبعي .

ص ٢٩٢ :

وفكري وصبري ذاك ترداد وصله وهذا له عني نوى وذهاب

ولعل الأولى (يزداد وصله) .

ص ٢٩٤ :

أيا مريم لولا حسين تطالعت عليك سهام من أخ غيرُ قامل

ولعلها (تطلقت) بالقاف .

ص ٣١٥ :

اذا كنت عند الجد في الجد عمدة ولا أنت عند الهزل تصلح للهزل

وأرجح أن تكون (فلا أنت عند الجد) .

ص ٣٢٣ : وكان شجاعاً جرنا : (جريئاً) .

ص ٣٢٤ :

فكم أنت تنهى ولا تنتهي وتُسمع وعظاً ولا تُسْمَع
فياحجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تُقطَع

وربما الأصح (ولا تَسْمع ولا تَقْطع) للبناء للمعلوم .

ص ٣٢٤ : ماهذه دار سلام : ولعلها (ماهذه دار إسلام) .

ص ٣٢٦ س ١٧ : الى أن حان الليل ينهم : والأولى (حال) باللام .

ص ٣٢٨ :

لا تقبلن المدح ثم تَموّقه فتنام والشعراء غير نيام

بتشديد الواو من تعوقه ، ولعل الصواب تَموقه بالتخفيف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ص ٣٣٥ :

وان يوماً أراه فيه أحسبه أمر يوما من الدنيا وأبركه

والصواب (أمر يومٍ) .

ص ٣٣٥ :

اذا جانبت مقتدراً عليهـا كبائر ماجنت كف الأثيم
فلا تستكثري لمي فاني سأقدم في الحساب على كريم

وكتبت جانبتَ بضمير المخاطب وانما هي بضمير المتكلم .

ص ٣٣٨ : مع حظ وافر من الأدب وحفظ الأشعار والطب ، والأقرب أن تكون (والخطب) .

ص ٣٣٨ س ١٨ : وربما تغذي معه : والأقرب أن تكون تغدى بالدال المهملة .

ص ٣٤١ :

ولقد توسط في الأرومة منزل   وسطاً فصار موازياً للكوكب

(منزلاً) .

ص ٣٤٢ :

وان ترفعوا عنا يد الظلم تجنبوا   لطاعتكم منا نصيباً مؤخرا

ولعل الصواب (تجنبوا لطاعتكم) و (نصيباً موفرا) بالفاء .

ص ٣٤٢ : أطعم طعاماً فمات منه مبطوناً بالحضرة سنة أربع عشرة وأربع مائة مشرفاً على الستين واتهم به جماعة بمن كان هجاه . والصواب (ممن كان هجاهم) والترجمة واردة بالحرف الواحد في نكت الهميان .

ص ٣٤٣ : قال علي يوماً لفاطمة وهي تبكي لم تبكين أأخذت منك فدك ؟ : والصواب فدك بالفاء لا قدك بمعنى انتهى .

ص ٣٥٢ س ١٤ : وجاوز بمكة ستين عديدة . (وجاور) وهي من خطأ الطبع .

ص ٣٦٣ :

اقصر فقد صحت ثانة أهله   ومن الثغور كما علت الأبخر

وصوابها (الابخر) بالخاء .

ص ٣٦٨ :

يا أيها الملك المنصور قد كسرت   جنودك المغل كسر ماله جبر

(كسراً) .

رشدي الحكيم

العنوان
في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان
لمؤرخ دمشق النعيمي

عني عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد النعيمي الدمشقي (المتوفى سنة ٩٢٧ هـ) بالحديث وبالتاريخ ، فلقبه معاصروه بمؤرخ دمشق ، وبشيخ السنّة النبوية بها [١] . اشتهر بكتابه « تنبيه الطالب » الذي ذكر فيه ما كان بدمشق من المدارس والزوايا والربط والمساجد [٢] . وهو كتاب نادر ، لا نجد بين أيدينا اليوم مثله عن العواصم العربية الأخرى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلّف النعيمي آثاراً في التاريخ فقدت . وقد عثرنا له أخيراً ، في الخزانة التيمورية بالقاهرة ، على كتاب اسمه « العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان » فرأينا أن نعرّف به هاهنا .

يترجم النعيمي في كتابه هذا لعدد كبير من العلماء الذين أدركهم في دمشق ومصر ، في القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين . وقد بدأ كتابه بقوله :

« وبعد ، فهذه الورقات سميتُها العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان .
« نذكرهم على وجه الاختصار . ومن أراد بسط ذلك فعليه بكتابي « التبيين
« في تراجم العلماء والصالحين » ، وبكتابي « تذكرة الإخوان بحوادث الزمان . »

(١) انظر عنه كتابنا : المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة ، والمصادر المذكورة فيه — وكذلك مقدمتنا لكتاب قضاة دمشق لابن طولون .

(٢) طبع بتحقيق الأمير جعفر الحسني باسم « الدارس في تاريخ المدارس » . صدر في دمشق عام ١٩٤٩ و ١٩٥١ (مطبوعات المجمع العلمي العربي) .

رتّب النعيمي التراجم على طبقات فقال :

« وأنا أرتب مَنْ أدركتُ على ثلاث طبقات :

« الأولى : فيمن أخذتُ عنــه علماً ، أو رويتُ عنه شيئاً ، إجازةً ،

« أو إذناً ، أو حضوراً ، أو سماعاً ، أو قراءةً ، أو نحو ذلك .

« الثانية : في الأصحاب والأقران .

« الثالثة : في الأتباع . »

فيكون الرجال المترجم لهم من الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن التاسع والربع الأول من القرن العاشر .

وقد رتب النعيمي هذه التراجم حسب مولدها . قال : « وأنا أرتبهم على حسب موالدهم . » ولكن يبدو أن هذا الترتيب كان في مسوّدة المصنف ، ثم بدّله بعض الطلبة . يقول النعيمي :

« وقد استعارها مني بعض فضلاء الطلبـة المصريين ، فرتبهم على حروف المعجم ، فقدّم المؤخّر وأخّرَ المقدّم ، على حسب ما أراد . ولا قوّة إلا بالله . »

وقوله : لا قوّة إلا بالله ، يُشعر بأنه غير راضٍ عما فعله الطلبة المصريون .

ثم وقعت هذه النسخة لابن المؤلف يحيى . فذيّل على أبيه بخطه قائلاً :

« يقول كاتبه العبد الفقير الى الله تعالى أبو زكريا يحيى ابن المؤلف ، مؤلف هذا الكتاب المسمّى ذلك بالعنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان ، جمع والد كاتبه هو سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الإمام العلامة العمدة . . . .

« استخرتُ الله تعالى بأن ألحق بهذا المؤلف مواليد جماعة من الصلحاء والفضلاء الذين انتشو (كذا) في هذا الزمان وغيره . . . »

★

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد صارت هذه النسخة المخطوطة الى أحمد رافع الطهطاوي . وكأنه وقع على مسوّدة المصنف نفسه ، فعارض النسخة بها وصححها ، ونبه في الحواشي على أخطاء كثيرة وردت في النص .

وها نحن أولاء نقدّم أنموذجين من ترجمات النعيمي ، وملاحظات الطهطاوي .

— ١ —

« ومنهم قاضي القضاة حافظ العصر شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي ابن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حَجَر ، وبه اشتهر ، ابن أحمد ، العسقلاني الأصل ، المصري ، الشافعي .

« مولده بمصر العتيقة . وميلاده ثالث عشرين شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة . وأول سماعه الحديث كان بمكة سنة خمس وثمان مئة . وتوفي ليلة السبت ثامن عشر ذي الحجة سنة اثنتَيْن وخمسين وثمان مئة بالقاهرة . وقد ذكرتُ له ترجمة بخطي في كراسين بأول شرحه فتح الباري .

(حاشية بخط الطهطاوي : قوله سنة خمس وثمان مئة صوابه خمس وثمانين وسبع مئة . وكان عمره إذ ذاك اثني عشرة سنة . ذكره الحافظ ابن حجر نفسه في المجمع المؤسس[1] . كتبه أحمد بن رافع الطهطاوي الحنفي عُفي عنه .)

---

(١) يعني المجمع المؤسّس للمعجم المفهرس الذي جمع فيه أسامي شيوخه وهو مازال مخطوطاً . انظر فهرس المخطوطات المصوّرة . التاريخ ١ : ٢٣٠ .

- ٢ -

« ومنهم العلاّمة قاضي القضاة المالكية بدمشق علم الدين ويُقال انير (كذا) الدين ، أبو النجا سالم بن ابراهيم بن عيسى الصنهاجي المغربي[1] .

« ميلاده سنة سبع وأربعين وسبع مئة . وتولّى [قضاء] قضاة المالكية بدمشق في سنة ثلاث وأربعين وثمان مئة . وتوفي بالمدرسة الشرابيشية[2] قبلي الأسدية ، داخل دمشق ، في تاسع صفر سنة ثلاث وسبعين وثمان مئة ، ودُفن من جانب (كذا) الشمالي من مقبرة الحدبة[3] (كذا) .

(حاشية بخط الطهطاوي : الذي بخط المؤلف : ويُقال زين الدين . كتبه أحمد رافع عُفي عنه) .

* * *

والمخطوط في ٦٠ صفحة . ومن ص ٦١ يبدأ ذيل ابن المؤلف وينتهي في ص ٦٥ . وقد وقفه أحمد بن اسماعيل بن محمد تيمور . ورقمه في التيمورية ٢١٩٣ تاريخ . والكتاب يُكمل النصوص التي بين أيدينا عن تراجم رجال القرن التاسع والقرن العاشر ، كالضوء للسخاوي ، والكواكب للغزي ، وتراجم الأعيان للبوريني ، وذخائر القصر لابن طولون ، وغيرها .

صلاح الدين المنجد

---

(١) انظر : قضاة دمشق لابن طولون (من تحقيقنا) رقم ٢٠٠ . وهذه الترجمة تكمل ما ذكره ابن طولون .

(٢) انظر عنها الدارس للنعيمي ٢ : ٧ .

(٣) صوابها « الحمرية » . عرفت كذلك في القرن التاسع ، وهي مقبرة الحميريين . انظر عنها كتابنا خطط دمشق ص ١٢٦ ؛ وتاريخ دمشق ، المجلدة الثانية (تحقيقنا) ص ٩١ ، ١٤٤ .

فهرس الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين

صفحة

٣ قصيدة منصور النَّمَري في الرشيد . . للأستاذ خليل مردم بك . . .
١٤ أسماء الشهور في العربية . . . . . للأمير مصطفى الشهابي . .
٢٠ العلاقات الجوهرية بين اللغتين العربية والارامية « المريانية » (٣) . . . . المطران غريغوريوس بولس بهنام
٣٥ مهرجان أحمد شوقي . . . . . . للدكتور سامي الدهان . .
٤٢ شاعر العرب . . . . للأستاذ شفيق جبري . .
٤٨ الوصف والغزل في شعر شوقي . . . . للدكتور سامي الدهان . .
٦٦ نثر شوقي . . . . للدكتور شكري فيصل . .
٨٨ معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات . للدكتور حسني سبح . .
١٠٠ مختارات مما لم ينشر من شعر البحتري (١) للدكتور صالح الأشتر . .
١١٢ كتاب النفس لابن باجّة الأندلسي (٥) . للدكتور محمد صغير حسن المعصومي

التعريف والنقد

١٢٧ ديوان ابن الخياط . . . . . . للدكتور سامي الدهان . .
١٣٣ الثقافة الإسلامية في الهند . . . . } للأستاذ محمد بهجة البيطار .
١٣٨ ديوان السيد موسى الطالقاني . . . }

آراء وأنباء

١٤٥ أعضاء المجمع العلمي العربي في سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م . . . .
١٤٥ الأعضاء العاملون . . . .
١٤٥ الأعضاء المراسلون . . . .
١٤٧ الأعضاء الراحلون . . . .
١٥٠ انتخاب عضو جديد . . . .
١٥١ كلمة الدكتور جميل صليبا في جلسة استقبال الدكتور محمد كامل عياد عضواً عاملاً .
١٦٥ كلمة الدكتور محمد كامل عياد . . . .
١٩٢ الإفصاح عن أبيات مشكلة الإيضاح للفارقي . للأستاذ عبد العزيز الميمني .
١٩٦ مستدرك على تصويبات في الوافي بالوفيات . للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب .
١٩٨ ملاحظات على الجزء الثالث من كتاب الوافي بالوفيات (٢) . . . . . } للأستاذ رشدي الحكيم . .
٢٠٤ العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان . للدكتور صلاح الدين المنجد .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com